

لويس أرنو

زمن "المُحَلّات" السلطانية

الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب
ما بين 1860 و 1912م



ترجمة : محمد ناجي بن عمر

زمن "المَحَلّات"
السلطانية

© أفريقيا الشرق 2002

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

المؤلف — لويس أرنو

ترجمة — محمد ناجي بن عمر

عنوان الكتاب

زمن "السُّخُلَات" السلطانية

الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب

ما بين 1860 و1912م

رقم الإيداع القانوني : 1037/1999

ردمك : 8-229-25-9981

أفريقيا الشرق — المغرب

159 مكرر شارع يعقوب المنصور — الدار البيضاء

الهاتف : 022 25 95 04 - 022 25 98 13 — فاكس : 022 44 00 80

أفريقيا الشرق — بيروت — لبنان

ص. ب. 3176 - 11

لويس أرنو

زمن "المُحَلَّات" السلطانية

الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب
ما بين 1860 و1912م

ترجمة : محمد ناجي بن عمر

أفريقيا الشرق 

فهرس

9	تقديم
21	الهوامش
23	ولاية مولاي الحسن 1874-1894
25	1- الاستيلاء على فاس ومغامرة غيابة
25	ا - تولية مولاي الحسن الأول
26	ب- رحلة السلطان إلى مكناس
26	ج - أحداث كروان
28	د - أحداث بني مطير
30	2 - أحداث فاس
36	و - أحداث بوعزة الهبري
37	ز - وباء 1874-1875
38	ح - تحركات الحملة بمنطقة تانسيفت والمدن الساحلية.
39	ط - أحداث بني يزناسن 1876
44	الهوامش
45	حملات مختلفة (إلى وادي سوس 1882-1886)
50	مراجعة نظام الجند
51	حملات إلى تادلة
52	حملات إلى سوس
55	استقبال المتوكي للسلطان
57	أحداث آيت سخمان
	آخر الحملات
59	(وفاة مولاي الحسن 6 يونيو 1894)

73	الهوامش
75	ولاية مولاي عبد العزيز من 8 يونيو إلى 19 غشت 24 نونبر 1908
95	الهوامش
97	آخر محلات الوصي على الملك - اختفاء عائلة باحماد - مظاهر كفاح المخزن.
118	الهوامش
121	ثورة بوحمارة
123	أ - نشوء وتطور حركة بوحمارة)
132	ب - أطوار المواجهات الأولى :
142	محلة المنبهي الكبرى
153	ماذا أصبح بوحمارة؟ مطارد، متابع. إنها أيام قد زالت وانمحت
159	الهوامش
161	الريسولي: "أحد ملوك الجبال"
169	تقدم تحركات مطالب حقيقي بالعرش : مولاي عبد الحفيظ
189	ولاية مولاي عبد الحفيظ (من 19 غشت 24 1908 إلى 30 مارس 1912)
191	المواجهات الحربية الأولى ضد آيت بوسي وبني مطير
195	نهاية مأساوية لغامرة بوحمارة
207	مصاعب جديدة للمخزن الحفيظي
215	آخر أحداث مغرب ما قبل الحماية
220	الهوامش

ولاية سيدي محمد بن عبد الرحمان (1859-1873)

الجيش المغربي حوالي 1870

تقديم

تختلف مصادر تاريخ المغرب باختلاف مواردها، لكنها تتكامل جميعها من أجل كتابة تاريخ يصمد أمام كثرة الطروحات والمساءلات النظرية والمعرفية.

وتأتي الرواية الشفوية أحيانا في صدارة هذه المصادر المكتوبة في تاريخ المغرب. وتأتي ترجمة هذا الكتاب «زمن المحلات» في إطار مشروع مع ثلة من الباحثين لإعادة بعث هذه الروايات الشفوية لما لها من أهمية ليس لأنها تحمل أحيين كثيرة أخبارا ومستجدات لا توجد في المصادر المكتوبة، بل لأنها تشكل مادة تكميلية في كتابة تاريخ المغرب خاصة منه المعاصر.

لكن تجدر الإشارة إلى أن هذه الروايات تتحكم فيها أحيين كثيرة أهواء الراوي ومصالحه، ووسطه، ونفوذه وطموحه، وأهدافه. لهذا نرى ضرورة إخضاع هذه الروايات إلى منهج علمي صارم ينقي صادقها من كاذبها.

أما هذه الرواية الشفوية التي أقدمنا على ترجمتها فقد توافرت فيها شروط موضوعية أكسبتها وثوقية أكبر أهمها :

___ كون الراوي الحاج سالم العبيدي (وأحيانا أخرى الملازم بن سديرة) مواكب ومساهم في الأحداث التي رواها بدقة متناهية.

___ كونه (أي الراوي) يتميز بموضوعية في الحديث تظهر من خلال قوله عندما لا يكون متيقنا من شيء (لا أدري، نسيت. . .).

___ كون الكاتب لويس أرنو كان حريصا على تدوين كل ما يقوله الحاج سالم على هامشيته أحيانا.

___ كون هذه الرواية وصفت أحداثا هامة عاشها المغرب ما بين 1860 و 1912 بطريقة لا نكاد نجد لها في كثير من المصادر المكتوبة عن هذه المرحلة.

___ كون الحاج سالم العبيدي كان جنديا بخاريا، فإنه أعطى نظرة مفصلة عن طبيعة تكوين الجيش المغربي المعاصر.

— كون هذه الرواية يعود تاريخ حكيها إلى الثلاثينيات من هذا القرن وهو زمن لازال فيه صدى تلك الأحداث حاضرا في عقول وقلوب من واکبها وحضرها.

رغم هذا كله لا ندعي أن كل ما ورد في هذه الرواية المفصلة متفق على صحته، لأن الأمر يتعلق باسترجاع واستذکار قد تحفه كثير من مشاكل النسيان أو الإهمال أو . . . ، وهذا إشکال نظري أترك البث فيه للمختصين، أما أنا فلست سوى باحث أغوتني هذه الرواية فترجمتها.

«شرح الحاج سالم العبيدي في روايته وبأسلوبه الخاص، جالسا مرتاحا على كرسي فاسي مطرز، وأمام كأس شاي منعنع :

أتذكر في الوقت الذي أصبحت مميزا بعض الشيء، أنه كان يحكم هذه البلاد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان⁽¹⁾، إلا أن أحداثا هامة عرفها هذا العهد قد تغرب عن ذهني لأنها لم تكن راسخة بالشكل الكافي.

لقد ولدت في دار ولد الحاج العياشي بعبدة، وكان أبي بخاريا⁽²⁾ عبدا للمولى سليمان. وكنت عبدا للقائد العياشي أقدم صحبته من عبدة إلى المشور ثلاث مرات سنويا بمناسبة الأعياد⁽³⁾. وأتذكر أن سيدي محمد كان طويل القامة، قويا، ذا صدر عريض وقوي لكن رجلاه كانتا نحيفتين. وقد كان من عاداته الاحتفاظ بشعر طويل مموج على الطريقة البربرية. كان يمتطي ظهر بغل العارف المثقف وصهوة فرس المحارب. فعندما كان خليفة لأبيه على مراكش، قام بعدة حملات عسكرية، فهو الذي كان قائد القوات المغربية لإمداد الشريف عبد القادر بالعون في مواجهة الفرنسيين بواد إسلي (14 غشت 1844)، حيث هربا متراجعين أمام قصف مدافعهم. وهو الذي قاد أيضا المغاربة للدفاع عن البلاد بعد أن لجأ إليها الجزائري المناضل (1847).

وقد كان حاجب قصره سي موسى بن حماد، والد باحماد المشهور الذي سيكون بدوره حاجبا لابنه مولاي الحسن. فقد كان حاجبه من عائلة قديمة من العبيد الزوج وكان وزيره هو سي الطيب اليميني الملقب ببوعشرين. وكان قائد مشوره الجيلالي بن حمو، وكان خليفة هذا الأخير أو ملازمه أحد البخاريين السود يدعى الحاج محمد بن يعيش جد الحاجب الملكي الحالي الذي كان -كما تعلم -قائد المشور في عهد المولى يوسف.

وقد تميزت مدة حكمه بالحرب ضد إسبانيا (22 نونبر 1859) حيث حاصر الريفيون وجبال سبتة وطنجة. وأحدثوا عدة اضطرابات بها مما جعل الأسبان يخرجون لمحاربتهم. وقد كان أصحابنا معسكرين بمعسكر عين الدالية، ولا يتعدى عددهم خمسة عشر ألف رجل بما في ذلك النظاميون وغير النظاميين، وعشرات المدافع يشغلها بعض الفارين من

الجنديّة، وألف فارس فقط مكونين الحرس الخاص لمولاي العباس أخ السلطان وقائد النظاميين. ورغم عدد المغاربة : فقد انهزمنا أمام الطلقات السريعة للبنادق الإسبانية. ولا أتحدث لك عن هذه الحرب إلا عن سماع، لأنني لم أولد إلا بعد انتهاء هذه الحرب⁽⁴⁾.

وقد انتبه السلطان بعد هذه الهزيمة إلى ضعف وقلة أفواج جيشه، وإلى تنظيم وتخطيط الجيوش المسيحية، ففكر في إمداد جيشه بجميع التعزيزات من أجل ترميم وخلق جيش قوي يحمل هذا الاسم.

وهكذا فتح مخازنه، ووزع الأموال والأسلحة والألبسة، وأرسل طلبات للحصول على البنادق والتموينات من إنجلترا كما نظم مصلحة خاصة بالمخابرات مركزا رجالاتها في الميناءات والمدن الكبرى من أجل الإخبار بكل ما يروح في البلاد. وهكذا أصبح الجيش والمخزن يحتلان مكانة وأهمية أكبر بالنسبة للعرش. وسأحاول أن أصف لك وضعيتها الجيدة سنة 1285 هـ/ 1868.

لقد كان الرجال الذين يحاربون ويرافقون السلطان في الحملات ضد القبائل القوضوية ثلاثة أنواع : فقد كان هناك النظاميون، و الجنود الرسميون (العسكر)، ثم رجال المخزن أو المسخرين الذين كانوا لا يحملون البنادق والبارود إلا عندما يخرج السلطان إلى الفراك⁽⁵⁾، ثم في الأخير يأتي مجندو القبائل العرضيون، أعدادهم غير قارة، ولا يلتحقون بصفوف الجيش إلا في الحالات والدعوات الخاصة.

إن « العسكر » الذي تكون مجموعاته ما يسمى بالكيش، يكون دائما في حالة استعداد للمعارك. ويقطن رجاله في القصبات، مجهزين وممّنين من الخزينة. ويأتي هؤلاء الجنود في الأصل من القبائل الخزنية التي يعهد لها بمجموعة من الامتيازات منها إمداد السلطان بالوحدات العسكرية التي يكون عددها محددا أو متفاوتا حسب أهمية القبيلة. وهذه القبائل هي :

1- الوداية : المكونة من ثلاث مجموعات، كما تعلم، الأولى قرب وادي سبو⁽⁶⁾، الثانية بقصبة الرباط، والثالثة بحوز مراكش.

2 - الشراكة : من أصل عربي أتوا من المشرق، وأكبر فخذة فيهم هم «أولاد جامع الموجودين في الجهة الشمالية لفاس، والمكونين لأكبر عدد من العسكر. حيث يفوق عددهم جميع باقي الشراكة، حتى إنه أصبحنا نحن أصحاب المخزن، لا نفرق بين أولاد جامع والشراكة.

3 - «الكيش» تنتمي للشراردة المحسوبة على أولاد دليم الشبانات وعدة قبائل أخرى.

4 - وفي الأخير يأتي البخاريون الذين أنتمي إليهم والذين يقضون حياتهم في الجنديّة

5 - كما يوجد أيضا كيش صغير مكون من رجال سوس (أهل سوس) المستقرين بسهل سايس قرب صفرو. لكنه لا أتذكر مؤسس هذا الجيش هل هو سيدي محمد أم مولاي الحسن.⁽⁷⁾

ولا يجب أن نظن بأن قبائل المخزن هذه التي أشرت إليها سابقا تبعت 100 أو 200 رجل سنويا من أجل تكوين العسكر. ذلك أمر كان واردا في البداية. أما مع توالي الأيام فقد أصبحت الجندية حرفة، وأصبح أبناء الجنود يشكلون خلفا لأبائهم من أجل الحفاظ على التوازن. فقد كنا جنودا أبا عن جد، حيث كانت العائلة إذا كان لها أولاد ذكور، ترسل أحدهم إلى العسكر والآخر إلى فرسان البخاريين، والثالث إلى المخزن في هيئة معينة. وكان السلطان لا يلجأ إلى طلب الجنود من القبائل الخاضعة إلا في الحالات الخاصة، حيث يأمر ببعث العديد من الجنود إلى فاس أو مراكش.

كما كان هناك مورد آخر للحصول على جنود للعسكر المخزني : فقد كان العبيد يشكلون مجموعتين الأولى : تسمى «طابور عسكر العبيد» حيث تضم العبيد الذين كانوا يستحقون السجن ثم الصعاليك منهم، المسجلين بصفة رسمية، الثانية : البخاريين ذوي السيرة القبيحة، (لكن هؤلاء الآخرين يتم الاحتفاظ بهم لفترات غير محددة لا يفقدون حقهم بصفتهم أحرارا) خاصة العبيد العاطلين الذين يزعمون القصر. وكان من عادة القواد الأغنياء للقبائل الكبرى : دكالة، عبدة، متوكة، كلاوة إهداء عدد مهم من العبيد والخدم إلى القصر في الأعياد الكبرى. ولقد أحصيتهم بالمئات في بعض أيام «الهدية»⁽⁸⁾ فقد بعث المتوكي يوما، إلى مولاي الحسن مجموعة من العبيد تقدر ب 200 فرد.

وقد كان القائد العام للجيش هو محمد الشرقي أما الذي كان يحكم كل خيالة وفرسان الحملة⁽⁹⁾ والفرسان النظاميين وغيرهم فهو قائد الرحى من أصل تركي. وسيحتفظ بهذا المنصب حتى عهد مولاي الحسن.

في الأيام العادية كانت توزع بعض التجريدات من الجيش النظامي في الميناءات والمدن التي لا يقطنها السلطان مثل : الرباط، مكناس، تازة حيث ركز سيدي محمد «مخازنية» كانوا من قدامى جنود أبيه أصبحوا منخرطين في سلك الشرطة ورجال الدرك وقد كان مجموع العسكر الملازم للسلطان في حله وترحاله سواء إلى فاس و مراكش يضم :

— فيلقا من 1800 إلى 2000 من المشاة تحت قيادة الحاج عزوز الفاسي الذي كان ممسكا بقصبة بوجلود. وقصبة فيلالة بفاس، وكانت له في مراكش قصبة كبيرة قرب باب الملاح لم يبق لها وجود.

— فيلقا من الفرسان البخاريين يتراوح عددهم ما بين 500 و 1000 تحت قيادة الحاج عبد القادر البخاري المستقر في فاس بقصبة الشراردة، كما تضم القصبة نفسها جنود القائد المشهور : الحاج منو المتراوح عددهم ما بين 1200 و 1500 من المشاة و 500 فارس.

أما مختلف أبراج فاس (البسيون) أي البرج الشمالي، و البرج الجنوبي، و برج سيدي بونافع و برج الشيخ احمد فقد كانت تحت قيادة فيلق مكون من 500 راجل تحت قيادة ابن المختار. و سيركز مولاي الحسن معملا للسلاح (مكننة) قرب القصر في المشور القديم بين باب السگمة و باب دكاكين. تحت مراقبة معسكر طابور العبيد (نحو 400 رجل) و قيادة القائد صالح بن الحايط.

و قد كان قائد الرحي، رئيس الفيلق يتقاضى 250 فرنك يوميا إضافة إلى عدة قروش من راتب بعض الجنود الذين لا توجد منهم إلا أسماء على الورق، و من أسلحة متلفة، وهدايا مختلفة مما يجعلني أقول دون أدنى شك أن راتب قائد الرحي يساوي الآن 30 إلى 50 فرنك و كان راتب قائد المائة (قائد مجموعة من الجنود مكونة من 100 جندي) يساوي 2 إلى 4 قروش يوميا في حين كان راتب الجندي العادي فلسا واحدا في اليوم، و عليه تدبر شؤونه في باقي مصاريف غذائه حيث يتلقى الإمدادات من عائلته أو قبيلته أو أن يسرق من هنا وهناك ولا يعيش في أغلب الأحيان إلا على الحركات ⁽¹⁰⁾ و قد كانت تعطاه أسلحته : بوشفرة (بندقية من الحجارة) استبدل في مرحلة لاحقة بالبندقية المدنه، و البندقية البلجيكية، ثم الحربة (تافلة) يغمدها أو دونه، و قد كان الجنود كلهم تقريبا يحملون خنجرًا بجانب أحزمتهم، حيث كانوا يشترون هذا السلاح المميز لهم باعتبارهم رجال بارود، ولم تكن هناك بدلة عسكرية حقيقية بالمعنى الذي يعطيه « الروميون ⁽¹¹⁾ » الغربيون فقد كان البعض منهم يلبس البلاغي، و في حالة المشي للحروب و كان الكل يمشي حافي القدمين باستثناء ذوي الرتب العالية المقدمين (الرقباء : جمع رقيب والخلفاء (أي الملازمين) وكانت البدلة الأكثر ارتداء : سروالا فضفاضا من كتان / ثوب أزرق، يعطيه المخزن للجنود، مع معطف في لون الراية : أخضر، أزرق، إلى غير ذلك. . و قفطانا مقطوعا إلى المنكبين.

ولم يكن باستطاعته الجندي أن يعيش في راحة تامة، حيث تتعدد الحملات و الحملات المتعاقبة، إذ يوزع المخزن الرصاص المستدير الأصفر عن عيار البندقية على الجنود و قد كان عدد الرصاصات يتراوح ما بين الخمس والست و كان البارود يباع بالتقسيط في علب من ورق محزومة، يحتفظ بها المحارب في قرايه إذا توفر له أو في وعاء من خشب.

ورغم مجهودات القادة وجود محاربين مهرة في الجيش فإن التمارين / المناورات العسكرية لم تكن تسير بشكل منظم، بسبب التغيرات المستمرة للجنود لأسباب مختلفة و في الحقيقة فقد كان الجنود يمتنون حرفا أخرى من أجل العيش، و إعالة عائلتهم خاصة

أن عددا كبيرا منهم كان متزوجا، بل كان بعضهم يبيع سلاحه ويتخلى عن سلك الجندية. لكن عادة ما نجدهم في الصفوف منتظمين حين كل انطلاقة ببندقية الله وحده يعلم مصدرها.

والى جانب العسكر كان هناك «المسخرين» رجال المخزن، الذين كانوا كلهم تقريبا. في المحلات على صهوات الجياد، هندامهم مغربي عادي، قفطان ملون، وفرجية غالبا ما تكون رقيقة وشفافة، و سلهم غليظ، و شاشية حمراء مقرنة مديلة في الأخير « ببلوطة» من حرير سوداء. وكان لقوادهم نفس الهندام، لكن كانوا يتميزون عنهم بإدارة عمامة بيضاء غليظة حول الشاشية.

وقد كان لهم نفس سلاح العسكر أحدثك هنا، عن الرجال ذوي الخناجر (الكميات) وليس عن الوزراء والكتاب المثقفين : رجال الشكارة (محفوظة من جلد توضع على الحزام مشدودة بحبل من جلد أو غيره إلى العنق) فهؤلاء، لم تكن لهم علاقة بالحروب حيث كانوا لا يحملون إلا أقالهم القصية الرقيقة الرأس⁽¹²⁾

وكان هؤلاء المسخرين يأتون من نفس القبائل المخزنية، حيث يتوارثون هذه المهنة أبا عن جد. فقد كانوا يجتمعون متأهين للانطلاق في حركات تحت قيادة قائد الرحي مكونين مجموعة مهمة بعض الشيء (1500 من البخاريين، و 500 من الوداية و 500 من الشراكة، و 400 من أهل سوس).

وقد كان هؤلاء المسخرين، خلال الأيام العادية، موزعين في مختلف أجنحة القصر : مروضي خيول، سعاة، منظفي إسطبل الخيول والبغال، مشيدي خيام، أصحاب سلاح، معدي أسرة، معدي شاي، مهثي ماء نظافة السلطان. . . وعندما تكون هناك حركة ما فإنهم يأخذون أسلحتهم ويصبحون السلطان، حيث يبنون من خيامهم دائرة حول الفراك، مكونين بذلك حزاما آمنا قويا. أما في المدن الكبرى فقد كانوا يعيشون مع عائلاتهم في نوايل⁽¹³⁾ مجتمعة أو في دور أو منازل مجاورة لدار المخزن إنهم في ملك السلطان، وأبناؤهم في خدمة المخزن، سواء في سلك الجندية أو في أحد أروقة المسخرين، أو سواء اشتغلت فتيانهم لدا العائلات المخزنية أو داخل القصر.

لكن سيدي محمد الذي كان يريد جيشا كثيرا وقويا لن يتأخر في ملاحظة أن عدد المسخرين غير كاف، فقد أحصاهم، يوما ولم يجد عددهم يتعدى الألف فقط وكان يذهب نصفهم في حين يبقى النصف الآخر قارا للحراسة أو للعمل داخل دار المخزن في غياب السلطان. ولهذا فكر في خلق قبائل تسمى «الناية» مهمتها تزويده بالجنود فارس مسلح من كل عائلة. وكانت تسمى حركات هذه القبائل : النوايل. وكانت تأخذ مكانها بجوار المسخرين حول الفراك وتشكلون من قبائل عبدة، و دكالة، و الرحامنة،

والمنابهة. لكن هؤلاء الوافدين الجدد لم يكونوا محط رضى المسخرين الرسميين الذين يتباهون بشاشياتهم ويعتبرون أنفسهم عمدة السلطة في البلاد، أليسوا تقريبا من درجة القواد؟ أليس منهم يختار السلطان موظفيه والحاجب الملكي وقائد المشور؟ لهذا كانوا يتجاهلون فئة النواب إلا أنه عندما تتحدث البنادق، تكون الحاجة إلى النواب أكثر حيث يوضعون في الأماكن الأكثر اشتغالا في الحرب. وأذكر أن هؤلاء الأقوياء كانوا أكثر شجاعة من المسخرين. وقد كان أول من لبي نداء السلطان من هذه القبائل، الرحامنة، الرماة الأقوياء والأغنياء، فقد كانوا دائما في حرب بضواحي مراكش وكان منهم الفرسان والخيول القوية دائما محيطة بالسلطان. وبعد مدة لاحقة سوف تعمل كل قبائل الحوز : عبدة والمنابهة واحمر و حربيل ودكالة⁽¹⁴⁾ على إرسال أنصاف المسخرين إلى قاعدة «المخازنية» وقد كانت هذه الطريقة وسيلة جيدة لتقوية المخزن واستتباب السلم في جنوب البلاد. هذا إذن كل ما يتعلق بما هو نظامي في العسكر والمسخرين.

أما بالنسبة للمدفعية : فقد كان هناك طابور مكون من 400 مدفعي، والجنود المسمى طابور الطبيعة أو المهندس مكلف بالشماني أو العشر مدافع التي كانت تتبع المحلة. وقد كانت هذه المدافع المختلفة الأنواع تحمل بشكل مسهم على ظهر الجمال كما كانت هناك مدافع صغيرة خاصة بالجبل تملأ من أفواهاها. لكن المغاربة لم يكن منهم ميل وإتقان لتشغيل هذه المدافع، حيث كان يتولى تشغيلها بدلهم بعض المرتدئين العسكريين الأسبان. ولم تكن نعد من المغاربة سوى «معلما» واحدا يدعى إسماعين في تجريدة المدفعيين في الرباط يستدعى الرماية والإصلاحات⁽¹⁵⁾.

وقد كان عدد هؤلاء المهندسين أو الجنود المهرة حوالي 30 فردا محسوبين على طابور المدفعية، وتتحدد مهمتهم في توضيح الطريق أمام المحلة حيث كان عليهم معرفة جميع الطرق والممرات، والمعابر والمسالك، وعيون المياه، وتحديد أماكن التمسك، وكان الجيش يسير بتوقيت مضبوط، حيث كان هناك موظف خاص (الموقت) مهمته ضبط التوقيت بساعة يحملها في المستودع.

وكان على هؤلاء المهندسين أيضا تخطيط تصاميم الجهات التي ستمر بها المحلة. والتعرف على الأحوال، واستباق الطابور من أجل معرفة حالة الأودية والتغيرات التي لحقت المسالك والمعابر. وكانوا لا يشاركون في الحروب، إلا أن هذا لا يعني أنهم دائما كانوا مسلحين مثل باقي الجنود الآخرين.

وكانت فئة الخيالة لا تتميز عن باقي مكونات العسكر التي وصفتها. ففي الطريق (أي طريق المحلة) كان المشاة والخيالة يسيران معا متبادلين الإعانة، وفي الحالات الخاصة أو القيام ببعض العمليات المعددة، يجمع كل الخيالة (1500 إلى 2000 نظامي) ويضاف إليهم فرسان القبائل التي سأحدثك عنها بعد قليل، تحت قيادة وتعليمات قائد الرحى الغوجة.

أما البحرية العسكرية فلم تكن موجودة كما هو الشأن عندكم، فقد كانت هناك بعض المدفعية فقط، وفرقاطة أو فرقاطتين بالعرائش لا تفيد في شيء خاصة أنه لم يكن لها ربابنة وبحارين مستعدين لقيادتها.

كما لم تكن هناك أيضا مصالح طبية في عهد سيدي محمد، ولم نجد أطباء في المحلة إلا زمن مولاي الحسن مع قدوم الأطباء الفرنسيين الأوائل Ilinares Jaffary اللذان كان يحضيان باحترام وحب كبيرين. كما كان هناك أيضا عالم يدعى مولاي أحمد الزواق يعتني بفئة المهندسين ويقدم علاجاته أثناء الحملات، وأثناء التوقيفات كان الجنود يلجأون إلى المداوين التقليديين.

هكذا كانت تركيبة الجيش المغربي في هذه الفترة إلا أنه يجب أن نضيف إلى هذه المجموعات النظامية، الوحدات العسكرية للحرقة. فعندما يقرر السلطان بعث حملة ضد هذه القبيلة أو تلك يعين حرقة، أو حين يريد الذهاب من فاس إلى مراكش، سكناه الرسميين، مروراً بالرباط، فإنه يكون واجبا على قواد القبائل الخاضعة للمشعرين من قبل بعث وحدات عسكرية مجسوبة من الحركة لتأمين وتقوية طريق المخزن. ويكون القائد عادة هو الذي يتولى قيادة رجال قبيلة المتراوحة أعدادهم حسب أهمية القبيلة. وهكذا كان يصل عدد دكالة إلى 2000 رجل وكانت عبدة تبعث 5000 رجل، واحمر 250 والشياطمة 500 وحاحا 2000 وزمران 500، والرحامنة 2000 والشاوية 3000 وبني مسكين 300 والشراردة، وكان السلطان لا يرغب إلا في فارس واحد لكل 50 كانون (منزل). لكن كنا نبعث ما كان بالمستطاع وكان بعض الناس يستبدلون أو يقدمون الأموال للقواد من أجل إعفائهم وكان بعض المشاة يتفرقون منذ المراحل الأولى للحركة، راجعين إلى أراضيهم وقطعانهم. لقد كانوا في حقيقة الأمر جماعة من المحاربين المترددين الذين يوضعون في الحراسة الأمامية، وعلى جوانب المحلة وكان المخزن لا يفكر كثيرا في مؤونة وصيانة مجموعات الحركة، لأن القبيلة هي التي كانت تدفع المال الكافي لكل فرد / جندي طول مدة الجندية. حيث كانت كل فرقة تصرف الأموال على عدد الفرسان والخيول التي بعثت بها، وقد كان القائد هو خازن وممون مجموعته دون أدنى مراقبة، وبما أن الجنود هم المعول عليهم في قوة المخزن، فإنهم يكونون هم السابقون إلى الاستفادة من خدمات القبائل، وكان القائد أحيانا يعطي منذ الإنطلاقة مصاريف كل الطريق لكن النتيجة تكون دائما نفسها حيث تنهب الأموال منذ المراحل الأولى. وحول معسكر السلطان كانت تتجمع القبائل يمينا ويسارا حيث تضرب خيامها على بعد من هذا الأخير.

وقد كان الفراگ يضم خيام السلطان المزينة في أعلاها بالكرات الذهبية، والمحاطة بخيام الوزراء والكتاب والموسيقين. وكانت خيام المسخرين تشكل حول هذه النقطة الوسطى مربعا مغلقا صعب الاختراق، بداخله خيول السلطان وبغال الموكب والمدافع.

وليس بعيدا عن هذا المكان، يتجمع الجنود داخل خيامهم الجلدية حول خيمة العلاف أو وزير الحرب، كما يوجد طابور عسكر العبيد أقرب ما يكون إلى المعسكر السلطاني وسأقول لك السبب في ذلك : فقد كان السلطان يصحب معه أثناء الحملات عددا من النساء ثلاثين أو أربعين يوجد منهن الخدم والجواري وعشرات الخصيان. إنها داره المتحركة بالأمثلة والجواهر على ظهور البغال التي يحرسها هؤلاء العبيد السود والحال أن العبيد الزوج وحدهم عادة هم الذين لهم الحق في رؤية النساء غير المحتجبات. وعندما يكون هناك إعصار أو رياح شرقية قوية تتحرك من جرائها جوانب الفراگ، تستقدم وبسرعة أفواج العبيد حيث يبقون معلقين على حبال الفراگ طول مدة هذا الطقس المضطرب، وإذا سقط أو رفع الفراگ لم يكن من اللائق لغير المسخرين البيض رؤية مقر إقامة السلطان.

ولهذا السبب بالضبط كان طابور عسكر العبيد المرافق دائما لبغال نساء القصر والخصيان وأمتعة السلطان لا يطلع بأي دور عسكري مهم، وعندما تريد امرأة أو أحد الخصيان التوقف في الطريق لقضاء الحاجة فإن المقدم يعمل على بناء خيمة صغيرة من الكتان تطوى من بعد بواسطة عبيدين مكلفين. وكانت صفات العبيد ناقصة فأحيانا عندما يهجم على الموكب الذي يحرسون ولا توجد له الأموال ولا نساء، فإن رعبا كبيرا يمتلكهم.

وعادة ما يكون بين معسكر الجنود والمسخرين سوق متنقل تعرض فيه كل السلع : واللحوم والتوابل وقطع الثوب والشموع والسكر والشاي وبلغ اليهود، بل حتى النساء اللواتي يخفن ويرفهن على الجنود بأغانيهن ورقصاتهن.

ولم يكن هناك نظام معين لسير الحملات، فعادة - عند عبور أراضي القبائل الشائرة تتكلف وحدات القبائل بأخذ القيادة من أجل إجلاء كل المخاطر على جوانب الحملة. لكن عندما يخاف من المفاجآت من الخلف خاصة من القبائل البربرية، تعطى الأوامر لهذه الوحدات بالرجوع إلى الخلف وعندما تكون هناك حرب ما فإنهم يكونون دائما في الصفوف الأمامية وبما أنهم قد تعودوا على ذلك فإنه ليس ضروريا أن يتدخل النظاميون لأعانتهم والحسم في الصراع وقد كانت تسير الحملة تحت حمايتهم في السهول حتى إنك تخالها بحرا بشريا أمواجه تتلاطم تباعا مشاة وفرسانا. وعندما تمر هذه الأمواج يظهر السلطان في الوسط خلف خط حاشيته تحت مضلته وموسيقيين الذين يغنون خلال الثلاث ساعات من الرحلة مقدما بذلك المسخرين الشراكة و الوداية والقواد والضباط، أما أسلحته فكانت قريبة منه عند من هو مكلف بذلك. وخلفه يوجد الحاجب والوزراء والكتاب فوق البغال، والرماة بمدافعهم وأفواج باقي المسخرين مشكلين بذلك حزاما آمنا للموكب، وتبعاً لطبيعة المناطق والقبائل المعبورة فإنه يحاط أيضا بطابور الزوج وما يحرسون سواء في مقدمة الأفواج أم خلفها.

أما فيما يتعلق بالأسلحة والتموينات، فإن سيدي محمد كان يستقدمها من إنجلترا، لكن لم يكن بالإمكان لكل الجنود الحصول عليها، خاصة رجال وحدات القبائل الذين كانوا يأتون بأسلحة قديمة متوارثة أبا عن جد من مسالح فاس، تطوان، مكناس حيث ظلوا متوفرين دائما على بنادق من الحجارة تملأ من الأنبوب، وحتى لا تزيغ الرصاصات من المستديرة من مكانها فإنها كانت تلفف بشيء من الصوف في قطعة من برنوس أو في حشو نخلة قصيرة تسمى الليفة. في حين يأتي الباقي من الحملة بدون أسلحة أخرى غير الخنجر أو المطرقة. وكان بعض الفرسان يحتفظون برماحهم التي قد تفيدهم في الهجوم على الأعداء. ولم يكن سيدي محمد مهتما كثيرا بمسألة التسليح حيث لم يقيم بأي مجهود لتطوير هذا القطاع في حين أن ابنه مولاي الحسن هو الذي عمل على بناء معمل للأسلحة بفاس، من أجل صنع المدافع والبنادق والعتاد (1286) وكان يسمى المعمل «المكيبة» وقد بني المشور القديم في باب السكمة، وباب الدكاكن حيث تشغل عدة آلات تحت إدارة الإيطاليين الذين جاؤوا لهذا الغرض⁽¹⁶⁾. فكان يخرج من هذا المعمل الرصاص، والمدافع والبنادق والنقود حيث كانت تسك بها أيضا النقود التي تلعب دورا حاسما في الحرب. وقد كانت دائما الأشياء الجديدة تواجه بعواقيل تحول دون انتشارها في المغرب فمن أجل صنع سلاح واحد كان لابد من مكينات / مصانع كثيرة. فإلى حدود عهد مولاي عبد العزيز كان البارود يعطى للجنود في علب من الورق ولا زالت هناك بنادق قديمة لا نريد إتلافها، كما كانت هناك أعدادا مهمة من البنادق العادية والخفيفة العصرية، Gras، Martintteury، Winchester، Mauser وزعت بشكل عشوائي وقد كان هذا التنوع في الأسلحة يفرض بالمقابل تنوعا في العتاد وبما أن الأعداة الخاصة كانت ناقصة فإن البعض فضل الرجوع إلى بنادق آبائه التي كانت تطلق طلقات لا بأس بها، لكن بمعدل طلقة واحدة من عشر طلقات من بنادقكم.

أما فيما يخص تغذية هذا العدد الهائل من الرجال، فلم يكن هناك مورد قار للمؤونة أو مخازن فعندما كنا نغير إحدى القبائل الطائعة فإنه كان عليها تقديم المؤونة⁽¹⁷⁾. أما إذا عبرنا منطقة عدو أو نائر فإن كل واحد من الجنود ينصرف نحو قطعان الأغنام والدجاج ومخازن الحبوب حيث كنا نجتمع كل ما نجد أماننا. وقد كانت محلة السلطان تمر بأراضي القبائل الخاضعة أحيانا لأنها كانت تحمل المخزن على كواهلها المتعبة، وقد كانوا يمدون المخزن إضافة إلى ذلك إما بالعسكر أو المسخرين، أو النقود أو وحدات الجنود غير النظامية وكان عليهم أيضا تغذية عدة آلاف من الرجال طول مدة إقامتهم على ترابهم، مما جعل القبائل البعيدة تفضل الانشقاق وتكوين بلاد السبية، حيث تحدث حروب بين الفينة والأخرى مما يخلف مشاكل مستعصية، تجلب الخسائر للطرف المنهزم، لكنها أهون وأقل كلفة من ضرائب المخزن.

ومن أجل إنهاء قصة سيدي محمد سأضيف بأنه كانت هناك ثورات كبرى قليلة في هذه الحقبة، وكان الناس مسرورين وسعداء فقد كان القمح متوفراً في المخازن حتى الفتران كانت تأكله ولا تلجأ إلى قضم جلود سروج الخيل. وأذكر أنه في سنة (1285 هـ / 1867 م) حين استضاف سيدي محمد سلطانكم (نابليون 3) بعث بعض المغاربة برئاسة أحد وجهاء فاس الحاج محمد بن العربي القباج، إلى معرض بقصر كريسطل بسروج مطرزة وأحزمة فاسية مزينة بالذهب، وزرابي جميلة جداً.

ورغم ذلك فإنه كانت تبعث حملات اعتيادية لزموار والرحامنة المستعدين للتمرد والعصيان في كل وقت، وكذلك إلى قبائل بني موسى بتادلة حيث كان يؤتى منها بخمسين قتيل وسبعين سجين.

وكان السلطان لا يغادر القصر إلا قليلاً، تاركاً لأبنائه⁽¹⁸⁾ مهمة تسيير هذه العمليات الصغيرة، مرتاحاً بصفة خاصة لجنوب البلاد تحت حكم ابنه المفضل وخليفته علي مراكش مولاي الحسن.

وبعد مدة وجيزة من بعث الحملات إلى قبائل تادلة (1873 م) توفي فجأة سيدي محمد في قصره بمراكش. ولم يصدق الناس هذه الوفاة المفاجئة لهذا الرجل العالم المحبوب وقالوا بأنه قد شرب حريرة سببت له في إسهال حاد ولعل المقصود بذلك عندهم، أنه مات مسموماً ولكن ذلك أمر لا يعلمه إلا الله وحده.

الهوامش

- 1 - حكم المولى سليمان ما بين 1792 و 1822 ومولاي عبد الرحمان ما بين (1822 و 1859).
 - 2 - البخاريين جمع بخاري :وهم رجال ينتمون إلى طائفة البخاريين التي أنشأها مولاي إسماعيل سنة 1677م. ويكنون ميلشيات زنجية سوداء، أقيمت على كتاب صحيح البخاري ثم حملت هذا الاسم بعد ذلك.
 - 3 - يتعلق الأمر بالأعياد الدينية الثلاثة : عيد الفطر، عيد الأضحى، عيد المولد النبوي.
 - 4 - كان مجموع الإنزال : 35000 رجل، بما في ذلك 74 مدفعا، وكانت أهم المعارك Los Castillejos حيث انتصر الإسبان مخلفين حوالي 100 قتيل و500 جريح (3 يناير 1860). تطوان حيث كانت الخسائر تقدر ب 66 قتيل و1097 جريح وقد كانت اتفاقية الصلح لواء الراس في 26 أبريل 1860م.
 - 5 - نطاق من الخيام تعزل فيه خيام السلطان في مجموعة خاصة.
 - 6 - وبالتحديد على ضفاف واد مكيس رافد واد سيو.
 - 7 - لقد شكل أهل سوس منذ القديم خاصة في عهد السعديين : (نواة عرب بني معقل) نجما واحدا، وأدمجهم المولى إسماعيل في الوداية مع « المكافرة » في فاس وأعيد تكوينهم في عهد مولاي الحسن في فاس مع مهاجري سوس، وتافيلالت وجماعة صغيرة من جبالة وفريق أولاد إدريس الشراودة المستقرين في سهل سايس قرب صفرو.
- p : 186 Colin. E.Aubin : le Maroc d'aujourd'hui
- 8 - حفلات الولاء والهدايا التي تعقب الأعياد الدينية الثلاثة
 - 9 - مركز انطلاق الحملات العسكرية.
 - 10 - الحملات العسكرية من أجل إخضاع القبائل الثائرة.
 - 11 - لفظ كان يطلق على النصراني.
 - 12 - تلميحا لأفلام الكتاب زمنها المصنوعة من قصب، وغالبا ما يكون رأسها رقيقا.
 - 13 - نوع من السكن يبنى من قصب وطين.
 - 14 - لم تكن ذكالة محسوبة على قبائل النوايب.
 - 15 - منذ عهد مولاي الحسن أصبحت المدفعية تسير أمام السلطان خاصة أن هذا الأخير كان يعطي أهمية كبرى لهذا النوع من الأسلحة.
 - 16 - لقد كانت أول سفارة إيطالية في المغرب سنة 1875، أي بعد سنتين من تولية مولاي الحسن.
 - 17 - عبارة عن أطعمة تعطى يوميا لعابري السبيل أو منهم في حاجة إليها.
 - 18 - فمن بين أبناء السبعة أربعة تربوا في مدرسة فاس وهم إسماعيل، عرفة، الرشيد، د، الحسن، وهذا الأخير هو الذي عينه سيدي محمد خليفة له بعد أن بدت عليه معالم الرجولة.

ولاية مولاي الحسن (1874-1894)

1- الاستيلاء على فاس ومغامرة غيابة

1 - تولبة مولاي الحسن الأول:

عندما توفي سيدي محمد (بن عبد الرحمان)، كان ابنه مولاي الحسن ولي العهد وخليفته على مراكش في عمليات حربية في حاحة و بوريقي قرب دار القائد أنفلوس في حوض واد إيكر أو نزار حيث أعلن هناك سلطانا للبلاد. فغادر العمليات الحربية الجارية ثم اتجه صوب مراكش حيث سيفضي شهر سبتمبر.

وقد أخبر وهو في الطريق أن الرحامنة، عندما علموا ب وفاة السلطان، قد شقوا عصا الطاعة ضد قائدهم و لدبلة المتهم بحبس قائدهم القديم عبد الحميد بالصويرة (موكادور). فأطلق مولاي الحسن سراح هذا السجين وعينه قائدا على الرحامنة، وكان هذا التعيين هو أول تعيين رسمي له.

كان هذا السلطان الجديد طويل القامة، رقيقا وقويا، و ذا بنية جسمية نبيلة و ذا سحنة، ووجه لطيف أسمر مع عيين سوداوين واسعتين وأنف أفنى وخدين ممتلئين، وشفتين مشرطين ولحية سوداء.

وكان إبان خلافته على مراكش يحظى باحترام جميع المسلمين المثقفين والأغنياء، وحتى الفقراء بل إن بعضهم قد قال بأنه سيكون ملكا عظيما مثل مولاي اسماعيل، وذهب البعض أن سيدي محمد قد كان مصيبا جدا عندما عين مولاي الحسن وليا للعهد رغم أنه لم يكن الابن الأكبر. وقد كان الكل مسرورا ويطلب طول العمر لمولاي الحسن. وكان هذا الأخير قد ذهب لإحلال النظام وإخضاع عائلة مشهورة (عائلة أويهي) المتمردة ضد قائدها، وفي طريق عودته صحب معه بعض وحدات القبائل المجاورة (عبدة و الشياظمة و متوكة و دكالة وأحمر و غلاوة و دمنات)، ودخل إلى مراكش وسط استقبالات شعبية كبيرة، حيث انحنى أفراد المخزن أمامه مبايعين. وقد تم الاحتفاظ بجميع وزراء سيدي محمد بما في ذلك الخلفاء، كما عين مولاي عثمان قائدا على مراكش.

ب - رحلة السلطان إلى مكناس

وبعد إقامة، قرابة شهر، في مراكش كانت جميع المشاكل المستعجلة قد حلت وقرر مولاي الحسن الذهاب إلى مكناس عبر الرباط للقيام بالزيارة المعتادة لمولاي إدريس زرهون والتي بدونها لن تكون هناك بيعة صحيحة وحقيقية، وهكذا عبر نهر أم الربيع عبر مشرع بن عبو لتتزل المحلة بسيدي حجاج، حيث واجهت أمطارا غزيرة ورياحا قوية، لم يعد معها بالإمكان شد الخيام بسهولة، حتى أن الوحل انغrust فيه الأرجل (أكتوبر 1873). لتعبر بعد ذلك مزاب ثم وصلنا الرباط عبر زعير، ومن الرباط بعث مولاي الحسن، حسب العادة، استطلاعات نحو بني حسن الذين كان يشك دائما في خضوعهم للنظام. وكان أفراد هذا الاستطلاع مكونا من قسم من الخيالة مع الغوجة والجنود لابن المختار. وبوصولنا إلى ما بين للايطو وواد بهت، فوجئ جنودنا بالقائد العربي لكحل الحسناوي على رأس حملة مختلطة من زمور وبني حسن. وعند انهزام القائدين (الغوجة وابن المختار) إتجهنا نحو الرباط راجعين بدون عتاد ولا سلاح، وفي نصف ثياب. وفي الطريق بين سلا والقنيطرة شاهدا محلة السلطان تتقدم، فوقف السلطان غير مكترت لرؤية قائديه الراجعين الخجولين فبدا كأنه غير مهتم بجنوده المهزومين المختبئين بين الصفوف، ورغم ذلك تبلور عنده مشروع خلق لحية لمعاقبتهم، وكان الشرفاء الوزانيون الموجودون في المحلة قد تدخلوا ليشفَعوا للقائدين المهزومين عند الملك، خاصة أنهما فوجئا أمام حملات الحسناوي. فعفى عنهم السلطان، لكن طلب منهم إخباره بالمكان المدقق الذي وقعت فيه الواقعة، إلا أننا عندما وصلنا إلى الممر الخطير لم نجد أحدا، يبدو أن المتمردين المسرورين بأول انتصار لهم (على الوحدات السلطانية) لم يريدوا تضییع فرصة السبق، فقد اختفوا خائفين من قبضة هذا السلطان الجديد الذي يريد تركيز سلطته ومد نفوذه باللموس⁽¹⁾. وقد كان مولاي الحسن قد بعث إليهم وفدا لإخبارهم بأنه سيذهب إلى مولاي إدريس، وأنه يمكنهم الذهاب في أمان إلى مكناس، إذا بدا لهم ذلك حسنا وأن قائدهم لن يمسهم مكروه. ودون أي إزعاج وصل السلطان إلى الضريح، حيث سيبقى أياما للزيارة وإغداق الهدايا على شرفاء الزاوية.⁽²⁾ وبعد ذلك يستعد للرجوع إلى مكناس قصد الاستقرار بدار المخزن الإقامة المعتادة لأبيه المرحوم بالله.

ج-أحداث كروان

لكن في طريقه إلى مكناس لاحظ السلطان بعض الفوضى في صفوف جنوده وهكذا أعطى تعليماته لمختلف قواد الرحي الذين نهوه بأن مصدر هذه الفوضى هو تحركات الكروانيين في آخر الصفوف أو ما تسموه أنتم بالمواكب، حيث ينهبون التجار، ويقتلون دون ذنب بعض الجنود المكناسيين الذين كانوا يحرسونهم. وفي اليوم نفسه قال مولاي الحسن «غدا،

فجرا سنهاجم كروان، وسأكلف فيلق الحاج منو بالهجوم والعلاف سي عبد الله بن أحمد بقيادة العمليات»، وقد كان هذا الأخير وزيرا للحرب في عهد مولاي الحسن وأخا لسي موسى الذي كان وزيرا وحاجبا في الوقت نفسه، وكان هذا المنصب المزدوج يخول له التحكم في المخزن ككل.

وهكذا انطلق فيلق الحاج منو لتمشيط الطريق، إلا أنه لم يكن يتعلق الأمر إلا ببعض الطوائف من اللصوص النهابين الذين يجب إزاحتهم عن عيين ويسار الطريق حتى يهاجموا بعض الفرق المنعزلة من محللتنا. وقد تم بالفعل طرد هؤلاء الفوضويين على يد بعض المخبرين، كما رجعنا بعدة أسرى ورؤوس متقين بذلك الطريق بين مولاي إدريس ومكناس، وبهذا مشط حوض وادي الردم تماما، وعندما علم سكان مكناس بقرب وصول السلطان الجديد، وإزالة خطر هؤلاء الفوضويين الذين خربوا أجنحتهم لقريبة منهم منذ وفاة سيدي محمد، خرجوا فاتحين أبوابهم فرحين بسي عبد الله وجنوده مرتدين لباس العيد منتظرين قدوم مولاي الحسن.

هكذا إذن دخل السلطان مكناس في حفل بهي وسط زغاريد النساء، وطلقات البنادق، متجها إلى دار المخزن، في حين ذهب الجيش الكبير والمسخرين للاستراحة إلى معسكر سيدي بوزكري، المكان المعتاد لتعسكر المحلات الشريفة⁽³⁾

وقد عزز الحرس الملكي المكون من البخاريين المستقرين في النوايل قرب باب الروى بجنود الحاج عبد القادر البخاري. وليس هناك ما يدعو إلى الاستغراب من هذا الأمر، فقد سبق أن قلت لك، أن كل وحدات المسخرين مكونة من قسم فار ورسمي ثم قسم متحرك غير فار يعين أفراداه بشكل تناوبي، فكان القارون الرسميون منهم يكتثون في القصر في حين يذهب الآخرون إلى الحركات، لكن عددهم كان قليلا وفي الوقت الذي يكون فيه السلطان مقيما بأحد قصوره فإن هذا العدد يعزز بالعناصر التي تؤخذ من الوحدات التي وصلت مع الحملة.⁽⁴⁾

لقد كان مولاي الحسن متزوجا يصحب معه في طريقه من مراكش إلى مكناس ثلاثين من النساء بما فيهم محضياته وجواريه وخدمه، وكن يركبن، كما تعلم، البغال التي يحرسها خمسة عشر عبدا من الخصيان وتحت مراقبة طابور عسكر العبيد.

وكان وصول السلطان الجديد إلى مكناس بداية لأسبوع من الحفلات والأفراح حيث خلد الشعب أفراحه، ونشط التجار، وشويت وطهيت الأطعمة الشهية في كل أطراف المدينة، حتى إن الرائحة المنبعثة من الأحياء توحى بأيام العيد الكبير (الأضحى) وفي كل مساء عقب كل صلاة عصر تقام حفلات الخيالة التبوريدة في ساحة باب المنصور العليج.

د - أحداث بني مطير

لكن الأنباء السيئة لم تفتأ أن وصلت إلى القصر : فإن طوائف قوية من بني مطير الذين أجاعهم فصل الشتاء قد هبطوا من الجبال اتجاء مكناس حيث اجتاحتوها تماما. وقد فوجئوا جدا برؤيتهم المحلة الشريفة معسكرة ببوزكري بعد أن نهبوا قطعان الأغنام من المراعي. وقتلوا الحراس ليلا بعد أن شوهاوا جثثهم وغروا عنهم ثيابهم. وإثر هذه الأحداث ذهب سيدي عبد الله لإخبار السلطان :

___ ما الذي تحكي لي أنت؟ قال السلطان. هذا غير معقول؟! أليس هناك في المحلة وحدة عسكرية من بني مطير مع قائدهم ولد الشبلي.

___ نعم سيدنا ! قال الآخر الصواب ما قلت سيدي ولد الشبلي معنا، لكن إنهم أيضا بنو مطير من يقتل رجالنا، فقد تمكننا من معرفة بعضهم حالت رصاصاتنا دون هروبهم.

___ إذن ابعث لي، ويكل سرعة، ولد الشبلي !

ثم جاء هذا القائد بسرعة، وبعد أداء فروض الطاعة والتحية سأله السلطان :

___ ولد الشبلي !ماذا تعني هذه الضوضاء، والاضطرابات التي يحدثها الآن أتباعك. لقد طمأنتني، وضمنت لي أبناء قبيلتك بأن يعترفوا بي سلطانا عليهم، ويطيعونني. وهاهو الآن يصلني أن بني مطير قد نهبوا قطعاني وقتلوا حراس محلتي.

نعم سيدي، والله لقد قلت الحقيقة، إن قبيلتي فعلا سيدي طائعة، ولكن إذا كان من تحدثني عنهم سيدي من بني مطير، ولست متيقنا من ذلك، فليسوا، وبدون شك سوى مجموعة من اللصوص، وبعض من « سخن عليهم الرأس » كما هو الشأن، في كل قبيلة، ولا أستطيع أن أدافع عن هؤلاء الأغبياء، لكنني رهن إشارتكم فإذا رغبت سيدي فياني مستعد منذ الآن أن آخذ وحدتي العسكرية مع بعض جنود التقوية الذين تدونني بها من أجل تنظيم حركة ضد هؤلاء.

___ إذن فلتذهب حالا، يقول السلطان، وأرى أن جنودك وحدهم يكفونك لإحلال النظام والتعقل في تلك العقول المتهورة، وبهذا ستحكم سيطرتك عليهم. فانطلق ولد الشبلي راجعا إلى بوزكري ليذهب مع جنوده بعد أن قام ببعض الاستطلاعات، وتمكن فعلا من إنجاز المهمة، وبعث ببعض الرؤوس إلى مكناس لكن فقد بالمقابل بعض التجريدات التي ضاعت بشكل تمرد وسط الاشتباكات. وفي خضم هذه السلسلة من الانتصارات والهزائم تصاعد تدور القبيلة ككل حيث عمت الفوضى كل أفراد القبيلة وجهر بذلك حتى في الأسواق، مما جر القبائل الأخرى المجاورة للفتن مثل بني مكيلد والمجااط وأيت يوسي فقرر

السلطان تنظيم صوكة⁽⁵⁾ قوية ضد هؤلاء وهكذا بدأت لغة البنادق والبارود في النطق بين بني مطير والمخزن فاستمرت طيلة فصل الشتاء بشكل تناوبي بين الطرفين، وعندما تعب السلطان من رؤية تزايد هجوم أعدائه الذين وصلوا إلى حدود أسوار مقر إقامته، قرر الخروج شخصيا مع الحملة كلها وجميع الأفواج المخزنية المعسكرة في سيدي بوزكري خاصة أن الوضعية أصبحت أكثر صعوبة. كما نادى من مكناش على وحدات جديدة من قبائل بني مسكين وزمران والرحامنة واحمر وعبدة و دكالة مما مكّنه من جمع حوالي 5000 رجل لتقوية صفوفه.

وكانت المعركة على جبهة مكناش -قصة الحاجب - على امتداد مساحة أكثر من خمس كيلومترات شيئا ما شمال زاوية سيدي أحمد التجاني. حيث التقى الطرفان على خطين متقابلين، وهكذا تقدم بنو مطير في شكل منتظم مثل عمود خشبي عريض يتوسط الساحة منشدين أغانيهم الحربية، وضدا عليهم فقد أحكم السلطان تنظيم وحدات القبائل في خط طويل أيضا. وكان قد أخذ بنفسه مكانا في نفس الخط مع حرسه فوق هضبة مما مكّنه من متابعة أطوار المعركة بواسطة نظارتيه بشكل أسهل مع إعطاء التعليمات الضرورية، وكان قد وضع هذا الخط قواته النظامية الاحتياطية.

وقد استمرت المعركة التي بدأت صباحا اليوم كله، لكن دون نتائج مشجعة وعند المساء شن الحاج منو، بعد موافقة السلطان، حملة قوية أعطت الانتصار للوحدات المخزنية، وهكذا تمكن من جمع جنوده وتوجه بحيوية أكثر مع فرسانه إلى الجهة اليسرى من بني مطير. وعندما هددتهم بالإحاطة بهم طالب الرجال الموجودين في المواجهة إعانة جنود الوسط للوقوف ضد هؤلاء الأعداء الجدد وعندما كان الحاج منو في وضعية صعبة أمر رجاله بالانسحاب أرضا، والفرسان بالذهاب على يمين ويسار هذا الخط، وفي الوقت التي ضعفت فيه الحرب على الجبهة الرئيسية، بدأ القصف يتقوى اتجاه جنود الحاج منو، لكن هؤلاء الأخيرين كانوا قد تلقوا تداريب على مثل هذه الظروف، وبعد أن ناوشوا بعض الشيء وقرعوا الطبول متراجعين. ليزيلوا بعد ذلك الغطاء على الخط الجديد من الرماة الذين لم يكن ينتظرهم العدو حيث كانوا مختبئين في فنادق صغيرة محفورة بسرعة، بالخناجر، هذا في وقت كان الحاج منو يركز جداره المتحرك، وكان الجنود في الخنادق الصغيرة يقاومون عدوا متزايدا شيئا فشيئا واثقا من النصر. لكن وبإشارة، اجتمع فرسان اليمين واليسار على بني مطير في شكل جيب ولم يستطع الفرار منهم إلا القليل، وهكذا جمع الحاج منو 40 سجينا، وحمل إلى السلطان عشرين رأسا وسط زغاريد وتهليل الانتصار، وعندما رأى باقي جنوده بني مطير في الجهة اليمنى هذا المنظر فروا خلف متابعة الفرسان الاحتياطيين. وهكذا رجعت الحملة ليلا إلى سيدي بوزكري حيث ستعسكر.

وبعد مرور يومين انطلقنا لمطاردة بني مطير الذين قبض عليهم قرب الحاجب، وخلال أربع ساعات وصلت الأفواج السلطانية للقاء العدو الذي كان في وضعية جيدة محميا في الخلف بمرتفعات جبلية.

وفي بداية الحرب قتل الشريف مولاي المدني الامراني المتهم، ظنا، بكونه المسؤول الرئيس عن ثورة بني مطير فتوقف إطلاق النار وتوقفت المواجهة، وأيقن المتمردون أنهم على وشك الخضوع والانصياع للأمر الواقع، وهكذا جاء أعيانهم ورجالاتهم سائقين ثيران « التركيبية »⁽⁶⁾. ونسأوهم تستغيث، وأطفالهم يحملون ألواحهم القرآنية على صدورهم مرتدين ثيابهم البيض فأعطاهم مولاي الحسن الأمان، وأمر بأن يؤتى إليه في الغد أعيان بني مطير بدار المخزن بمكناس.

وبالفعل حضر وجهاء بني مطير وضمنهم القائد ولد الشبلي الذي كانت تحركاته أثناء، هذه الحملة مشبوهة بشكل لافت، وفي حضرة السلطان نودي على ولد الشبلي وتقدم مجموعة من العساكر لإخراجه ووضع القيود في رجليه والذهاب به إلى مراكش ثم أعلن السلطان على لسان قائد مشوره، خلع وإقالة جميع قواد بني مطير السابقين وطلب منهم تعيين قوادهم بأنفسهم فأجابوا :

__ القبيلة أمامكم سيدي، عينا أنتم قوادها الجدد وسيكون اختياركم محط رضانا وطاعتنا. ودون أدنى تردد عين مولاي الحسن القائد رحو ولد ماما لمطيري قائدا عاما على كل بني مطير، فانصرف أعيان بني مطير مرتبكين قلقين لأنهم قد علموا أنه ولي عليهم رجل قوي وحيوي، لين وقاس في الوقت نفسه وكانوا أمامه كفران أمام قطة.

__ أحداث فاس

وبعد تصفية هذه القضية، قرر السلطان الذهاب إلى فاس مدينة « العلماء »، لكن منذ انطلاقه من الرباط كان قد علم عبر مخبريه طبيعة موقف أهل فاس من المخزن، وعلم أيضا أنهم قد ثاروا ضد الأمين الكبير⁽⁷⁾ للمدينة : المدني بنيس المكلف باسم السلطان باستخلاص مستحقات أبواب وأسواق المدينة فقد عنفوه وأهانوه في الشارع وكاد يقتل في إحدى الأمسيات لولا احتماؤه بأحد الحمامات، واختبأ في أحد غرفه المظلمة الملائى بالسطول الخشبية حيث أمضى فيها ليلته هذا في الوقت الذي كان فيه منزله تحت حراسة المتمردين المنتظرين وصوله لتعنيفه حتى ييوج بمكان خزنه الذهب والمال ثم بعد ذلك يتخلصون منه. وعندما أخبره أحدهم بذلك استجار بضريح مولاي إدريس.

وإثر هذه الأحداث كتب السلطان من مكناس، إلى أعيان فاس ما يلي :

« لقد علمت ببالغ الأسى والأسف أن الفاسيين قد ثاروا ضد خديمنا الأرضي سي المديني بنيس⁽⁸⁾ .

أدعوكم إلى العودة إلى رشدكم والطاعة، وأن تدعوا هذا الموظف في أمان، خاصة أنه لم يقم إلا بواجبه وتنفيذ الأوامر.

واعلموا أنني لا أعطي كبيرا اهتماما للتصرفات الراهنة للفاسيين في هذه القضية بالإضافة إلى عدم اكتراثنا بالنقود التي سرقت من المديني بنيس، إنها أموال المخزن وهو من سيسترجعها.

لكن تبيينوا جيدا ما هي دواعي كتابتنا لكم : إننا نود أن تكونوا كلكم في سلام وسرور، فعبروا عما تريدون وترغبون. والسلام عليكم.

ثم قرئت هذه الخطبة على منبر القرويين، فبدأ الناس يهنؤون بعضهم البعض برضى السلطان عنهم. هامسا بعضهم بتقدير السلطان لهم، وأنه لو عاملهم السلطان معاملة سيئة ولو بالكلام فقط، لخرجوا لمواجهة في مكناس.

وفي الوقت نفسه كان السلطان قد أرسل رسالة للمديني بنيس يقول له فيها بأن لا يخشى شيئا، وأن هذه المشاكل ستزول في اليوم الموالي، داعيا الله أن يعوضه خيرا عن خسائره، خاصة أن المخزن قوي وغني.

وعلى صدى هذه الأحداث غادر السلطان مكناس مع محلته وكل أسرته (فبراير، مارس 1874) ليصل إلى فاس عبر ثلاث مراحل : عين طوطو، بن خاسة (واد النجا) والضويات حيث توجد بركتين مالحتين.

وخلال يومين دخل السلطان رسميا فاس في استقبال حماسي رائع. وجاء العلماء بكثرة لاستقباله مرافقين خليفة السلطان وأخاه مولاي إسماعيل⁽⁹⁾ في حشد كبير. وفي الوقت الذي دخل فيه السلطان وحاشيته والمخزن والشخصيات الرئيسية من باب السكمة عرج على ضريح مولاي إدريس⁽¹⁰⁾، كانت المحلة قد عسكرت على الهضبة القريبة من قصبة الشاردة، على مرتفع المصلى حيث تمركزت وحدة بني مسكين بقيادة القائد الشافعي المسكيني، تحت الزياتين شمال باب محروق، في حين التحقت الوحدات النظامية بمختلف قصبات المخزن (الشاردة، الثور. الخ) في حين كان «بستيون» الباب المحروق (البرج الشمالي)، وحسب الأعراف القديمة، تحت حراسة الوحدات الفاسية لمراقبة تحركات جنود السلطان إذا أرادوا إحداث اضطرابات في المدينة.

وقد أقيمت هذه النسك وقدمت الهدايا بضريح مولاي إدريس، حسب العادة، وهكذا دخل السلطان الممتطي جواده دائما قصر فاس الجديد دون مشكل يذكر. وبعد مرور

أسبوعين تقرر استدعاء أعيان المدينة، حيث استقبلوا استقبالا رائعا ثم غادروا بعد ذلك، وفي ساحة القصر تبعهم الوزير الأول سي الطيبي بن اليميني ليقول لهم :

« اسمعوني سكان فاس جيدا. فمن واجبي أن أشرح إليكم الأمور كما هي، فلقد اقترفتُم ضد المخزن وضد سيدنا أخطاء كبيرة، فقد هاجمتُم ونهيتُم سي المدني بنيس والواقع أن الرجل ليس سوى موظف لنا مكلف باستخلاص حقوق المخزن. وكأنكم بفعلكم هذا قد هاجمتُم ونهيتُم المخزن نفسه، ثم إنني أرى من بينكم خدام المخزن الذين يدينون له بالشيء الكثير، وأرى من بينكم كذلك شرفاء زاوية مولاي إدريس ورغم ذلك ترمدوا وقد أمرني سيدنا مولاي الحسن بإخباركم الآن بأنكم لن تفلتوا من العقوبات التي تستحقونها».

ففوجئ الأعيان بهذا الكلام القاسي، بعد أن سمعوا كلمات الترحاب قبل قليل وقالوا بعد أن اضطربت ألسنتهم :

— سنرى معالي الوزير ما يجب علينا فعله.

ثم نزلوا نحو فاس البالي غير راضين عن الكلام الذي سمعوه. ومرت ثلاثة أيام وهم يناقشون الوضعية دون أن يصلوا إلى حل معقول وفي حدود مساء الاثنين حيث اجتمع حيث اجتمع الأعيان في المسجد وقرروا انتخاب قائد « السبية » الذي كان يدعى الحاج أحمد الرايس. وفي اليوم الموالي صباحا، وبينما كانت أبواب المدينة مغلقة، جاءت وحدات مسلحة لتعزيز باقي الوحدات التي تحرس مختلف الحصون داخل وخارج المدينة.

وعندما علم مولاي الحسن بالأمر، بعث شخصيات مختلفة ومحترمة إلى الأعيان لمعرفة مضمون شكواهم التي كان من ضمنها تنحية الفقيه سي عبد السلام البقالي الذي كان ينزل إلى المسجد حاملا « التهليل »⁽¹⁾ في الجانب، و السبحة في اليد.

— قال الأعيان، إننا نريد الطاعة فعلا، لكن شريطة ما يلي، أن يوضع رهن إشارتنا ويسجن بعض الوقت كل من سي موسى بن أحمد وأنت أيضا سي عبد السلام البقالي وكذلك قائد المشور الجليلي بن حمو، لأنهم الشخصيات المقربة من السلطان والتي توليه ضدنا، كما نطلب علاوة على ذلك، أن تردوا إلينا سي المدني بنيس المنعم برضى المخزن حاليا، لنحاسبه ونقاضيه بأنفسنا ونعاقبه بما يستحقه.

هذه هي شروطنا من أجل الاتفاق. وإذا رفضها السلطان فله كامل الحرية أن يرد بالطريقة التي تعجبه.

وقد دار كل هذا النقاش والأبواب مغلقة والحصون محروسة. وفي اليوم الموالي بعث السلطان، الذي كان قلقا جدا من مجريات هذه الأحداث ببعض المخزنين للاستطلاع.

لكن لم يكذب يصل هؤلاء الرجال إلى باب بوجلود حتى قوبلوا بإطلاق الرصاص، فردوا بالمقابل لتبدأ المعركة إذن، حيث شرع حصن باب محروق يقصف بمدافعه الحلة العسكرية حول قصبة الشراردة. وعلى الفور أعطى مولاي الحسن أمرا لأفواجه بالهجوم على المدينة. ثم تقدم بقطعه إلى مرتفع البطحاء لتهديد صومعتهم، وكان الفاسيون المحتلون لمسجد بوجلود يطلقون، على مهل، مدفعايتهم التي تقترب لتقوية قطعهم. ووسط هذه الأحداث اقترح موحى، قائد رعى « الطبجية » أنه يمكن اقتحام باب بوجلود الصغير المفضي إلى الجنائنات بواسطة المشاة. وهكذا نزل الحاج منو، بالفعل مع جنوده وفرسانه من قصبة الشراردة نحو باب بوجلود، حيث انتشروا في الحداثق على طول الواد، لكن طلقات الرصاص المنطلقة من صومعة المسجد كانت تعرقل تقدم تحركات جنود الحاج منو الذي طلب من موحى إسكات هؤلاء والقضاء عليهم فقصف موحى المسجد حتى انشطرت الصومعة شطرين، كما قتل عددا من الفاسيين، فاستغل الحاج منو فوراً هذه الاضطرابات ليقترحم السور المحيط بالمدينة ويدخل مع جنوده حي الدوح.

وهكذا فر الفاسيون خوفاً من هجوم هؤلاء الجنود المتحمسين تاركين وراءهم سلاحهم، وتم إخلاء المسجد من محتليه إلا أن بعض جنود السلطان انطلقوا في نهب الأرقعة والشوارع المفضية للمدينة، فافتحموا الفنادق⁽¹²⁾، وكسروا أبواب المحلات التجارية بعد أن جمعوا الغنائم. فأطلقت المدفعية أربعين طلقة والستين نافور. لحلة مولاي الحسن الذي كان يتابع تقدم العمليات بنظائريته من على مقصورة « قبة النصر » ويعطي أوامره لجنوده من داخل البنيقات⁽¹³⁾ بالتمهل في الانطلاق وقتل ونهب وأقل ما يمكن.

وبعد ذلك رجع بعض الجنود من المواجهة، صاحبين معهم الأسرى والأثواب والسلع المختلفة بالإضافة إلى النقود في الجيوب. وهكذا أخضع الحاج منوحي بوجلود إخضاعاً تاماً، ولم تبق أمامه سوى جبهة قوية، إنها قصبة فيلالية، حيث كان أهل تافيلالت مساعدين للفاسيين وقد احتار الحاج منو أي جهة سيأخذ خاصة أنه علم فجأة أن فيلالة قد انظموا إلى المخزن، ويقصفون الآن فاسي « الطالعة »⁽¹⁴⁾ وهالك ما حدث :

فأمام تقدم الأفواج الشريفة التي تحيط بهم من كل الجهات ومخافة العواقب المستقبلية تملك الخوف فيلالة فاجتمعوا فيما بينهم وطرح عليهم أحدهم السؤال التالي :

___ لقد تشاجر أبي مع أمي، وقررا الافتراق، فأيهما سأتابع يا فيلالة؟

___ فأجيب : عليك باتباع من له الحق.

___ إذن : فأبي هو السلطان، وأمي هي فاس، فالذي معه الحق تأكيداً هو أبي لأنه

المخزن، فعلي إذن أتباعه.

وبطريقة لا شعورية شرع فيلالة في إطلاق النار على أهل فاس وأخبر الحاج منو بأنهم معه.

وهكذا تراجع السكان نحو الأحياء السفلية، بعد أن تسلق بنو مسكين وضربوا سور الطالعة حيث تابعوا العمليات وقتلوا بعض التجار الذين كانوا يحاولون حماية متاجرهم، وقع كل هذا ورماء برج النور لا يعلمون ما حدث، فاكتفوا فقط بمناوشة أهل الطالعة، جاهلين ارتداد فيلالة، وهكذا أفرغت المنازل والأحياء، ثم اتجه هذا الجمع الرهيب لأحداث الفوضى والاضطرابات في اتجاه باب فتوح باحثين عمن يدافع عنهم، وكان من ضمن هذه الجماعة الفوضوية قائد السبيا الحاج أحمد الرايس الذي كان شخصية بارزة وسط هذه الحشود، المكونة من 25000 شخص متجهين، يتسارعون نحو الأبواب الجنوبية حاملين أمتعتهم النفيسة، ثم اجتمع أعيان المدينة في مسجد القرويين خوفاً، لأنهم يعلمون بأن أفواج الخزن قد استولت على كل الأحياء الفوقية، وعند فرارهم قال قائد السبيا لرجاله :
— ألسنا على طريق ضريح مولاي إدريس؟ فعلينا الاستعانة والتبرك به، ثم اتجه نحو الضريح أعزل، بندقية على كتفه فجلس على ركبتيه فقال :

— الله ينصر السلطان ! هذا ما أريده وأتمناه، فلا داعي أن تعولوا على في شيء.
وطيلة هذا الوقت ظل دائما صوت الرصاص والمدافع مسموعا، مما جعل السلطان يأمر المشاة والرماة بإطلاق الرصاص في الهواء لإخافة سكان فاس لضمان مسيرة أحسن لجنوده، فقد كان يرغب أن يقتل أقل عدد ممكن من الناس خاصة أنه كان هناك ثلاث قطع الأولى قرب ضريح سيدي بوبكر العربي والثانية قرب دار البطحاء، والثالثة باب برجات، التي أحدثت فرعا جهنميا.

وهكذا أحكم القبض على الفاسيين كفتران في مصيدة.

وفي ظل هذه الوضعية، أرسل السلطان مبعوثا إلى الأعيان يخبرهم أن السلطان مستعد لإيقاف إطلاق النار إذا ما استطاعوا الحثيء إليه ومبايعته، فبعث السكان النساء للاستعطاف، والأطفال الصغار بألواحهم القرآنية، وقائد السبيا سي أحمد الرايس ملتقا في غطاء ضريح مولاي إدريس محروسا ومحميا بملازميه.

فاستقبلهم السلطان بعد أن أوقف الحرب ثم قال لهم :

— لا تخافوا أي شيء، لن نعاقبكم لأنكم لستم أتنم المذنبين، فقد سامحتكم فاذهبوا آمنين.

وبالفعل بدأت طلقات النار تهدأ، وتساقطت الأبواب في أيدي الجنود دون أدنى مقاومة تذكر، بعد أن ركز الحاج منو في كل واحد منها مجموعة قوية من الحراس. ولم يحل الليل حتى أصبحت المدينة كلها في يد السلطان.

وفي اليوم الموالي استدعي جميع الأعيان إلى دار المخزن، وكان من بينهم باشا فاس سي إدريس السراج، وللمرة الثانية، أحمد الرايس قائد السببا السابق وكان أول المستقبلين الباشا وحده. الذي قال له مولاي الحسن.

— إن هذه المدينة متميزة، في الواقع بفوضاها، وعناد أهلها أظن يا إدريس أن لها مثيلات كثر؟ لا أظن ! فمن أين جاء هذا الشر إذن؟ !

— إن سكان فاس، سيدنا، علماء جدا، ولهذا لا يستحسنون ولا يرضون تلك الامتيازات التي تعطي للآخرين.

— لا يا إدريس ! إن مرد ذلك فقط، لأنهم يشعرون أنهم تحت قبضة أيدي ضعيفة فأنت لا تعرف الحكم والقيادة، فإنك أنت سبب هذا العصيان، فسأسجنك أنت أيضا.

ثم قيده بعد ذلك المخازنية وتم إخراجه من قاعة الاستقبال على مرأى من الفاسيين، الذين دهشوا عندما أذن لهم بالدخول، وبعد أن وقفوا مذهولين أمام السلطان خرجوا للاجتماع مع قائد المشور الذي قرأ عليهم هذا الخطاب.

— « إعلموا سكان فاس، إن المسؤول عن فوضى وعصيان فاس هو باشاكم القديم سي إدريس السراج، ولهذا سجن، واعلموا أن باشكم الجديد الذي ما لبث يريده سيدنا هو : الجيلالي بن حمو. ثم إن قائد السببا سيصبح قائد السلاح بتوليته منصب خليفة الباشا، فأنتم من تتمرّد، دون سبب، ضد أمينكم بنيس وبالتالي ضد المخزن ولهذا قرر السلطان لمعاقبتكم ما يلي : من كان منكم يؤدي قرشا للضريبة سيؤدي قرشين، كما عليكم دفع تعويض عن خسائر الحرب ب 100000 دورو، كما عليكم أيضا تجهيز وحدة عسكرية دائمة من 500 جندي. ويأمر سيدنا أن يكونوا من أبناء مدينتكم لا من الخارجيين عنها أو المعوضين أو المشترون. كما سيكون الفيلق الفاسي تحت قيادة ابن أحمد الرايس. واعلموا أيضا أن السلطان قد أخذ من كل مدينتكم وحدات حربية، فلا داعي لعصيانكم من جديد، أنا الجيلالي بن حمو، خلال أيام سأكون من الآن باشاكم وسأعمل على تنفيذ هذه التعليمات في أحسن الأحوال، ذلك لأنني لا أعرف إلا الإستقامة والحزم في تسيير الأمور، والويل لمن أراه يندس في الطرقات والمعاير. هذا كل ما في الأمر، والسلام عليكم».

وهكذا رجع الفاسيون إلى بيوتهم صامتين مطأطئين.

وخلال هذه الفترة بالضبط أصبح الحاج محمد بن يعيش قائدا للمشور بعد أن عين الجيلالي بن حمو في باشوية فاس.

وقد أقام السلطان بالمدينة أربعة أشهر تقريبا خضعت فيها المدينة خضوعا تاما وبعد ذلك انصرف للاعتناء بجنوده، وملأ الفراغات، ومراقبة تقدم المدفعية، كما عمل على

تنشيط التحاق وحدات المدن التي حدثت عنها قبل قليل. ومراقبة الفيلق الفاسي الجديد، ومتابعة، وبانتباه شديد، كل الأحداث الجديدة الآتية من نطق المغرب المختلفة.

و- أحداث بوعزة الهبري

ثم ما لبث أن وصلت أخبار متمرّد يسمى بوعزة الهبري، يدعي أنه ساحر وكثير الحديث عنه في نواحي تازة حيث هاجم فرسانا يدعون أنهم أتباع بوعزة قبيلة أولاد الحاج سيو، وكان السلطان لا ينتظر إلا الفرصة المواتية للخروج لهذا المتمرّد، وهكذا حمل الفراك إلى معسكر قنطرة واد سيو تاركا وراءه أفواجا كافية لحراسة المدينة وبعد ذلك انطلقت الحملة للبحث عن بوعزة هذا (سبتمبر 1874)

لقد كان الحاج منو يتوفر على مخبرين في كل مكان تقريبا في طنجة كما في سوس، وقد علم من أحدهم أن هذا المتمرّد قد اختبأ عند بعض الأتباع من بني سادن الذين أعطوه الأمان والحماية، وهكذا اجتحنا المنطقة تحت مناوشات بسيطة لم تكن لها أهمية تذكر، فسلبنا ونهينا لكن دون أن نجد هذا المبحوث عنه، ثم إن بني سادن كانوا سيسلمونه لنا إن كان عندهم فعلا.

وقيل لنا بأنه موجود عند أيت سفروشن فانطلقنا إليهم، لكن هؤلاء الرجال كانوا لا يدعوننا نجتاح أراضيهم ومزارعهم دون مقاومة. ثم تتبعنا مكان وجود صاحبنا عبر بني وارين إلى حدود غيابة وهناك فقدناه. وفي الوقت الذي كان السلطان بعسكر أمام تازة ويستقبل هدايا قبائل المنطقة، أخذنا نساءل هل ذهب هذا المتمرّع بوعزة إلى الريف أو الصحراء أو جبال بني وارين. وقد كان هذا الاختفاء المفاجئ لهذا المتمرّد فرصة لإكثار الحديث بين الجنود حول كونه ساحرا. وفجأة علمنا أنه موجود عند هواره واد مسون قرب تازة، حيث تخلى عنه هؤلاء بكل تلقائية، وكان من حمل الخبر إلى المعسكر أحد مخبري الحاج منو.

وكان قد دخل هذا الساحر المشعوذ إلى السوق ليقول للناس :

أنا هو بوعزة الهبري، لست خائفا من سلطانكم الجديد مولاي الحسن المعسكر الآن مع بعض الجنود قرب تازة. فمن حيث الجنود فإني أتوفر على عدد أكثر منه، أخرجهم وقتما شئت خاصة أنني أخرجهم من الأرض لقيادتهم، أترون جلد الخروف هذا المطروح على الأرض فإن تحته أسلحتي، وسترون ذلك.

ثم رفع ذلك الجلد بهدوء :

إذن انظروا أيها الجاحدون، هؤلاء هم مشاتي، هؤلاء هم جنودي، وهنا كل مدافعي، فما علي سوى إعطاء إشارة إلى هذه الحلقة لإخراج كل هذه الفرق وقصف الأفواج الشريفة،

لكن لا أريد بالسلطان شراً، فليقم بواجبه، وليتركني أقوم بمهامي، وأحتفظ بجنودي لحروب أكثر قداسة، وأقول لكم يا هواره، الذين يسمعونني، أنا مؤيد للقيام بالجهاد.

ولم ير من كان يحيط بالرجال سوى حجارة حول جلد الخروف، فنظر بعضهم إلى بعض مستغربين من هذا الرجل الواهم، ثم قال له أحد الرعاة الأكثر ذكاء من الآخرين :

__ ألا ترون يا هواره، أيها الرجال البسطاء الصرخاء أن هذا الرجل يخدعكم بقوله إنه ولي، وفي الواقع إنه ليس كذلك، ذلك أنه لو كان كذلك لكان وجوده في قبيلة ما يكفيها من كل خطر وشر، والحال أنه كان بين ظهرائي بني سادن وأيت سغروشن وبني وارين، وعند آخرين، وتعلمون ماذا جنوا من ذلك، فقد نهبت كل هذه القبائل، وأتلفت محاصيلها، وبيعت نساؤها وأصبح أطفالها عبيدا للقبائل المجاورة، وهامهم الآن يبحثون عن الخبز وعليهم العمل أكثر لتسديد ديونهم وضرائبهم، فهذا ما ينتظركم من هذا الرجل فإذا أردتم ألا تواجهوا نفس المصير، فخذوه، ثم اذهبوا به إلى السلطان وعندها سنعرف هل هو ولي حقيقة أم لا؟

وفعلا هذا ما حدث.

وقد كان قد ذهب القائد الشافعي المسكني والحاج منو مع جنودهم من المعسكر إلى هواره، لكنهم صادفوا في طريقهم موكب هواره رفقة أسيرهم فرجعنا إلى المحلة، وكان السلطان في «سيوانه»⁽¹⁵⁾ مع وزيره الأول وقائد المشور عندما أدخل عليه بوعزة الهيري.

فخر هذا الأخير ساجدا واضعا جبهته أرضا مستمعا للسلطان وهو يقول :

__ أنت هو بوعزة الذي كلموني عنه، فماذا تقوم به ضدي فأجاب الرجل وهو في نفس الوضعية دائما :

__ الله وحده يعلم ! هذا ما قدر الله أو الآن أنا في حمايتك، فلا تقتلني.

__ لا تخف، أجاب السلطان، فقد أقسمت أن لا أقتل أحدا أبدا.

وبعد تقييده والطواف به فوق جمل على المعسكر، اقتيد أسيرا إلى فاس، وكانت هذه نهايته.

ز- (وباء 1874-1875)

وبعد استراحة في طريق وجدة، حيث عين مولاي الحسن قوادا مختلفين الحاج البشير بن مسعود على بني يزناسن، وحموا لبوزكاوي على بني بوزكو و السهالي على مهاية، اتجهنا نحو قصبة سلوان لقضاء شهر رمضان، وبعد ذلك اتجهنا نحو فاس، لكن كان برد

هذا الشتاء (1874-1875) قاسيا جدا، حيث كانت الأمطار والرياح والأحوال تعرقل مسيرة الحملة، مما تسبب في وفاة الكثير. وكان قد انتشر المرض في صفوف الجنود على طول الطريق، فانتاب السلطان مولاي الحسن قلق كبير حيث كان يحمل ويتفقد المرضى، ويأمر جنوده بإمداد المرضى المتعبين خيولهم لكن الرياح كانت قوية حتى إنه لم نعد نعرف أي أحد في الأرياف ويبدو أن الناس كلهم ماتوا. وبعد هذه الأضرار كلها دخلت الحملة أخيرا فاس بعد أن فقدت الكثير من الرجال.

وقد كان علينا أن نتمكث هناك حتى شهر أكتوبر 1875 ، وقد كان في فصل الربيع بعض الحملات الاستطلاعية لكنني لا أحتفظ بأي ذكرى شخصية عنها لأنني لم أكن هناك. وكانت قد أرسلت تجريدة من الحملة بقيادة مولاي علي، أخ السلطان، إلى ضواحي بني يزناسن حيث كان يحاولون مع قائدهم الجديد البشير بن مسعود الانفصال وعدم الاعتراف بالمخزن الذي تربي في أحضانه. وقد دعمت هذه التجريدة بجنود تازة بقيادة بوزيد الزراري الذي انهزم وتراجع دون نتيجة تذكر. أما السلطان فقد كان يتابع تقدم جنوده مؤخرا البث في هذه المشكلة الى وقت لاحق.

ح - تحركات الحملة بمنطقة تانسيفت والمدن الساحلية.

كما شكل القائد أحمد بن مالك بمراكش، فرقتان صغيرتان ضد قسبة تنمل - حيث كان يعيش سي عبد الله بن محمد الكندا في الذي لم يكن سوى شخصية عادية - وصغيرة - هزمتا أيضا من لدن أهالي الجبال. وقد أجل السلطان النظر في هذا المشكل إلى وقت إقامته المقبل بالجنوب.

غادرت الحملة فاس إذن مروراً بالرباط وصولاً إلى مراكش دون مشاكل تذكر ودون عمليات حربية، كبيرة باستثناء إخضاع بعض الفرق الفوضوية من الرحامنة وأولاد ابن أبي السباع. وعند استقبال السلطان للكندافي اقتنع بأن تلك الاضطرابات ليست سوى منافسة وصراع بين هذا الأخير والقائد أحمد بن مالك أكثر منها تمرداً على المخزن. وأمام إعجابه وتقديره لهدايا أهل الجبال قرر أن يكون الكندافي حاكماً للسلطان على كل كندافة.

وأثناء إقامته في مراكش، تابع السلطان بجدية وحيوية أكثر إصلاحاته العسكرية حيث عزز مدفعيته ب 22 مدفع جبلي من مختلف الأحجام و 14 رشاشة، وملاء الفراغ في صفوف جنوده، كما طالب بوحدات جديدة للتقوية حتى وصل جنوده في الأوقات العادية إلى 20000 جندي.

وللرجوع إلى فاس (ربيع 1876) عمل السلطان على استدعاء وحدات جديدة من عبدة ودكالة والرحامنة والحوز. وبعد جمع أطراف هذه الحملة القوية، قرر المرور عبر المدن

الساحلية، وهكذا زار الجديدة التي تسمونها أنتم مازكان، وتفقد القصبية التي تحرس مداخل البحر، كما أطلقت المدافع بالميناء ثم بعد ذلك أزمور الموجودة على مصب وادي أم الربيع. ثم الدار البيضاء حيث أعطى السلطان أوامر بتأسيس سبرية مدفعية، ومخبثا للموانئ ثم بعد ذلك الرباط حيث أخذنا قسما من الراحة وكان السلطان قد نزل مدة قصيرة بأكدال، وأخيرا وصلنا فاس عبر سلا و مكناس. وخلال مروره بالمدن الساحلية أكد المخزن أنه قوي فعلا، كما يتضح ذلك من خلال اتخاذ السلطان جميع الاحتياطات لتقوية وسائل الدفاع على الموانئ.

ط - أحداث بني يزناسن 1876

وفي هذه الأثناء اندلعت أحداث فوضى من جديد بضواحي وجدة، وهكذا غادرت فرقة حربية فاس بقيادة مولاي عرفة، أخ السلطان، لمساندة باشا وجدة عبد الرحمان بن الشليح الذي وصلت صراعاته مع قائد بني يزناسن البشير بن مسعود إلى جر القبيلة إلى التمرد والعصيان، إلا أن رجال البشير قد هزموا فرقة الشريف مولاي عرفة، حيث نهبوا معسكرا وجرحوا مولاي عرفة في خده. فوصلت أصداء هذا الحادث المفزع إلى فاس، فقلق السلطان جدا من الانهزامات المتتالية ضد البشير هذا، ورفض أن يرى جنوده المهزومين الراجعين المحتمين بضريح مولاي إدريس.

فتم استدعاء باشا وجدة المسؤول الأول عن هذه الهزيمة الذي حضر إلى الحضرة السلطانية مطأطئا، وقال لسيدنا الذي وبخه عن أخطائه القيادية المتنوعة :

___ كل ما قلتموه، سيدي، صحيح، وأريد لو حلقتم لحيتي (عقابا لي)

___ لماذا ؟ أجاب السلطان.

___ لأنه لولاي لما كانت هذه المصيبة. كما أطلب منكم سيدي العفو ومراجعة السجلات لمعرفة مصاريف ونفقات هذه الحملة التعسة.

وبعد مراجعة السجلات وتقويم كل النفقات منذ الانطلاق من فاس.

قبل لعبد الرحمان (بن الشليح)

___ لقد أنفق أكثر من 50000 دورو مثلا.

وللمحافظة على مكانته، أعطى الباشا ضعف المبلغ. فأنعم عليه بالأمان بالمقابل، وهكذا استطاع القواد والمذنبون مغادرة ضريح مولاي إدريس حيث ظلوا مختبئين خوفا من قطع رؤوسهم، إلا أنهم وضحوا موقفهم بما يلي :

— ليس علينا أي ذنب، سيدنا، فقد سحقنا أمام كثرة أعداد العدو، فلم نكن سوى 8000 ضد 60000 من بني يزناسن؟! فكيف كنا ستعامل مع الوضعية. فلم يبق إذن سوى الفرار والإفلات بأرواحنا. وها نحن الآن أمامكم.

فغفى عنهم السلطان لأنه كان يعرف أنهم محاربون أقوياء. ولكن لم يكن من طباع مولاي الحسن أن يبقى هادئا من وقع هزيمته، فقد كان دائما متأهبا وهكذا قرر الخروج الى بني يزناسن رغم فصل الشتاء ومشاكل التموين.

— لا أريد أن أبقى هكذا، في انتظار الصيف، فلتبنوا الفراگ بسرعة في معسكر واد سبو، يقول السلطان.

وكتب إلى كل القبائل بأن تتجمع حول المعسكر الشريف، فانطلقت ليصل إلى الحياينة ثم غيائه الذين لازلوا دائما يشكلون رؤوس الفتنة، حيث استمر إطلاق النار على طول الطريق، وبالوصول الى تازة ازداد إطلاق النيران خاصة من أهالي الجبال المختبئين خلف صخور قوية، مما جعل صبر السلطان ينفذ حتى أنه أراد، وبصفة شخصية، الركوب في «صوكة» الى غيائه، وهكذا انطلق مع أقوى أفواجه ليصل يوم الجمعة الى مكان موحش يسمى «الشقة» (الثقب) لكن الممرات كانت ضيقة جدا، وكنا لا نتقدم إلا بصعوبة كبيرة حول الحواجز الصخرية، تابعين أحيانا ممرات وبطون الأودية. وهكذا اتسعت وانتشرت المحلة على شكل شريط من الرجال والخيول يتقدم بصعوبة وتردد في هذه الأودية الصعبة، وفي مواجهة ضباب كثيف جدا ظل مخيما على المرتفعات منذ الصباح حيث انتشرت بسرعة وبشكل متزايد، وعوض الإلتشاع، بعد مدة قصيرة، كالعادة، فإنه ظل مخيما وكأنه مرسل من السماء، لم يعد ير الرجل أكثر من أمتار قليلة أمامه. لم يقل أحدنا شيئا، لكننا كنا نتساءل فيما بيننا هل هذا الطريق الذي أخذناه طريق جهنم أم لا؟ أما أهل الجبال الذين كانوا يعرفون الممرات والمعابر والمنسبطات فوق الجبال فكانوا يطلقون النيران في الأسفل عشوائيا تقودهم في ذلك أصوات النيران المتصاعدة من الأسفل. وبين الفينة والأخرى كان الجواد يسقط مع فارسه في هوة سحيقة غير متوقعة، ولا يسمع إلا صوت الإنزلاقات التي لا تنقطع. فانتشر بين الناس خبر أن الحيام والأمتعة المحمولة فوق البغال قد اختفت في الأرض التي انشقت تحت أرجلهم. وقد كنا نبحث عن بعضنا البعض، وبتنادى، وكان البعض يجد الآخر كل مرة لأنهم كانوا يدورون في نفس الحلقة دون قدرة على التقدم أماما، وكان البعض الآخر، ودون شجاعة، يختبئ تحت الصخور لتضميد أرجلهم الدامية. وقد قتل هنا رجال وشخصيات سامية حيث قطعت أشلاؤهم في الهوات السحيقة، فليس فقط لم نعد نعرف مصير الوزراء المهمين التائهين والمفقودين في الممرات الضيقة، بل كنا نهمل أيضا مصير مولاي الحسن، وقد ذكر بعض الناس أنهم رأوه ينزل من فوق جواده ثم

اختفى في الضباب. فانتقل هذا الخبر بين الناس، وفي اتجاه معاكس، للفرقة المعسكرة أمام تازة حيث اتجهت وحدات القبائل التي كانت قد ظلت في حراسة المحلة، امتطت جيادها واتجهت في البحث عن السلطان واقتباله خاصة أننا كنا في بلاد العدو.

ومن حسن الحظ، فإن الضباب بدأ في الانقشاع شيئا ما خلال ساعتين، وبدأ المحاربون يجتمعون من هنا وهناك على شكل جماعات صغيرة فوصلت وحدات القبائل ورجع الأمل من جديد.

وعندما رأنا وحدات القبائل اتجهت نحونا بعد أن التحق مولاي الحسن بالمعسكر هادئ البال تحت مظلة المنتصبة، وما حدث هو كالتالي فقد وجد القائد محمد بلقاسم الشرقي السلطان تحت الصخور حافي القدمين ماسكا بندقية في استعداد للدفاع عن نفسه، فأعطاه فرسه وصاحبا له أمسك باللجام إلى أن وصله إلى طريق العودة.

وقد كان الرجوع إلى المعسكر شاقا، لقد كانت فعلا مصيبة وفوضى، حيث كانت الأفواج تهرب دون قواد وكان العدو يطاردهم، وفقد الكثير سلاحه وفرسه في هذا الجبل الجهنمي كما تخلف الكثير منهم ولم يرجعوا أبدا. (16)

فجمع مولاي الحسن المنهك من هذه المغامرة، كل القواد الحاضرين وقال لهم :

— إن هذه الحادثة المفجعة التي وقعت، وهذه المصيبة مصدرها فقط عدم التنظيم وجهل أفواجكم. أتظنون أن الحرب مهمة سهلة، باستطاعة كل واحد ممارستها منذ الصغر وأن ما عليه سوى المشي أو ركوب فرس ضد العدو ومطاردته وقصفه بالنار؟! لقد رأيتم اليوم أن جنودكم لا يحسنون قيادة أنفسهم، ولا السير في المناطق الجبلية، ولا ماذا عليهم فعله من أجل إزاحة العدو عن المرتفعات التي يحتلها، فلو كانت المرتفعات مشطية وتحت يديكم كان سيكون عدد قتلتنا أقل، لندي جنود لكنهم لا يعرفون أي قاعدة أو خبرة في القيادة أثناء الحروب. فكل يفعل ما بدا له. لهذا أريد مدربين عسكريين لتمرينهم، وألاحظ جيدا أنكم، وباستثناء بعض الجنود القدماء ذوي الخبرة كبيرة في الحرب، غير أكفاء.

هذا ما قاله الملك، وشرع كل واحد في إجراء حساباته. وللانتقال للمخزن فإن المحلة قامت ببعض «الصوكات» لبلدان غيثة حيث تم إحراق القرى والمخاضيل، لكن لم نجد أحدا. حيث صعد الناس والبهائم إلى الجبال، حيث يصعب مهاجمتهم.

هكذا تم كل شيء، ورفعنا المعسكر والمحلة، ثم اتجهنا نحو بني يزناسن للنظر في أمر القائد البشير بن مسعود، الذي هزم، كما تذكر، فرقة مولاي عرفة. وانفصل شريف وزاني يدعى سيدي محمد بن عبد الجبار - فقد كان هناك دائما في المحلة شريفان أو ثلاثة من هذه الأسرة الشريفة المنحدرة من مولاي إدريس نفسه، عبر جد الأسرة الأكبر ومولاي

عبد الله الشريف وكان «لبركتهم» المنتشرة بين الناس تأثيرا قويا على القبائل في علاقتهم مع المخزن - كان مع فرقة وحراس له، لحمل رسالة مولوية مختومة للقائد البشير تنصبه فيها قائدا على كل نواحي بني يزناسن.

وبعد مدة قليلة دخلت المحلة أرضه في ذهول كبير. فعلى طول الطريق التي كان يمر منها السلطان كانت تمتد وحداث البشير على قدر ما تسمح به الرؤية، حيث كانوا مصطفىين على طول الطريق على شكل حاجزين غير منتهيين من الرجال والخيالة، مسلحين ومرتدين لباس العيد، ثم تتابعت الأفواج على مسافة تقدر بمسافة ما بين بوزنيقة والقنيطرة⁽¹⁷⁾. وكانت المحلة تمشي في الوسط كأنها تتحرك فوق زريبة مفروشة : وحداث القبائل في المقدمة ثم الشراكة ثم الوداية، ثم المدافع، ثم فيلق، ثم حاملي الأعلام ثم ضباط القصر، ثم السلطان تحت مضلته، ثم البخاريين ثم الشراردة ثم كل من يوجد عادة في مثل هذه المناسبات مر كل هذا، و بنويزناسن ينحنون فوق جيادهم ويقولون :

— الله يبارك في عمر سيدي.

ثم ذوت البنادق فرحا في اهتزاز مذهل.

وفي الأخير، وصلنا الى الخيام التي هيأها القواد، حيث جلسنا لشرب الشاي وبعد ذلك جيء بالأطعمة الكثيرة والمتنوعة، فقد كان هناك ما بين 600 و 700 خروف مشوي، ودجاج كثير عد حصى الوادي والشعير، والقمح في « التلايس»⁽¹⁸⁾. ورغم كل ما قدم في هذا الحفل الكبير، فإن مولاي الحسن لازال راغبا في الانتقام وسجن القائد المنتصر على أفواجه وجنوده، لكنه ظل لا يقول شيئا.

وأثناء الحفل نادى الوزير الأول سي موسى على البشير وقال له بعد أن عين له مكانا شاغرا قرب السلطان، وقال له :

— يمكنك الدخول والبقاء هنا، ولا خوف عليك، أو لست أنت السيد هنا إن سيدنا مسرور من هذا الحفل الذي رحبت به فيه والذي لم يكن ينتظره.

فأخذ البشير مكانه المعين له، فتقدمت أفواج بني يزناسن بالهدية، وسر السلطان من الهدايا المقدمة إليه، وبعد أن غادرت القبائل الحفل وأراد البشير أن ينعم بقسط من الراحة، قيل إن المخزن يريد استقباله وتشريفه ولا يمكن أن يذهب دون إحتفاء به، ثم عين له مكان بين الأعيان في المجلس السلطاني. وعند آذان صلاة العصر ابتدأت الحفلات وقدمت الأطباق المختلفة وعزفت الفرق الموسيقية أعذب الألحان الأندلسية، فانشرت ملامح البشير، حيث يرد على التحايا والتهاني، كان البشير يشك في أنه سيقبض عليه لكنه أمام هذه الاستقبال والاحتفاء ظن أنه قد عفي عنه وسومح. فانغمس في الالتذاذ بهذه اللحظات السعيدة،

وعندما كان يضحك من المستملحات الكثير بعد الوجبة، ضرب أحد الرجال على كتفه وقال له :

__ القائد البشير، هناك ثلاثة رجال من بني يزناسن يريدون التحدث إليك فوراً. فنهض ثم خرج مع سي بورمضان فقيهه وأحد أقاربه. ليجد خلف الخيمة ثلاثة حدادة مهمتهم وضع القيود في رجليه، فنظر يمينا وشمالا لكن الجنود المسلحين كانوا يحيطون بهما من كل الجهات، فأيقنا بأنه قضي عليهما، فأعطيت التعليمات بأن يذهب بهما على البغال نحو فاس في حراسة مشددة من 500 فارس بقيادة الشافعي المسكيني، وكان بنو يزناسن ينظرون إليهم مارين ولا يعرفون إلا قائدهم الذي رأوه قبل قليل في خيمة الوزراء قد اعتقل في ساعته وسطهم وأمام أعينهم، وكانت قد أعطيت أوامر للقائد الشافعي أن يقطع رأسي السجينين إذا تعرض لأذى هجوم.

وفي الغد صباحا طلب أصدقاء البشير رؤيته ظنا منهم أنه في خيمة قائد المشور، لكن لم يجدوه بتاتا. فقبل لهم أنه عند الفقيه، لكن قيل لهم بأن أمرا سلطانيا صدر بجمع وحدات كل القبائل دون الحديث عن القائد المختفي، فعين عليهم قائدا جديدا نسبت اسمه لم يكن محط رضاهم وقبولهم.

وهكذا تمت أحداث التمرد البشير بن مسعود (أكتوبر 1876).

الهوامش

- 1- كان الراوي الحاج سالم العبيدي : يتبع محلة السلطان صحبة قائد العياشي ووحدة عبدة هذه كانت عاداته منذ أن كان طفلا ابن 12 سنة. فقد كان إذن في عين المكان الذي توفي فيه سيدي محمد براكش كما صاحب السلطان الجديد في تحركاته شمال المملكة.
- 2- جمع شريف، وهو المنحدر أصلا أو افتراضا من النبي (صلعم) من ابنته فاطمة الزهراء.
- 3- هذا المعسكر ليس بعينا عن سور المدينة قرب الطاحونة.
- 4- كان الحراس الرسميون لقصر فاس مكونين من الشراكة وأولاد جامع، وفي مراكش من الوداية وسوس، وفي مكناس من البخاريين وفي الرباط (قبل 1864 في عهد سيدي محمد) من التواركة ومزيح من سوس والوداية.
- 5- عبارة عن استطلاع هجومي كبير، بسرعة كبيرة مع هدم بعض القرى وقطع بعض الرؤوس.
- 6- عبارة عن ثور يقطع عرقوب ساق هدية يقدم رمزا للطاعة والولاء ويساق عادة أمام خيمة.
- 7- عمون مكلف بالشؤون الإدارية والمالية للمدينة، ورئيس تعاونية مهنية.
- 8- الحاج محمد بن المدني بنيس.
- 9- من أبنائه مولاي المهدي خليفة السلطان مولاي يوسف على تطوان توفي في دجنبر 1923.
- 10- في الواقع هناك اثنا عشر بسميان مولاي إدريس الأول دفن زرهون (788 و798 م). العاصمة الأولى للأدارسة وليلي، والثاني بفاس (808 م) ودفنها (808-828 م).
- 11- محفوظة من جلد في محمل الفقهاء، يوضع فيها المصحف، وتسمى عند العامة الدليل.
- 12- مسكن كبير مكون من غرف فوقية، وإسطبل في الأسفل للمبهايم.
- 13- اسم مطلق على الغرف أو المكاتب التي يشتغل بها الوزراء مع كتابهم.
- 14- حي شمال فاس.
- 15- خيمة الضيافة، مبنية، خارجة بعض الشيء عن الفراك.
- 16- وقعت الواقعة في منخفظ واد بوكربة، ويذكر البعض أن الواقعة قد سهلت أمام الإنقطاع المفاجئ للمياه الذي احتفظ عليه غيابة بواسطة سدود.
- c. Fi de Foucougl : Reconnaissance au Maroc, P : 34 (Tirage : 1934)
- 17- أي 70 كلم. ولعل سالم العبيدي يبالغ، فيمكن أن يكون لم ير جيادا، أليس من حقنا عذره بعد أحداث الواد الطهمنية ؟!
- 18- عبارة عن أجربة كبيرة مصنوعة من الصوف تجمع فيها الحبوب وتنقل على الحيوانات بعد أن تكون قد وزنت جانبها، لأنه غالبا ما تكون مكونة من جانبين.

حملات مختلفة (إلى وادي سوس)

(1886-1882)

وبعد ثلاثة أيام عن أحداث بني يزناسن استأنفت المحلة طريقها نحو فاس. حيث توقفت بعض الأيام في وجدة. وكان السلطان قد التقى ببعض الضباط الفرنسيين على الحدود المجاورة، حيث وضع أمام السلطان فوج استعراضي من الجنود (الأجانب) إنهر به وبإتقان حركات وسرعة إنجاز تداريبه تحت تعليمات رجل واحد في انضباط تام وصمت مطبق. فصاح السلطان :

— هكذا أريد أن تشتغل أفواج جنودي.

فعمد مباشرة بعد الاستعراض، إلى الطلب من ممثل الحكومة الفرنسية أن يمدّه بمدرّين عسكريين لأفواجه النظامية من أجل الاستفادة من خبراتهم في فن الحرب. وقد تم هذا الاتفاق في وقت كان فيه بعض الفرنسيين مع رجال المخزن يعملون على رسم وتحديد الحدود بين الجزائر والمغرب. . حيث تمت المفاوضات في جو يسوده تراضي وارتياح الطرفين. بعدها استأنفنا الطريق نحو فاس.

وقد تدارس مستشارو السلطان كثيرا، قرار السلطان بجلب مدرّين عسكريين فرنسيين مذكرينه انه سبق أن أرسل بعض المغاربة إلى جبل طارق ليديرهم الإنجليز على المناورات والرمية⁽¹⁾. ثم إن برجوع هؤلاء الشبان المدرّين، سيتمكنون، وبسهولة، تدريب الأفواج المغربية. وبهذا لن يتمكن الأجانب المتمركزين بجوار المغرب من معرفة الحالة العسكرية للبلاد. فندم السلطان على طلبه هذا، محتجا بأنه كان نتيجة لما تعرض له في قضية غيثة. لكنه أضاف بأن الوقت قد فات لسحب موقفه « الملكي » وبأنه سيتدبر الأمور من أجل إبعاد القادمين الجدد عن العواصم، ومركزتهم في الرباط مثلا.

وخلال إقامتنا بعض الوقت في فاس، طلب السلطان باشا فاس الجليلي بن حمو وقال له :

— أريد بعث محلة استطلاعية لناحية تطوان وطنجة، فبم تنصحنني؟ فأجابه الجليلي :

— الوقت غير مناسب سيدنا. فالأمطار على وشك النزول في فصل الشتاء، والبرد قارس بالجلال مما يجعل عدد أحيائنا قليلا، واعلموا أيضا أنه ستكون هناك اضطرابات في

الوحدات التي ليست متعودة على التحرك في مثل هذه الفصول الصعبة مما سيجعل عددا كبيرا يفر من الجندية. ثم إنه إذا هاجم المخزن جبالة⁽²⁾، فإنه سيكون مضطرا للتراجع لهذا الأفضل فصل الربيع أو الصيف من أجل إنجاز هذه العملية.

___ حسنا، قال السلطان، أشكرك يمكنك الانصراف.

ثم سارع السلطان، فورا، إلى طلب وحدات من القبائل المخزنية. وهكذا جمع حركات دكالة وعبدو والشاوية والغرب. فلم تكن نرى سوى المحاربين حول باب السكمة. وبعد جمع كل الوحدات ثم نقل المعسكر إلى باب الكيسة الذي يصل، كما يعلم الكل، إلى طريق تطوان. وطلب السلطان من جديد بن حمو وقال له :

___ تعلم جيدا، أنا في مشاكل دائمة مع جبالة فهم معارضون رافضون لكل سلطة / حكم. ولا أحكم قبضتي عليهم، ولا تجهل أيضا أن هذه الجهة هي مدخل طنجة بالنسبة لنا. ثم إنه من هناك يمكن أن تأتينا المشاكل مع النصارى. فرغم الطقس المضطرب لا بد أن تتحرك محلتنا. وقد طلبت نصحك أنت، لأنه ليس لدينا أي أحد في المخزن يوازيك مرتبة، ثم إنني أعتبرك أحد آبائنا الأكثر حبا عندنا. فقل لي، بصراحة، موقفك من مثل هذه البعثات؟

فأجابه الجيلالي بن حمو :

___ أكرر لسيدنا بأن الوقت غير مناسب، ولا أعتقد أن السلطان يمكن أن يقدم، شخصيا، على حملة مثل هذه في الوقت الراهن.

___ حسنا، قال السلطان، إذا كنت / تعتقد أنه لا يمكن أن أذهب، شخصيا في هذه الحملة، فإني أكلفك بأن تختار لي من ضمن قوادنا أحدا مقتدرا على إنجاز مثل هذه المهمة.

السلطان أعلم مني.

مادام الأمر كذلك، سأفكر في الأمر.

كانت هذه المحادثة صباحا، وحوالي الساعة الرابعة مساء، جاء مخزني في طلب الجيلالي بن حمو. وبوصوله إلى القصر، أدخل الباشا إلى السلطان الذي قال له :

___ لقد فكرت في الأمر ولم أر سوى حلين للمشكلة التي تشغل بالنا. فإما أن أذهب أنا السلطان في الحملة، لكن مادمت لم تستحسن خروجي نظرا لما قد يواجهني من مخاطر. فإني أظن، وهذا هو الحل الثاني، إنك أنت من سياخذ مكاني.

فانحنى الجليلي قائلا :

— حسنا، سوف أذهب.

وفي اليوم الموالي أخذ باشا فاس، قيادة المحلة. وصل عبر الطريق المعتادة لجبل ككب إلى جباله مرورا ببني ورياغل وبني زروال، مسكيدة، وبني مستارة. . .

لقد كان عدد الجنود مهما، حوالي 15000 رجل بما في ذلك الأفواج النظامية. وكان قد جاءت وحدات القبائل بقوادها الكثيرين ن حيث كنا نرى العباسي وبن عودة من الغرب ومبارك وعبد الله بن الشليخ من الشراردة، والشرابة مع ابن الزنزون وبني حسن والخلوط مع العواد والعربي لكحل والحاج عبد القادر بن خدة، وبني مطير مع رحو ولدمامة، وكروان مع رحو ولدرايح، وآيت يوسي مع محمد أطالب ن وغرب سايس مع ولد الحمية، والحياينة مع أربعة قواد نسيت إسمهم، لا يهم.

فوصل الجميع إلى أطراف ورغة وسط القبائل المتمردة. فكنا نعسكر ونتراجع بعض الشيء وتبادل طلقات الرصاص وكان سكان الجبال الذين أدركوا أنهم لن يستطيعوا الصمود أمام هذه الجحافل التي تحتل أحواضهم قد قرروا الاستسلام والخضوع، ثم أصبحوا يعطوا النقود المطلوبة منهم، والقطعان (أبقار، أغنام)، والخيول والبغال. ولاأظن أنه كان هناك قتلى ولا رؤوس مقطوعة. وعندما تم هذا الإخضاع بعثت الغنائم والضرائب تحت الحراسة إلى المخزن. مع طلب التعليمات من مولاي الحسن الذي كتب إلى الجليلي بن حمو قائلا :

« أترك الآن الجبال في هدوء، واحمل معسكرك إلى أهالي فحص ناحية طنجة حيث أعلمت أن الطرق مقطوعة، وأن القوافل لم تعد تستطيع التحرك بين شمال وجنوب مملكتنا. »

فانطلقت المحلة نحو فحص، وأرجعت الأمور إلى نصابها، واستطاعت، القوافل التي كانت تنتظر أن تتحرك في كلا الاتجاهين. وعندما علم السلطان بالخبر، كتب إلى قائد المحلة مهنتا بالنجاح التام، الذي كللت به العمليات المنجزة والتي تمت دون إراقة أي نقطة من دم المسلمين، وأنه لم يكن ينتظر منه أن يكون بهذه الحصافة والتجربة. ولمكافأته عن الخدمات الجليلة التي أسداها للعرش عينه باشا على طنجة، وخليفة سلطان على كل هذه الناحية.

لم يكن إلحاح السلطان على إلحاق الجليلي بن حمو بطنجة إلا خطة من السلطان من أجل إبعاده عن فاس، بإيعاز من سي أحمد بن موسى ابن الوزير « الأول » الذي كان يحظى باحترام كل أعيان المدينة.

وأنهى السلطان رسالة التولية (لابن حمو) بقوله :

« لا تنسى أن بطنجة وزراء القوات الأوروبية، الذين لهم مكانة قوية، ويستطيعون التقريب بين دولنا وقد فوضنا لك الأمر في التفاوض بشأن مصالحنا، بتعقل ورياسة. ومن أجل هذا منحناك منصب ثقتنا هذا ».

واستطاع السلطان بهذه العملية الذكية، أن يبعد شخصية بدأت ملامح « خطورتها » تظهر في فاس، ويحلها بطنجة، محل الباشا الفعلي سي أحمد بركاش، أب سي عبد الرحمان بركاش (الذي كان باشا الرباط)، الذي كان يؤاخذ عن كثرة موالاته للإنجليز بإعطائهم امتيازات في إنشاء المقاولات بطنجة.

وهكذا أصبحت مهمة الجيلاي بن حمو مراقبة بركاش. ثم رجعت المحلة إلى فاس بعد أن استخلصت الضرائب من قبائل المنطقة.

استدعى السلطان إلى القصر أعيان المدينة بما فيهم خليفة الباشا المسمى أحمد الرايس الذي كان ينوب عنه في غيابه وقال لهم :

« إن الباشا الجديد الذي عينته عليكم هو سي عبد الله بن أحمد ابن أخ وزيري سي موسى. وهذا هو خليفته مشيرا إلى الرايس. ثم إن وزيرنا في الحرب هو سي العربي الجامعي بدل سي عبد الله.

« علي أن أخبرك أن أم مولاي الحسن هي أخت سي محمد الجامعي. وقد كان مولاي الحسن يحترم أمه كثيرا، بل كان يمدّها بالرسائل التي يعطيها إياه الوزير الأول الحاجب سي موسى ».

مراجعة نظام الجند

وبعد مرور مدة وجيزة عن هذه الأحداث (ربيع 1878)، رجعت المحلة مع السلطان وكل المخزن إلى مراكش عبر الطريق المعتادة (مكناس، الرباط) وفي نهاية هذه الرحلة توفي سي موسى فأصبح محمد بن العربي الجامعي وزيرا أولا وحل محله في منصب العلاف أو وزير الحرب أخوه سي محمد الصغير، وهكذا بدأ نفوذ الجامعيين يتسرب إلى المخزن.

وقد أقام السلطان سنة بمراكش مع حاشيته. وقد كانت هذه الفترة سيئة لانتشار المجاعة. حيث مات عدد كبير من الأفراد والقبائل من الجوع والحمى.

ولم يكف السلطان عن مراقبة تقدم جيشه. حيث كثر الحديث في هذه الفترة عن طابور أو فوج «الحراية» بقيادة ضابط صف إنجليزي هارب من الجندية من جبل طارق يسمى : هاري ماك لان Harry Mac -Lean يشرف على تكوين محلي للتدربين كانوا يبعثون فيما مضى إلى مدارس. وإلى جبال طارق نفسه. وقد كون هذا الفيلق من رجال مختارين

من مختلف القبائل، يرتدون بذلة حمراء، وسراويل فضفاضة من نفس اللون، وعمائم بيضاء حول الشاشيات، وجوارب بيضاء وأحذية غليظة، أما سلاحهم فكان لكل جندي بندقية إنجليزية أو بلجيكية أو إسبانية، وحرية معلقة إلى نجاد أبيض عريض مع كنانة. وقد كانت الأظرف مكونة من قبل أفراد التجريدة المكونة بجبل طارق. أما الضباط السامون فكانوا يحملون مثل رتب الإنجليز. ويتمتعون بتغذية جيدة، أو يتفاوضون رواتبهم بشكل منتظم، بفضل تأثير قائدهم ماكلان الذي كانت بدلته تشبه تقريبا بذلهم، لكن مزينة بخيوط ذهبية على الطريقة التركية، وقد كان مولاي الحسن معجبا بهذا الفيلق حيث يتابع نشاطه وتطوره بقيادة ماكلان بأهمية كبيرة. وسيجعله في مرحلة لاحقة حرسه الخاص.

وبعد مدة وجيزة من ذلك، رغب السلطان في خيالة مدرين بنفس الطريقة فجمع 800 من الرماة يرتدون نفس البذلة. لكن عاري السيقان، وبيلاغي (أحذية دون كعب) مسلحين ببنادق Martini Henry، وسيف مغربي، وأحيانا بخنجر. وقد تم استخدام إنجليزي يسمى major Ogilvy لتدريبهم.

أما المدرين الفرنسيين الذين طلبهم مولاي الحسن فجاءوا متأخرين، وأعطيتهم مهام أقل أهمية، بتدريب المدفعين في الرباط. وطلبهم السلطان إلى جانبه، حيث أولى أهمية أكبر للمدفعية الذي يعتبر الفرنسيين ذوي خبرة فيه، (القبطان Erekmán) وكان السلطان يولي أهمية كبرى لجيشه في الجنوب كان أم في الشمال من مملكته حيث يتعهد بالصيانة والتغذية والتسلح والمؤونة. وقد حير مولاي الحسن بنشاطه العارفين حتى إنهم قالوا : إن على رأس المغرب مولاي اسماعيل جديدا أحد أكبر سلاطيننا الماضيين.

حملات إلى تادلة

ورغم الحصيلة الفلاحية السيئة فإن السلطان تحرك بالحلة في فصل الربيع (3ماي 1879) عبر السراغنة وانتيفة لإخضاع قبائل آيت عتاب الموجودين على ضفتي واد العبيد، وكذا جيرانهم بني موسى بمنطقة دار ولد زيدوح وقصبة بني ملال. وبعد إخضاع هذه القبائل اتجه الملك ووزراؤه نحو مكناس. وفي الطريق كانت الحلة تتدخل، كالمعتاد، ضد بني مطير الذين يخضعون دائما كل مرة كان فيها الخزن موجودا على أراضيهم، ويتمردون بمجرد مغادرته لهم. وقد تمت محاصرة الفوضويين في أغوراي والحاجب وأرغموا على الخضوع وتسليم الرهائن التي سيضمنون بها خضوع القبيلة، وتأدية الضرائب المتأخرة، ومبلغا كبيرا تعويضا عن مصاريف الحرب. لكن كان هؤلاء البرابر أكثر تعطشا للإستقلال. فرغم العقوبات الأكثر وقعا التي سحقتهم فإنهم كانوا يعودون دائما للتمرد. حتى إنه أصبح التردد على بني مطير، سنويا، شيئا ضروريا للمخزن.

وقد مكت السلطان في مكناس ستة أشهر تقريبا. وأثناء إقامته هذه حتى مرض السلطان مرضا شديدا إن خبر وفاته انتشر كثيرا، مما دفع بكثير من القبائل الى التحرك والتمرد (يناير 1880).

وبعد شفائه وصل مولاي الحسن إلى فاس. حيث سيقم أكثر من سنة. عاملا بين الوقت والآخر على بعث أفواجه لمختلف القبائل التي لم تؤد ضرائبها للمخزن. فبعثت حركة للغلاعة في الريف، مع مولاي الأمين، ثم ثانية لجلالة بضمواحي وزان. وفي الأخير ثم تأديب آيت يوسي. وباستثناء، هذه العمليات الصغيرة التي كانت ضرورية والتي لم تكن دائما دامية، فإنه لم تكن هناك أشياء مهمة كالحروب مثلا. حيث لم يخرج الفراگ، وكانت البلاد في هدوء وسرور. وفي ربيع السنة الموالية (1881)، اتجه السلطان نحو مراكش. حيث ستحل محله عند زمر ثم عند زعير التي اجتاحتها، منحدرنا نحو الشاوية، معرجا على تادلة التي خضعت قبائلها البربرية⁽³⁾. كما استقبلت قبائل زيان أحد القواد مع قوات من أفواج المخزن، والتي ستكون نواة قوة موحا أحمو المشهور⁽⁴⁾. وهكذا دخلت المحلة المنتصرة مراكش حيث ستقضي أربعة أشهر الشتاء.

حملات الى سوس

وفي الربيع الموالي (1882) كان على السلطان أن يتدخل في سوس لأسباب مختلفة لا أفهمها جيدا. لكن يبدو أن الإشبانيين عقب انتصارهم على سيدي محمد (بن عبد الرحمان) كانوا قد أسسوا ميناة في آيت باعمران ناحية سيدي إفني. وكان الناس يتعاملون معهم كما أنه ليس للمغرب سلطانا.

وهكذا عبرت المحلة الحوز مروراً بقصبة اميتانوت وبلاد حاحة لتصل إلى أكادير حيث يوجد قائد للمخزن ثم انطلقت بعد ذلك من أكادير عبر ضفاف وادي سوس ثم دار الحاج العربي ثم تكاديرت ثم أولاد اسعيد لتصل إلى تارودانت (يونيو 1882)، البلاد هنا هادئة وفقيرة. فقد كانت المحاصيل الفلاحية هزيلة جدا ستين متوالتين نظرا لقلّة المياه وعبرنا المنطقة دون إطلاق ولو رصاصة واحدة، ولم يعرقل عبورنا أحد، وقد عمت المجاعة الجهة كلها، حتى إن السلطان اكرى بواخر لنقل الحبوب الى أكادير لمؤونة هذه الأعداد الهائلة من الرجال والخيول. وقد كانت تأتي هذه الحبوب من الجديدة (مزكان) والدار البيضاء مما كلف مولاي الحسن أموالا كثيرة جعلته يقرر شراء سفينة للمخزن سماها : الحسن. جيدة الصنع وأكبر بعض الشيء من فرقاطة.

وقد كان الطقس حارا. حيث عانينا كثيرا من مخاطر الثعابين الطويلة والقصيرة الموجودة بالمنطقة خاصة بغابة أديمم، التي منها يأخذ مروضوا الأفاعي بعضها لساحة

جامع الفنا (مراكش). فلم يكن يمر أي يوم دون أن تصاب 10 أو 20 بغلة. ونجا العديد من الرجال من هذه السموم. كل هذا يقع كما قلت لك، والمؤونة نادرة والحرارة مفرطة.

وكانت الآفاعي السامة أكثر خطورة من الرصاص مما جعل أوضاع المحلة غير مستقرة. ورغبة منه في معرفة موقع لتشييد ميناء للمخزن، فإن السلطان غادر تارودانت (2 يوليوز) عابرا واد سوس عبر هوارا وشتوكة ليصل الى ماسة أغبالوا على واد ماسة. ثم الى أكلو حيث كان على البواخر إنزال الحبوب الضرورية للمحلة. لكن أحوال الطقس المضطربة لم تكن تسمح لنا بإنزال ما يكفي لتهيئ ولو خبزة واحدة. وكان ممكنا أن ترسو هذه السفن بماسة أو أكادير، وشرعت القوافل في تزويدنا منها بالحبوب، لكن أعدادا كثيرة من الجنود فرت من أجل الحصول على « الخبز ». وفي ظل هذه الظروف أصبح السلطان يفكر مليا في الرجوع. وقد كان السلطان، في هذه المدة، يتفاوض مع شريف تازروالت محماد أهاشم، الذي كان له نفوذ كبير على كل سوس الأدنى، من أجل الحصول على موقع مناسب لتشييد ميناء بالمنطقة. وقد كان السلطان بإجرائه هذا، يفكر في تحويل الأنشطة الاقتصادية إلى هذه المنطقة، حتى لا يكون مضطرا إلى استيلاف الميناء الإسباني، أو جهة من الشاطيء حيث تمرکز الأنجليز دون ترخيص بذلك :

(مؤسسة Mackeusie بطرفاية، و Cap-juby) ويبدو أن مصب واد أساكا كان أفضل موقع لذلك. ثم بعث من أكلو فوجان من الجنود نزلا عبر بلاد آيت باعمران. الأول لإخبار الإنجليز بضرورة مغادرة إدارتهم. والثاني بقيادة مولاي الأمين من أجل تأسيس الميناء الجديد. وعندما رجعت هاتان البعثتان، كان السلطان مستعجلا للرجوع، خاصة أن المؤونة قد قلت والحرارة شديدة، حتى إنه لم تكن تتحرك إلا ليلا. وصلنا مراكش عبر أكادير وبلاد حاحا، منهكين جدا (10 غشت 1882). وكان السلطان قد ترك في عين المكان طابور البخاريين بقيادة العربي بن حممو معسكرا في قصبة آيت باعمران، التي شيدت في موقع غير بعيد من البحر على الطريق المارة من أكلو الى إفني. كما أعطى الأوامر لبناء، قصبة تزينت على بعد 20 كلم من الساحل، حيث توجد عيون الماء والأراضي الخصبة.

وفي طريق العودة. ولد مولاي عبد العزيز،⁽⁵⁾ مما كان مناسبة لأفراح كبيرة عرفتها مراكش حيث كان الكل مسرورا. ورغم هذا فإن هذه الحملة لم تعط ما كان ينتظر منها مولاي الحسن.

وكان شريف تازروالت : محماد أهاشم حفيد سيدي احمد أموسى صاحب زاوية في الجبل قرب تزنيت، لم يعلن الطاعة بعد، هو وعدد كبير من أتباعه وكذا القبائل المجاورة التي يرأسها، حيث كانوا يبحثون عن التمرد ضد الإدارات العسكرية التي أسسها وركزها مولاي الحسن. وقد كان تأثير شيخ الزاوية أقوى من تأثير السلطان، ثم إن غلاء وصعوبة

وصول المؤونة إلى المحلة لم يمكن المخزن من الإقامة مدة أطول في هذه الجهات دون حصاد خسائر أكبر.

لكن تقدم الأشغال بقصبة ترزيت أظهرت للجميع أن عين مولاي الحسن ساهرة على سلامة هذه الجهات. ورغم تلك المشاكل فإننا كنا نحتفل في هذه الحملة ونعتبرها انتصارا خاصة أنها عرفت ولادة مولاي عبد العزيز. ابن لالة رقية وهي شركسية مفضلة عند السلطان. حيث عمت الأفراح وانتشرت الحفلات التي حدثت عنها. وعندما انتهت الأمور كلها كما يجب، أخذت الأفواج العسكرية عطلة كاملة. وبحلول فصل الشتاء استمرت عملية ترميم الصفوف. وبحلول فصل الربيع (20 ماي 1883) غادر السلطان والمخزن مراکش.

وهكذا مررنا بالطريق التي تعجب مولاي الحسن الآن، عبر تادلة حيث جاء آلاف الفرسان الزيانيين للسلام على السلطان، لكن كان على المحلة وهي تعبر بلاد « السماعلة » أن تخوض معارك ضد هؤلاء البرابر المحتمين في قصباتهم. فحسنت المدفعية الموقف لكن تركنا في الساحة أكثر من 500 جثة بالمقابل. وقد كان هؤلاء البرابر الذين يحمون نساءهم وأطفالهم وقطعانهم يستغلون مجيء الليل للخروج من القصبة في اتجاه الجبال.

وقمنا بعد ذلك بغارة لبلاد زعير وفي شهر ثم وصلنا إلى مكناس (أكتوبر 1883) حيث قضينا فصل الشتاء.

وفي فصل الربيع، انطلقنا نحو فاس عبر بني مطير، واستغللنا فرصة المرور بهذه الطريق لنحاربهم كما جرت العادة بذلك، وقد كان السلطان يرغب هذه المرة في محاصرتهم بمحلتة كسمكة في شبكة، لأنه منذ أن تظهر أفواج جيوش المخزن على أراضيهم إلا ويتفرقوا بسرعة كفراخ الحجل. لقد كان مولاي الحسن يريد القضاء عليهم تدريجيا، خاصة أنه لم تكن هناك فعلا حفلات هذه السنة تجعلهم يقدمون إلى المخزن ليأسر منهم 100 إلى 200 سجين.

وكان السلطان قد عين عليهم هذه المرة قوادا أقوياء لإخضاعهم والحد من تمرداتهم المستمرة. فعين ولد مامة على آيت بوعثمان، وشابون على آيت غزالة، وولد تاراغت على آيت نامان. وكان السلطان عازما على سجن هؤولاء الحمقى حين مجيئهم الضروري لتقديم إحدى الهدايا.

وكان السلطان قد أقام، بعد ذلك، قرابة أكثر من سنة في فاس. ثم رجع إلى مراکش في غضون سنة 1885) وقرر إرسال حملة ثانية إلى سوس. لأن العرب المعقلين قد تردوا، ثم إن الأنجليز شيدوا بنايات تجارية على ساحل طرفاية وأركسيس، مما قد يزاحم

نشاط مينائه بأساكا. وقد كان هؤلاء الأنجليز (ماكنزي بطرفاية، وكورطيس بأركسيس) يتعاملون في التجارة والمبادلات مع شيوخ المنطقة بمباركة وموافقة شريف تازروالت. وقد كانت هذه المحلة أكثر نجاحا من الأولى. حيث بعث « أمناء » ومومنين يعرفون المنطقة جيدا، ولا حظوا أنه يمكن أن تصل المؤن بسهولة أكثر وأضمن. وكانت جميع مخازن سوس مملوءة بالحبوب ثم إن تزنيت ذات الأبواب الستة محروسة أكثر فأكثر من قبل سبعة طوابير (المشاة)).

وهكذا إذن غادرت المحلة مع السلطان مراکش لتصل إلى تزنيت (1886) وانطلاقا منها نظمت فرقتان للاغارة على آيت باعمران. الأولى سوف تمر عبر الخط الساحلي لحراسة الخيام والنساء والموكب. والثانية من الداخل بقيادة مولاي الحسن ليلتقيا معا في أركسيس. كما قامت تجريدة من الجنود على الجمال، بقيادة سي علال المسفيوي والقائد مبارك بن الشليح بهدم كل بنايات ومحطات الأوربين التجارية. ولم يكن هناك أي رد فعل من الأجانب الذين فروا في اتجاه بواخرهم التي كانت تنتظرهم في البحر. ثم نزلنا بعد ذلك بوادي نون حيث فعلنا الشيء نفسه بالنسبة للمراكز السابقة لطرفاية. فلم نجد أمامنا أي أوروبي، ولم تكن هناك أي مواجهات أو قتلى أو على الأقل فيما أعلم، وقد كان لميناء أساكا أهمية خاصة حيث تمركز به المخزن لتمر المبادلات التجارية في أحسن الأحوال دون وساطة الإسبان المجاورين. أما بالنسبة للأنجليز الذين طردناهم فقد وضعوا في الميناء لتعويض خسائرهم التي لحقت بهم أثناء الهجوم، كما أخضعت أيضا تلك القبائل المتمردة بعد تراجع شريف تازروالت وإجلاء المخزن للأنجليز، وتدمير منشآتهم وقوة مينائنا الجديد أساكا. كل هذه الأحداث جعلت المخزن يتقدم نحو وادي نون ليدخل كلميم في استقبال كبير. ثم رجع بعد ذلك إلى تزنيت، وليزور مسجد ماسة ثم بلاد شتوكة الخاضعة لقبائل هوارة (تارودانت) ثم واد سوس، ثم ليحارب إذا أوتنان خاصة. ليدخل في الأخير إلى متوكة.

استقبال المتوكي للسلطان

لقد كان مولاي الحسن يفكر في سجن قائد المنطقة الحاج مسعود الذي بدأت أهمية تتنامى بشكل بارز. وبوصولنا إلى دار القائد المتوكي فوجئنا، باستقبال كبير مدهش كثيرا. لقد كان مقامنا في هذه القصبية كله أفراح وحفلات لاتنسى. وعندما جاءت القبيلة بالهدية في اليوم الموالي، لاحظنا، ضمن أشياء أخرى، صفا من الرجال مرتدين ثيابا بيضا، مصطفين على قرب 800 متر يحملون على ظهورهم أكياسا ثقيلة من « الدوروات، بالإضافة إلى تقديمهم 10 أو 15 بغلة جيدة، وقوية صلية مثل الجدران. و 25 إلى 30 فرس جميل وقوي. مزينين كلهم بالذهب والفضة، حتى إن كل واحد منها يساوي مئات الدوروات بالإضافة إلى الأثواب والزرابي. . . ثم تقدمت بعد ذلك عائلة المتوكي بهدية خاصة، حيث كنا نرى خيولا أكثر رشاقة، وأكياسا مليئة بالقطع الذهبية.

وكان الحاجب، الداهية، باحماد ابن سي موسى الذي ورث عن أبيه هذه المهمة،
يجامل الحاج مسعود، والذي قال له في تواضع واتزان :

... كل ما رأيت ليس شيئا ذال بال، فأنا مسرور وفخور فقط، بهذا التشريف الذي
تفضل به علي السلطان والذي شرفني بقدمه إلى منزلي، وهذا بالنسبة لي ولأهلي حدث
تاريخي لا ينسى. فالآن يمكن لي أن أموت أو أسجن لا يهم، إنها قمة السعادة عندما متعني
الله بفرحة استقبال سيدنا بداري.

... إن كلامك حلو كالعسل، فالسلطان يشكر لك تصرفك وكلامك الجميل قل لي
الآن ما طلباتك؟

... معروف صغير أوده منك، أن تطلب من السلطان موافقته بإمكان زيارة أهل بيتي
لنساء السلطان وتقديم الهدايا.

فأعطيه ماأراد بسرعة. وعند مغيب الشمس شرعت نساء المتوكي في الذهاب عند
نساء السلطان اللواتي تنتظرهن مزيّنات بالحلي داخل الخيام في الفراك. فجاءت الزائرات
راجلات دون حراسة، ودون ثياب جميلة كما نجد عند « الشلوح » لكن كانت تحمل كل
واحدة منهن على ظهرها، جلد جدي مذبوغ محشو بالذهب وهكذا دخلت عند المرأة
المفضلة عند السلطان للارقية أم مولاي عبد العزيز، التي استقبلتهم بحفاوة، ثم وضعن
هداياهن المقبولة. لقد كان عدد نساء المتوكي يتراوح ما بين 25 و30. وكان مع مولاي
الحسن 40 امرأة حركّة.

وكان السلطان الذي رأى وسمع كل هذه الأشياء، قد وصل به الاندهاش أقصاه.
وقال لحاجبه باحماد :

— إن هذا المتوكي لا يستحق أن يسجن. لقد كنت أريد القبض عليه لأنه متمرّد
دائما، حتى إنني وأنا في مراکش، فإنه كان يهجم على أولاد ابن أبي السباع ومزوضة
والشياظمة، وحاحّة. ويدمر منازل قوايدي وينهب الذهب والعبيد ويذبح الأغنام. لكن
رغم كل هذا، انظر كيف يستقبلنا، وانظر إلى أملاكه الكثيرة وممتلكاته الثمينة، وأراضيه
ذات القيمة الكبيرة. وفي الحقيقة لا يجب اعتباره عدوا للمخزن بل دعامة له. فعلى تركه
في أمان، ونستقبل قبيلته دائما بارتياح أكبر. وعلى نحن الآن أن نقوم بدورنا بحفلات
كبيرة يحس بها المتوكي أنه صديق لنا. فأقيمت الحفلات ورقصت الرقصات وسمعت
الموسيقى، وقدمت الأطعمة الكثيرة. ثم رجعنا بعد ذلك إلى مراکش حيث سنقيم بعض
الوقت.

ونظم السلطان، انطلاقا من هنا (مراكش) صوكة إلى السماعلة بتادلة، ليصل إلى
مكناس، ويحارب بني مطير حيث سجن قوادهم و400 محاربهم، وبعد تعيين قواد
جدد عليهم، وصل المخزن إلى مكناس، ومنها إلى فاس.

ووجدنا في ساحة المشور « المكينة » تشتغل تحت إدارة الإيطالي Campini كامبيني حيث تصنع هنا، كما قلت لك سابقا، البنادق والمدافع من العيار الصغير والقطع النقدية. لكن رغم اشتغال الآلة طول النهار فإنها لم تكن تعطي أسلحة أكثر للمحاربين. وكان مولاي الحسين يولي اهتماما كبيرا لهذه الصناعة.

وفي السنة الموالية (ربيع 1888) أقام مولاي الحسن من جديد بمراكش. حيث كانت هنا عمليات ضد نتيفة، وبني مكليد وأهالي جبل فزاز.

وفي هذه السنة تزوج مولاي امحمد الإبن البكر للسلطان بمراكش، وعين خليفة على المنطقة، محل مولاي عثمان الذي بعث مع الحملة لمحاربة تادلة.

لقد كان لمولاي الحسن عدة إخوة أعطاهم مراكز مهمة. فبالإضافة إلى مولاي عثمان هذا الذي كان. ولمدة طويلة، خليفة على مراكش، كان هناك مولاي الأمين ومولاي عرفة الذي كان مختصا في العمليات الحربية والذي كان يذهب أحيانا مع الحملات ومولاي رشيد الذي كان عاملا على تافيلالت، ومولاي إسماعيل الذي كان عالما مثقفا محترما جدا.

وبعد هذه الأحداث رجع السلطان إلى فاس، حيث قرر زيارة شمال مملكته، وهكذا عبر جبال غمارة وزار الشاون وجبل العلم وتطوان وطنجة واصيلا، وفحص الريحان وواد المخازن والعرائش (حيث عمل على تقوية أسوارها) والقصر الكبير، و حد كورت وواد سبو، وبني احسن، وواد الردم، ومكناس وواد النجا ثم فاس.

أحداث آيت سخمان

وبعد إقامة بعض الأيام في هذه العاصمة قرر الرجوع إلى مراكش (وهكذا ترى أنه دائما على صهوة جواده) مرورا من جديد ببني مكليدة حيث وصلنا دون مشاكل إلى خنيفرة، عند موحى أحمو الزياتي الذي شيد قصبات قوية بالطين الأحمر، ويمكن أن يصفف في السهل 18000 فارس مسلح ومستعد للحرب. لقد كان دائما في مطاردة آيت سخمان المتمردين والمعتمسين بالجبال، وكان السلطان قد ناقش مع موحى إمكانية بعث حركة من أجل مباغتتهم وإخضاعهم، وهكذا كلف مولاي سرور بن مولاي سليمان بهذه المهمة، حيث وصل مع وحدته إلى الجبل، ولم يرجع أي واحد منهم سوى مولاي سرور المكلف والحاج أحمد الخمار الذي يظن أن له يدا مع آيت سخمان، ليحكي في المعسكر كيف مرت العملية :

عندما وصلت حركة الخزن إلى الجبل وعسكرت بالقرب من المتمردين ن جاءت بعثة من أشراف القبيلة « بشيران التركية » قائلين بأنهم مستعدون للخضوع والطاعة وأنهم لا يرفضون لأمؤونة الخزن ولا ضرائبه، وأنهم مستعدون لأن يستضيف كل واحد منهم 10 إلى 20

جنديا من الوحدة. وهكذا احتفلوا برجال الوحدة، الذين لم يسبق لهم أن كانوا في الجبل في جو عائلي. وذكر الخمار المستشار بدور الضيافة من الجانب الديني وبأنها شيء محبوب في سائر بلاد الاسلام. وبعد ذلك جاء الناس لمرافقة ضيوفهم الى المنازل، ولم يبق في المعسكر سوى حرس رمزي مع مولاي سرور وأحمد الخمار. وعند غروب الشمس سمعنا طلقات نارية، ثم خرج أحمد في هذه الأثناء من خيمة الشريف للوضوء. ولم تكن تلك الطلقات في الواقع الى مؤشرا على بداية المذبحة، حيث كانت تقطع أعناق الضيوف المجردين من الأسلحة التي تركوها عن حسن نية، خارج المنازل. وبعد مرور دقائق عن سماع هذه الطلقات لم يبق أي شيء من الأفواج المخزنية فرجع أحمد الخمار إلى الخيمة بعد أن سمع ضجيج مواجهة الجنود لآيت سخمان الذين قتلوا الحراس، وتفاوضوا فيما بينهم في الحصول على رأس الشريف. الذي فر به بسرعة مرعوبا ليلا ليوصل خبر المصيبة الكبرى إلى معسكر خنيفرة.

وبعث على الفور عدة «مخازنية» لإعلام السلطان الذي كان موجودا في حركة ببلاد بني مكلید. وكان موحى أحمو قد جهز 3000 فارس، وتحرك دون أن ينتظر السلطان، في اتجاه تلك المناطق لكن بمجرد وصوله إلى عين المكان، أدرك أنه لم يعد هناك أي شيء يمكن القيام به، فلم يبق هناك أي أحد على قيد الحياة، ثم إن قبائل آيت سخمان كانت قد تفرقت كما تفرق الغربان بعد نهشها جثة ما. وكتب الزياني الذي كان رجل الأمور بهذه الطريقة ومسؤولية هذه المأساة يتحملها السلطان نفسه الذي أرسل هذه الفرقة، رغم معارضة الزياني، عند هاؤلاء، الثعالب المتوحشين والذين يعرفهم جيدا. وبالتالي لم يكن عليه مسهم. وبالفعل، انطلق موحى أحمو الى آيت يعقوب أعيسى إحدى فخذات آيت سخمان، فنهبهم وأخذ منهم الأسرى. وكان السلطان الذي طالما عانى من ندالة وجبن آيت سخمان قد بعث قسما من الحملة لتقوية الزياني أيام، لينطلق إلى فاس حيث سيعدم الأسرى ويعلق رؤوسهم المقطوعة على باب محروق.

آخر المحلات

(وفاة مولاي الحسن 6 يونيو 1894)

كان السلطان قد أقام مدة طويلة بفاس. حيث ظل منشغلا بترميم جيشه، وضم الوحدات وتجهيز أسلحته ومؤنه. وطلب البنادق من أوروبا لأن المكتبة لم تعد تستطيع صنع سوى خمس بنادق في اليوم.

وكان قد بعث حركة إلى تادلة ضد آيت أربيع، وإلى الحوز. لكن السلطان لازال لم ينس آيت سخمان، وقرر القيام بعملية كبيرة ضدهم. فكلف وزير الحرب سي محمد الصغير، وكبير مدربي المدفعية مولاي أحمد الصوري مع أفواج الكيش ووحدات قبائل تادلة. وتردد في البداية على آيت مراح، جيران آيت سخمان، الذين كانوا يحاربون ضمن الصفوف المخزنية، ثم جروا معهم قسما من وحدات تادلة. بينما كان آيت سخمان الذين هبوا هذه المسرحية يهاجمون، فانهمزمت المحلة وعنف من جديد وتركت عدة قتلى وجرحى لتراجع وتدخل فاس دون أن تستطيع إخضاع هاؤلاء الجن أهالي الجبال (1892).

وشرح مولاي الحسن الغاضب عنهم أنه سيسحقهم فورا. لكن عليه الآن الذهاب إلى تافيلالت موطن أجداده وسلالته. فأعاد تنظيم محلته حيث وصل عدد أفرادها 15000 رجل، مسلحين ومجهزين بكل شيء. وعندما اجتمع الكل على قنطرة سبو اتجه السلطان والمخزن نحو الجنوب عبر صفرو ثم تاغزوت كيكو ثم انجيل آيت يوسي، ثم قصبة المخزن على واد ملوية ثم تيزي نتالغمت ثم زاوية وكيلة ثم واد زيز ثم قصر السوق ثم بوعام ثم قصبة مولاي رشيد خليفة تافيلالت، لقد جاء السلطان لزيارة قبر جده الأكبر علي الشريف⁽⁶⁾. وبعد مرور عدة أيام التحق به ابنه الأكبر مولاي امحمد خليفة مراكش مع وحدات الجنوب التي انطلقت معه كلاوة ودادس وإمطر وتودغة.

وقد كان هذا السفر ناجحا، حيث أظهر مدى ولاء الناس للسلطان في هذه المناطق النائية، التي لم نر منها أي تمرد. وهكذا خصصت كل قبائل الجهة استقبالا كبيرا للسلطان. كما عززت المحلة بمحاربهم آيت إينغلان وآيت عطا وآيت موغراد وآيت قباش، وآيت إزدك. لقد كانت هذه الزيارة فعلا سلسلة من الأفراح.

وخلال الرجوع، اجتمعت المملكتان لترجع عبر الطريق التي جاء منها مولاي امحمد، لكن كان الفصل شتاء (نوفمبر 1893) وكان البرد قارسا، حتى إن بعض المشاة قد انغرست أقدامهم في أوحال بلاد كلاوة.

ومباشرة بعد الوصول إلى مراكش نزع مولاي الحسن من مولاي امحمد منصبه، ومهام الخليفة وموظفيه، وحيوله وعبيده مؤاخذا إياه عن أخطاء جسيمة في تسيير العمليات الحربية وفتور في القيام بالشعائر الدينية. وأعطاه دار مولاي الزين إقامة له، وعين له فقيها يعنى بشؤونه. وقد كان الابن الأصغر مولاي عبد العزيز محط اهتمام وعناية كبيرين، لكنه لازال طفلا لا يستطيع ممارسة مهام الخليفة. وتم تعيين أخيه مولاي عثمان خليفة على مراكش من جديد.

وخلال هذه الفترة (دجنبر 1895) كان قد وصل سفير إسباني إلى مراكش⁽⁷⁾ : فقد كانت هناك مواجهات في مليلية بين الإسبان وأهل الريف عندما كان السلطان في تافيلالت إذ كان أهل الريف منزعين من بنايات النصارى قرب أضرحة أوليائهم حيث كانوا يهدمونها ويعيدون بناءها مدعين السلطان أعطاهم الحق في التصرف في هذه الأراضي.

وكان السلطان قد وافق على دفع أربعة ملايين درو من أجل الحصول على سلام مع الإسبان لكنهم طلبوا بالمقابل ستة. وقد كان يحس أنه ليس من القوة ما يستطيع بها مواجهة الإسبان. وهكذا مر فصل الشتاء بمراكش عانى فيه السلطان من المرض عدة مرات.

ومعجىء الربيع كئنا نهيء للرجوع المعتاد نحو فاس. لكن السلطان الذي لم ينس آيت سخمان كان قد عزم على مواجهتهم. فنظم حركتان الأولى سارت عبر الطريق المعتادة بقيادة ابنه مولاي عبد العزيز. ووصلت الثانية إلى تادلة بقيادته.

ها هو الأمير الصغير يتحرك مع حركته (17 ماي 1894)، إنه شاب وسيم (13 سنة) فوق جواد هاديء، وتحت مضلة كسلطان. وبالقرب منه كان يوجد سي محمد الأمrani النابغة المكلف بتربيته، وزوج أخت مولاي الحسن، وقائد المشور بلقاسم احليلي، وأيضا وزيره الأكبر سي العربي المنيعي (الذي كان مثقفا، وعالما متشرعاً مات بعد مدة بطنجة مختنقا بغازات الفحم الخشبي). إنه بالفعل قصر صغير يتحرك مع هذا الطفل. وقد كان الناس يتزاحمون خلف أبواب المدن لرؤية الموكب، حتى إنه كان يقال إن هذا الأمير الصغير يشبه مولاي الحسن في كل شيء، وأنه سيكون دوره لامعا (كما يعوض الربيع فصل الشتاء) حاملا في يديه الصغيرتين الأزهار والرفاهية للعرش.

وقبل الانطلاق كان أباه قد ألبسه بدلة عسكرية لا يستطيع خلعهها. ورافقه المخزن طويلا في البادية ولم يغادره إلا كرها. وقد كان على مولاي عبد العزيز أن يصل الى الرباط دون توقفات حيث سيقم بعض الأيام في انتظار أبيه.

وبعد انصرام مدة عن هذه الإنطلاقة التي أحزنت الجميع ترأس مولاي الحسن رغم مرضه وبعد مغادرته مراكش (22 ماي 1894). حركة أخرى صحبة كل خدم قصره. فقد كان يريد أن ينكل في طريقه بآيت سخمان، قتلة مولاي سرور. وهكذا انطلقنا عبر زاوية بن ساسي، وتاملت الحديد حيث زار السلطان ضريح سيدي رحال، ولگناتر (بالسراغنة) وواد تاساوت وجمعة نيفة وطابيا على واد العبيد، ودار ولد زيدوح على ضفاف أم ربيع. واشتد المرض على مولاي الحسن⁽⁸⁾ بالوصول إلى هذه المنطقة. فبعد صلاة الصبح كان السلطان يجد صعوبة بالغة في الدخول إلى خيمته. وهكذا فرشت الزرابي والأفرشة بسرعة حتى يتمكن من الإستراحة أكثر. وقد كان على المحلة أن تبقى تسعة أيام بدار ولد زيدوح دون تحرك.

وسارع الحاجب سي احمد بن موسى المعروف أكثر باسم باحماد ليقول له :

___ ماذا هناك سيدي؟ آه إنك متعب فعلا ولن تستطيع إتمام الحركة، فمن الأفضل أن نرجع إلى مراكش، وأن يكلف محمد الصغير بإتمام العمليات التي خططت لها، فقال السلطان :

___ مزيان « كنت أظنك رجلا خدوما، لكن تبين لي أنني كنت مخطئا، كيف؟ فإذا كان جدي سيدي محمد بن عبد الله دفين الرباط رحمه الله قد توفي بتأدلة، تريد أن يرجع حفيده الأصغر إلى مراكش. فلا بد أن أذهب إلى الرباط ولن أرجع إلى مراكش ولو كلفني ذلك حياتي. فلن نغير شيئا من قدر الله.

وبعد أن استرجع نفسه بصعوبة، قبض صدره لأن جانبه كان يتمزق ألما وقال بصوت منخفض :

___ آه ! مولاي عبد العزيز !

فصرخ باحماد مدعورا :

___ مابك سيدي.

___ إنني أحس بألم شديد، وأحب أن يكون مولاي عبد العزيز بجاني في هذه اللحظة بدل أن ينتظرنني في الرباط.

فقال له باحماد :

___ فما يخيفك سيدنا؟

___ لا أخاف شيئا، لكن قد أموت بين الفينة والأخرى، ولا أعلم هل سأصبح غدا أم

لا؟

وعند سماعه هذه الكلمات، بكى باحمام، وانحنى على رجلي مولاي الحسن فقبل قدميه وقال له :

__ الله يحفظ سيدنا !وأذهب الله عنك الألم الذي تعاني منه . ودعواتي لك بالصحة وطول العمر.

ثم ساد الصمت مدة طويلة كان فيها السلطان يعاني من آلامه، ثم قال :

__ ماذا تريد أبا حماد المسكين؟ فلا أستطيع فعل أي شيء لأننا ولا أنت.

فقال الحاجب :

__ إذا كانت الأعمار بيد الله سبحانه وتعالى فإننا نتمنى من الله عز وجل أن يؤخرها بعض الشيء وإذا كان مولانا السلطان يرغب في أن يصبح مولاي عبد العزيز سلطانا مكانه فهذا أمر سهل . فكل شيء جاهز.

__ ماذا؟ كل شيء جاهز؟ هل تمزح؟ فإذا وليت وجهي من يضمن لي بأن العمل سينجز ويطبق، خاصة أنه لن تعود لي عينان أراه بهما من يمارس الحكم؟

__ فلا يقلق سيدنا، سيمر كل شيء بخير.

ما عليه سوى أخذ ورق، ليكتب ما يريد أن يحصل . وستكون أوامره وتعليماته محط طاعتنا وستطبق كما هو الشأن في حياته . ومادام السلطان يريد ذلك (تولية مولاي عبد العزيز) من قبله فالله ينصر مولاي عبد العزيز لديننا وديننا.

وبعد كتابة هذه الكلمات، أعطى أوامره بتطبيق ماجاء في الوثيقة، وأقر صحتها. وأضاف أنه يجب أن تؤخذ بعين الإحترام والتطبيق بعد وفاته.

ثم أخذ الحاجب الوثيقة وقال :

__ حفظ الله صحتكم !إسمحو لي بالخروج سيدنا.

وخرج من الفراك، وأرسل في طلب كل الوزراء الذين التحقوا بخيمته . فتحلقوا حوله . فكان هناك : الوزير الأول الحاج المعطي الجامعي، وأخوه سيدي محمد الصغير وزير الحرب، ووزير المالية موحى التازي الرياطي، ووزير الشؤون الخارجية (وزير البحر) سي فضول غرنيط ووزير الشكايات سي علال المسفيوي، وأمين الحسابات أو كاتب الحسابات العربي الزبدي، وقائد الجيش الكبير للمحلة باحماد الشركي.

ثم توجه إلى المسفيوي بعد أن أظهر له الوثيقة -الوصية وقال له :

— هذه أوامر سيدنا ويجب أن تطبق حرفيا. عندما يحين الوقت : فكن على علم بهذا، ووقع بعد ذلك.

فاندهش الوزير عندما قرأ هذه التدابير الوصائية، ورفع رأسه ناظرا لباقي المترقبين وقال :

— يجب التوقيع. إنه بالفعل خط السلطان.

ثم أعطى الوثيقة إلى الحاج المعطي بعد أن أطلع عليها ووقعها، ثم إلى محمد الصغير. لكن في الوقت الذي كانت تتجه فيه الوثيقة نحو العربي الزبيدي، انتزعها باحماد، حتى لا يستطيع الزبيدي ومن معه ممن كانوا معارضين له قراءتها. والتفت نحو سي علال المسفيوي وقال له :

— ماذا ترون في كلام سيدنا؟

— ليس لدينا مانقول. إنها أوامر السلطان، واضحة وبخط يده. وليس علينا سوى العمل على تطبيقها في الوقت الذي يختاره الله سبحانه وتعالى.

فوقع باقي من لم يوقع، باستثناء العربي الزبيدي والآخرين الذين أدركوا أن الأمر يتعلق بخلافة في الملك. لكنهم سكتوا خوفا من باحماد القوي.

ثم نهض هذا الأخير تاركا الوزراء. ورجع إلى السلطان الذي كان يتلوى ألما فوق إحدى الزرابي.

ودون أن يقول أي شيء، بسط باحماد أمام السلطان الوثيقة التي قلت لك بعد أن وقعها الوزراء. فقال له مولاي الحسن :

— الله يرضي عليك اباحماد !

ثم رجع هذا الأخير إلى الوزراء وقال لهم :

— هذه أوامر وتعليمات سيدنا، فأنا أرتضيها وأدافع عليها بكل حماس وغيره وسأحتفظ عليها دائما.

ثم تفرق الوزراء.

كانت الساعة الرابعة مساء تقريبا، حينما حاول السلطان الخروج لصلاة العصر - خيمة المسجد توجد في الخارج قرب الفراك - لكن بعد خطوات قليلة، لأنه كان يتحرك بصعوبة للوصول إلى الخيمة، سقط السلطان مغمى عليه، نصفه فوق الزربية والنصف الآخر على الأفرشة، فأقيم وصب على وجهه الماء البارد. وطلب الفقيه الحاج الهاشمي

الركراكي الذي كان عالما كبيرا وشيخا مسنا يبلغ من العمر 100 سنة. فتقدم منحني الظهر والشيب يغطي وجهه. ثم جلس بالقرب من السلطان يحدثه بهدوء ليستجلب ويصبر. ناصحا إياه باستقدام القائد ماكلاين الموجود في الحركة مع طابور الحراية. لأنه كان يحمل معه دائما حقيبة فيها أدوية أنجليزية. لكن عندما استشير مالك لاين رفض إعطاء أي دواء إلا بعد فحص السلطان. فقال له باحماد :

— لا يمكنك رؤيته لأنه متعب جدا. فأعطه فقط دواء من أجل إعطائه قوة أكثر. فأجابه ماكلاين :

— يجب رؤية المريض أولا قبل إعطائه أي علاج، فلا نستطيع إعطاء دواء للكبد إذا كانت الكلي هي المريضة، أو مسحوقا للمعدة إذا كانت الرئتين هما المصابتان. فقاطعه الحاجب بسرعة ونبرة أكثر حدة.

فقال الأنجليزي :

— إذهب اقل ماشئت لن أعطي أي شيء. فالأمر يتعلق بسلطان. فلو أنني أعطيت أي دواء وتوفي في بعد ذلك، وهذا أمر قد يحدث في أي لحظة. سأتهم بأني كنت السبب في موته ثم ولى ذاهبا.

مر الوقت، حل الليل.

كانت الساعة التاسعة مساء. حينما لاحظت أمة سوداء كانت ساهرة بالخيمة، أن تنفس مولاي الحسن قد توقف. فشرعت في الصراخ. لكن باحماد الذي لم يكن بعيدا منها، سارع إليها وأسكتها، ثم دخل إلى حريم السلطان حيث وجدته قد استيقظ وشرعن ييكين، لأن منهن من سمع صراخ تلك الأمة التي يعرفن أنها كانت في الخيمة.

— اصمتن جميعكن. كفى، فأني أمنعكن من الصراخ، واعلمن جيدا أننا في بلاد عدو. فإذا سمعت القبائل صراخكن وأن السلطان قد مات. فإننا سنؤكل. وستصبحن إما مسيات مغتصبات أو مقتولات أو إماء. فاهدئن إذن وكفكن دموعكن. ثم إني إذا سمعت صارخة منكن، فسأقطع لسانها بالمقص. . . ولا تسين شيئا : فإذا توفي السلطان فقد مات قبله كثيرون في انتظارنا ساعة لقاء الله جميعا، واعلمن أيضا أن للسلطان أبناء كثيرين مستعدون للحلول محله. والآن الصمت. والسلام.

ثم خرج وطلب قائد (مولين الفراش) المكلفين ببذل وألبسة السلطان وقال له :

— أحضر الآن، وبسرعة بدلة صوفية كاملة سيدنا فقد تصيب منه عرق كثير.

فأحضرت البدلة وأدخلها القائد وسأل باحماد :

— هل تليق بسيدنا؟

فأجابه :

— نعم. إنها مناسبة للعرق.

وقد كان مولاي الحسن يكرر مرات عدة، في حياته، أنه يرغب، إذا مات، أن يغسله سي ابراهيم الضرير، الذي كان فقيها أعمى موظفا في مدرسة الشرفاء. فأحضر هذا وغسل الجسم بصب الماء الساخن في الخيمة - الحمام، دون أن يفصح له عن اسم هذا الميت الذي بين يديه. ثم ألبس السلطان - بعد ذلك، ثيابه التي جاء بها قائد موالين الفراش.

وعند الانتهاء، من كل هذه التدابير، استدعى باحماد كل الوزراء حدثك عنهم قبل قليل وقائد المشور إدريس بن العالم⁽⁹⁾ واستغربوا من هذا الاجتماع الطارئ، والإستفاقة في مثل هذا الوقت من الليل. وقالوا :

كيف حال السلطان؟

فقال باحماد :

— إنه بخير، لقد استرجع قواه البارحة وفتح عيناه. وقد جمعتكم لأخبركم بأمر صادر عنه. فاجلسوا الآن. لدي بعض ما أقول لقائد المشور.

فخرج مع ادريس بن العالم واتفق معه. ثم رجعا إلى الاجتماع. وقال لهم باحماد بعد أن ناداهم كل باسمه :

— أنتم جميعا من ناديت عليكم. حفظكم الله ورضي عنكم أتوجه بالخطاب وبصفة خاصة الى سي علال المسفيوي، أكبرنا سنا وأكثرنا نصحا لأقول لكم إذا نحن كلنا متضامين والمخزن معكم أيضا. فإني سأقول لكم لا أريد أن أكتمه عليكم مدة أطول : لقد وافت منية الله سبحانه وتعالى سيدنا مولاي الحسن حشره الله مع الصالحين وطيب تراه.

فاندھش كل الوزراء. وقالوا :

— آه. إن لله وإنا إليه راجعون. كل شيء هالك إلا وجهه. لقد كان سيدنا مريضا جدا للقيام بهذه الحملة إلى غير ذلك مما يقال في مثل هذه المناسبات.

لكن باحماد قاطعهم وقال :

— الآن لما علمتم، اسكتوا. واستمعوا لي جيدا. فكلنا إخوة، على حد قولكم قبل قليل وكلنا أصابع يد واحدة. خاصة في الظروف غير المنتظرة مثل هذه التي نمر بها الآن.

فتحن جميعا في بلاد عدو. واعتقد أنه عليكم التزام الصمت بخصوص ما قلته لكم قبل قليل. فهدفنا الأكبر هو عدم انتشار الخبر. ولا ننسى أيضا أن أرواح رجال المحلة أمانة في أعناقنا. وإذا أفضيتم نبأ وفاة مولاي الحسن، ووصل إلى القبائل المتمردة فإنها ستهجم علينا وتسحقنا وتنهينا بعد أن تحاصرنا من كل الجهات. وحتما، ستؤكل المحلة. لهذا يجب التزام السكوت الحذر إلى حين وصولنا إلى بلد صديق.

فقال سي علال المسفيوي :

___ هذا هو عين العقل.

وقال باحماد :

___ إذن، ماذا تودون فعله؟ وأي طريق يمكن تسلكها المحلة.

فقال سي محمد الصغير والعربي الزبيدي والآخرين من معارضي الحاجب :

___ علينا أن نرجع إلى مراکش، التي ليست سوى على بعد مراحل. فنجمع الأعيان ونعلن مولاي احمد سلطان جديدا.

ولم يعودوا يفكرون في وثيقة باحماد التي وقعها كثير منهم. وظنوا أن الأمر لا يتعلق سوى بإجراء شكلي بسيط لم يكن الغرض منه سوى إرضاء رغبات إنسان في آخر لحظات حياته.

فتغيرت ملامح وجه الحاجب وقال :

___ هذه ليست وجهة نظري، فلا شيء يستعجلنا على إعلان سلطان جديد. وللسلطان والحمد لله عدة أبناء، يمكننا أن نختار منهم. أما إذا رجعنا إلى مراکش، فإننا متيقنون أننا سنهاجم وننهب، لأننا لم نر قط المحلة ترجع إلى مكان ما من نصف الطريق ثم إن الطريق الذي جئنا منه حتى وصلنا إلى هنا ليس آمنا كثيرا. فما علينا فعله هو مايلي :

___ سنرفع المعسكر صباحا، حيث سنعبر أم الربيع عبر خميس بني عمير، ثم نمر إلى بني مسكين، ومن هنا نستطيع عبور الواد من جديد إلى مشرع بن خلو والوصول إلى مراکش عبر الرحامنة. وبهذه الطريقة نكون قد أخذنا طريقا جديدة، ولن يهاجمنا أي أحد لكن لنحتفظ بالسرا حتى نصل إلى قبيلة صديقة، فما قلته لكم سر لا يعلمه أحد سواكم.

فقال الباقي :

___ جيد ! ما قلته معقول. وسنلتزم بموافقتنا.

فأعطيت الأوامر إلى مختلف القواد من أجل رفع المعسكر منذ الفجر.

وقد كان عبور الواد بطيئاً. وعملت وحدات تاذلة على تأمين الطريق حتى لا تهاجم المحلة من الخلف. فهدمت كل الخيام تلو الأخرى. وعندما أنزل الفراك كنا نرى محل السلطان بين بغلتين، ورغم الستار المسدول أماما، فإن مولاي الحسن يظهر جالسا بالداخل.

فانحنى القبائل كالعادة :

— الله يبارك في عمر سيدي.

ثم سارع باحماد وبعض العبيد للانحناء أمام المحمل. وكان يدخل إلى الداخل باحترام ثم يرجع لينادي على هذا أو ذاك. منحنيأ أمام السلطان باحترام وقال :

— نعم أسيدي !

ثم أعطى الأوامر إلى من بالخارج.

— الحاج مسعود إن سيدنا يأمر بأن تتحرك في الجانب الأيمن للمحلة، وبكذا. . . وكذا وطيلة حياة مولاي الحسن فإنه لم يعط قط أوامر ! إنها فعلا مخزنية حقيقية هاته التي يمارسها باحماد أمام نعش السلطان⁽¹⁰⁾

— أما أنت الحاج محمد ولد بن داود فقد عينك سيدنا في الحراسة الأمامية. حيث ستزل المعسكر بالبروج، لأن السلطان يود تنظيم صوكة ضد القوضوين بقراقرة بني مسكين. ويأمر بأن تكون مستعدا لكل طارئ، وانتظار الأوامر بالبروج.

ثم حضر كل الناس المدعوين وبقوا على بعد مسافة متبعين أوامر القيادة. وانحنوا أمام المحمل ثم رجعوا إلى مراكزهم. وكانت كل القبائل التي تمر منها المحلة تأتي لتسكني أمام السلطان وتبارك قدومه. ولم يبق على هذه. الضفة من الواد سوى البخاريين وقبائل المخزن، في وقت كان فيها عبدان بالمحمل على البغلتين. وكان السلطان يرى من بعيد جالسا من الجهة التي ليس فيها ستار.

وعبرنا الواد ببطء كما هي العادة إذا كان هناك مريضا، لكن كادت البغلة الأمامية أن تسقط وسط الماء لولا أن استرجعت توازنها بسرعة. وفي هذه اللحظة بالذات، علم العبيد الذين كانوا جوار المحمل، وهم يرون جسم السلطان ينزلق أماما، أن السلطان قد مات. لكنهم تابعوا الطريق في هدوء.

وكان باحماد الذي يوجد في الجهة الأخرى ويتبع المحمل قد سارع إلى إعادة التوازن إلى جسم مولاي الحسن. لأننا كنا نراه يفتح البوابة وينحني من جديد ويقول :

— نعم أسيدي !

ثم التفت إلى باقي من يمر أمامه وصاح :

... إن السلطان يطلب مول الماء. إنه يريد أن يشرب.

فسارع «مول الماء» ليصب الماء من البرادة في الكاس ليعطيها للحاجب الذي مدها بدوره إلى السلطان بالداخل. وبعد مدة أرجعها فارغة، وعلى طول الطريق إلى البروج كان القواد العسكريون وقواد القبائل يترددون، بعد الإستدعاء، على محمل السلطان لسماع الأوامر والتعليمات وإيصال المستجدات إلى السلطان. وقد كان باحماد «المضحك» هو من يقوم بهذه المحادثات حتى الوصول إلى البروج.

وأخيرا، وصلنا. فدخل السلطان إلى الفراك راكبا دائما كما علمت قبل وصوله. لكن ماكاد ليستقر في مكانه حتى نودي على كل القواد، ورؤساء العسكر للإجتماع في خيمة المسجد المبنية، كالمعتاد قريبا من باب لفراك.

وكان باحماد موجودا مع الوزراء حيث قال متوجها بالخطاب إلى إدريس بن العالم والقواد :

... اسمعوني جيدا. وأنتم كلكم قواد.

... ماهو المخزن؟ إنها خيمة كبيرة شبيهة بهاته، فمن أجل بنائها وتدعيمها ضد العواصف والرياح فلا بد لها من دعائم. وإن العمود المحوري وصارية الخيمة التي ترفعها هو السلطان. ومختلف الأوتاد التي تحيط بها وتشد جوانبها حتى لا تقلعها الرياح هم القواد. أي أنتم، وبهذا تلاحظون مدى أهميتكم في الحفاظ على هذا الصرح. وقد استفدتمكم لأذكركم بهذا الدور، قبل أن أخبركم أن سيدنا مولاي الحسن قد مات. وأن سيدنا ومولانا الآن والذي يجب أن يعلن سلطانا هو مولاي عبد العزيز تبعا للإرادة الأبوية والتي وقعها هنا كل الوزراء.

الله ينصر سيدنا ومولانا عبد العزيز بن سيدنا مولاي الحسن ».

ثم أظهر الوثيقة التي حدثتك عنها أعلاه.

وعقب هذه الكلمات، اختلفت وجهات نظر المجتمعين. حيث رأى بعضهم أن الخليفة لازال صغيرا بعض الشيء. لكن خضعوا لرغبة المرحوم المكتوبة. فنودي على البراح الذي طاف في أنحاء المحلة معلنا وفاة مولاي الحسن وتولية مولاي عبد العزيز. هذا في وقت كانت فيه المدفعية تطلق خمسين طلقة تكريما للسلطان المرحوم. واحتفالا بالسلطان الجديد.

ثم حملت جثة السلطان إلى الخيمة. الحمام من جديد، وغيرت ثيابها كما لو كانت ستواري التراب، ثم إن هذا المكان الذي غسل فيه السلطان للمرة الثانية أصبح مكانا مقدسا قرب البروج.

وعندما انتهت كل تدابير الدفن هذه. جيء إلى الخيمة - المسجد بكتاب صحيح البخاري للمقسم بالوفاء للسلطان الجديد، وعلى طول الطريق كان يحمل هذا الكتاب « الشريف » على حصان خاص قرب الشريف. وكان يحمل في محطات الإستراحة إلى خيمة السلطان الخاصة لتربية أبنائه.

ولم تمر هذه المراسيم دون مشاكل سببها بعض الوزراء من معارضي باحماد. وبصفة خاصة سي العربي الزبدي وسي محمد الصغير اللذان قالاً بأن مولاي عبد العزيز لا يزال صغيراً جداً، وأن السلطان الفعلي سيكون هو باحماد. وأنه يجب استشارة « العلماء » في الأمر وأنهم مستعدون للإمتثال إلى أحكامهم. لكن أخبرهم إدريس بن العالم أنهم لا يلوموا إلا أنفسهم إذا رفضوا الوضع الجديد. ولن يحصلوا على أي شيء خاصة أن باحماد له نفوذ قوي، وماكر وعلى علم بكل أسرار السياسة. وأنه يملك وثيقة كتبها مولاي الحسن قبل وفاته ووقعها كل الوزراء تقريباً. أو ليس كل هذا كافياً لترك الأمور تسير بشكل عادي، وأنه ألا يمكن تأخير هذا التدخل حتى نصل إلى مراكش، في حين أقسم الكل جماعات وأفراداً ووزراء وكتابهم وقواد الرحي والخلفاء وقواد المائة وكل مكلف بالقيادة على المصحف الشريف. ووعدوا بعد أن علموا بتولية سيدنا مولاي عبد العزيز، باحترام الوصية المقررة. وبأن يبقى كل واحد منهم في مركزه وأن لا يتجاوز مهامه ويحترموا حق جيرانهم.

وتم بعد ذلك تحرير رسالة (حملها عدة مخازنية) إلى مولاي عبد العزيز يخبر بأن أباه المحبوب قد لبى نداء ربه، وبأن كل أعيان المخزن وقواد الجيش قد أعلنوا ابنه المحبوب مولاي عبد العزيز سلطاناً للبلاد، وفقاً لرغبة المرحوم مولاي الحسن. وبأنهم يتقدمون جميعاً التحايا والتبريكات.

ثم غادرت المحلة البروج. لكن بدل الرجوع إلى مراكش كما كان مقرراً فإنها انجرفت نحو الشاوية، وأصبح الآن من الضروري، كما قال باحماد الذكي، حمل نعش مولاي الحسن، في أقرب وقت إلى القصر الملكي بالرباط. لأنه كان يرغب أن يدفن إلى جوار جده سيدي محمد بن عبد الله. وكان مولاي امحمد ولي العهد الأصلي الذي كان شخصية مثقفة قد بقي مع أصدقائه الكثيرين بمراكش. ووصلت المحلة إلى قصبة ابن أحمد رغم بعض اضطرابات أفراد من قصبة مولاي الطاهر. ثم وصلت بعد ذلك إلى دار القائد المعطي وأخيراً إلى بوزنيقة. لقد كان الفصل صيفاً (أواسط يونيو)، وأصبح نعش مولاي الحسن مهدداً بالتعفن من جراء مراحل الرحلة المتعبة وهكذا وصلنا بسرعة إلى أكادال في أواسط دار المخزن حيث فتح باب خاص لإدخال النعش. وكما تعلم فقد جرت العادة أن لا تدخل جنازة الميت من نفس الباب الذي يدخل منه الأحياء فجرت مراسيم التعازي العادية ودفن مولاي الحسن في قبة القصر بجوار سيدي محمد بن عبد الله.

وكان السلطان الجديد قد وصل عبر طريق بوزنيقة، محروسا بمن رافقوه من مراكش. فاستقبله جميع الوزراء بآيات الولاء والإحترام الكبير والتقبيل على الكتف. وكان بعض الحضور قد قفز ليمتدح من السلطان الجديد، لكن باحماذ الحسود كان يعمل أساسا على فرض تأثيره في الأحداث، والبحث عن الحفاظ على الطفل الصغير الذي لولاه لما أصبح سلطانا ثم تنحية الجماعات المتملقة فأخذ مولاي عبد العزيز إلى جواره وأعطى الإشارة بالإنطلاق نحو الرباط.

وقد كان الجنود معسكرين في أكادال الكبير، في حين كانت وحدات القبائل تتجمع خارج المدينة من شالة إلى باب القبيبات.

وبعد أن حضي السلطان الجديد بآخر التشريفات ن كتب إلى أهم مدن المملكة لإخبارهم بالوضعية الجديدة. معلنا إلى كل الخدام المرضيين والموظفين والقواد والشرفاء وفاة مولاي الحسن. وتولية العرش طالبا من مدينة... أن تبعت بيعتها إلى شخصيته الشريفة.

وقرئت هذه الرسائل في المساجد فجاءت الأصداء، حيث اعترفت كل المدن مكناس وفاس ومراكش وطنجة بمولاي عبد العزيز الذي عينه مولاي الحسن وسلم له البركة، سلطانا.

فسارع باحماد الذي كان يعمل منذ البداية الى أن يصبح شخصية رئيسية، إلى تنصيب نفسه وزيرا أولا. وكان أول مقام به هو سجنه لكل معارضيه في مكناس. أما هؤلاء الذين يزاحمون في المكانة أي الحاج المعطي، وسي محمد الصغير والعربي الزيدي، فقد أرسل بعضهم إلى تطوان المعطي والصغير (والإثنان من عائلة الجامعي) أما العربي الزيدي فأرسله إلى أسفي.

وكان سجن هذا الأخير محط احتجاجات القنصل الألماني فالزبيدي كان محميا من الألمان لأنه يحافظ على مصالح هذه القوة. لكن الوزير الأول كان قد رد على طلبات القنصل بما يلي :

— إذا تماديت في احتجاجاتك، فسأكون مجبرا على شواء العربي الزبيدي في السفود.

لهذا أرجوك أن تترك هذا الموضوع جانبا، لأنك تتعلق بموضوع لن تجني منه كبير ربح لأنك أو غيرك. ومن الأحسن أن يبقى حيث هو الآن.

وهكذا تمت الأحداث وركز باحماد إخوته جواره في المخزن، حيث أصبح سي سعيد وزير للحرب، وسي ادريس حاجبا للقصر. وهكذا عوضت عائلة باحماد عائلة الجامعي في المخزن.

الهوامش

- 1- باقتراح من السيد John Hay الوزير الأنجليز بطنجة.
 - 2- جباله : الذين يسكنون الجبل، وتعني الكلمة هنا القبائل الريفية وزان (شرق) والشاون ونطوان.
 - 3- بني موسى وبني عمير
 - 4- لم تكن هناك أي مواجهات مع زيان. فقد جاء موحى أحموا (من أهل آيت حركات) فقط إلى أبي الجعد حيث يوجد مولاي الحسن. ليطلب تولية بعد تدخل الشريف سيدي ابن داود الشرقاوي. وكانت الأفواج المخزنية لزيان تحت قيادة قائد الرحي الزروكاطي.
 - 5- نشر هنا أن التاريخ الرسمي لإزدياد مولاي عبد العزيز هو 1880. مما يتعارض مع رواية الحاج سالم العبيدي عن أول حملة لسوس 1882، وكذلك مع معطيات الدكتور Weisgerber الذي يحدد في 24 فبراير 1878. كما أثبتته في كتابه :
Trois mois de Campagne au Maroc Le roux. Editeur Au Seuil du Maroc Moderne. p.bo. Ed : La porte. Rabat:
ومن المؤكد أن مولاي عبد العزيز قد ازداد بمكناس سنة 1298هـ / 1881م. أربعين يوما قبل مولاي يوسف.
 - 6- لقد كانت رحلة السلطان إلى تافيلالت في الواقع استجابة للحد من تلك التخوفات التي أحدثها زحف الفرنسيين نحو الواحات الصحراوية. وقد كان الإطلاق يوم 25 يونيو 1893. وقد رافق السلطان في هذه الرحلة الدكتور : Linares طبيب البعثة الفرنسية، وللمزيد من التفاصيل حول هذه الرحلة أنظر : le Bultin de L'institut d'hygiène du : 1932 Maroc.N° 3et 4 de l'année.
 - 7- يتعلق الأمر بالمرशल Martínez Lampus الذي وصل إلى مراكش في 29 يناير 1894. صحبة بعثة من 30 شخصية (ضباط، دبلوماسيون، رجال الدين) وغادرها في 11 مارس 1894.
 - 8- كان مولاي الحسن يعاني من التهاب الكبد، سيودي بحياته في 6 يونيو 1894.
 - 9- لقد أصبح فجأة أدريس من العالم قائدا للمشور بعد الشيخ الحاج محمد بن يعيش، بمكناس حوالي 1890. وكان خليفته الأول سي أدريس بن يعيش ابن الأول وأب سي محمد ابن يعيش الذي كان قائد مشور السلطان مولاي يوسف. والحاجب « الخالي » لسيدي محمد بن يوسف. وعندما بعث سي أدريس بن يعيش باشا على وجدة سنة 1895، أصبح ابنه خليفة له.
 - 10- لم يكن هذا الترتيب الطريف المخزني في الوقت نفسه الذي قام به الحاجب، جديدا على تاريخ المغرب. ففي 4 و5 غشت 1578 خلال معركة الملوك الثلاث (واد الحازن) كان السلطان عبد الملك ميتا في محمله أثناء الحرب. ومنهم من قال بأنه مات مسموما ومنهم من قال إنه مات مقتولا، وكان حاجبه قد استمر في إعطاء الأوامر والدفاع عن السلطان، دون أن يظهر أن السلطان قد مات. ليحس المخاريين أكثر. وكان يطلب الماء للسلطان كما لو أنه لا زال حيا.
- (Extraits inedit sur le Maghreb p 41) Traduits par E.Fagnan, Alger : 1924 J. Carbonet , édit)

لقد توفي الحاج المعطي الجماعي في سجنه بتطوان سنة 1904. أما أخوه سي محمد الصغير فقد أطلق صراحه سنة 1908 بعد 14 سنة من السجن، شبه أعمى مشوه الرجلين من جراء الأغلال.

(Wagter HARRIS. Le Maroc Disparu. 1929 . Plon. Edit)

أما بخصوص مراسيم تسليم الإمارة إلى مولاي عبد العزيز، فقد كانت هناك عدة روايات. حاولت إحداها أن تبرز الدور الكبير الذي لعبه الوزير الحاج المعطي وأخيه، اللذان كانا يرغبان في البقاء بالقرب من السلطان وأنهما لم يقبلا توليته إلا بعد ضغوطات باحماد. ورواية الحاج سالم العبدوي هي الأصح لأنها تطابق فعلا التأثير المعروف والملموس الذي كان للحاجب على السلطان (لأنه حسب التقاليد المغزنية، يمكن للسلطان أن يوصي بالملك لأحد أبنائه الذي يختاره في وصية سياسية ثم أيضا لانسجام الرواية مع الأحداث التاريخية).

ولاية مولاي عبد العزيز

⁽¹⁾ من 8 يونه إلى 19 غشت 24 نونبر 1908

حصريات

kitabweb-2013.forumsmaroc.com

وبعد إقامة أسبوعين بالرباط توجه السلطان الشاب مع محلته نحو مكناس، التي سجن فيها الوزراء الذين حدثك عنهم اعلاه حيث اقتيدوا منها تحت الحراسة نحو تطوان وآسفي وكان قد عزل في هذه الفترة سي فضول غرنيط الذي كان شيخا قصيرا به شلل نصفي «وثعلبا» عالما⁽²⁾. ثم بقينا في مكناس عشرة أيام، التحقنا بعدها بفاس حيث سيقم السلطان ووزراؤه حتى حدود الشتاء الموالي (شتنبر 1895)

وكان من الطبيعي وحسب العادة، أن يزور الشرفاء وأعيان المدينة ضريح مولاي إدريس، ثم عسكرت المحلة في أماكنها المعتادة. وأتحدث هنا عن الجنود النظاميين لأن جنود وحدات القبائل كانوا قد التحقوا بأهاليهم منذ الوصول إلى فاس. وسأفسر لك لماذا.

كما كانت هناك اضطرابات قبلية أكثر قوة، منذ علمهم بوفاة مولاي الحسن ومعلوم أن هذه الأحداث كانت شيئا طبيعيا عند تولية كل سلطان جديد. حيث يستغلون انشغال المخزن بتنظيم دستوره الجديد ليصفوا حساباتهم مع الجيران، أو ينحوا القواد السفاكين، أو يغيروا على المدينة المجاورة وينهبوها. وقد كانت هذه اضطرابات تتوقف أحيانا بسرعة مخافة أن يقبض عليهم لأنه كانت تبعت محلات لإرجاع الأمر إلى نصابها.

وهكذا دخلت الشاوية في حرب صغيرة بضواحي الدار البيضاء. حيث عوض الباشا سيدي عبد الرحمان بركاش الذي لم يعد قادرا على ضبط الأوضاع : سي احمد بن العربي الذي بعث إليه باحماد بمحلة لتعزيز قواته بقيادة مولاي الأمين عم السلطان والمكلف بالحامية العسكرية.

كما أن قبائل بني حسن قد سحقت بعض قواها وهاجم جباله وبني مسارة وبني مسكيلدة وزان. وقد عمل شريف المدينة الأكبر سيدي محمد الوزاني الذي حمل في محمل إلى المعركة على إجلاء هذه القوات عن المدينة. كما بعثت محلة أخرى إلى ضواحي فاس لإخضاع قبائل هذه الجهة.

لكن الأوضاع بالجنوب كانت أكثر تدهورا، حيث تمردت قبائل دكالة والسراغنة والرحامنة. خاصة هؤلاء الاخيرين الذي لا يعترفون بشرعية السلطان مولاي عبد العزيز

فحملوا لواء لتمرد، وأدخلوا الحوز كله في تمرد وعصيان. وهكذا عم الإضطراب والخوف الطرق المؤدية إلى مراكش. وكان مختلف قواد القبائل المتمردة الذين غادروا المنطقة مع وحداتهم، سواء في محلة مولاي الحسن أو محلة مولاي عبد العزيز قد علموا بمجرد وصولهم إلى فاس أن منازلهم قد نهبت، وأملاكهم قد أتلقت ونساءهم وبناتهم قد أغتصبت.

وقد كان السلطان، أي باحماد، غير مستعد للذهاب إلى مراكش عبر طريق القبائل المتمردة، لهذا قرر البقاء بعض الأشهر إلى أن تهدأ هذه الإضطرابات، وكان قد علم بسبب تمرد الرحامنة : حيث قالوا :

___ لقد ولي علينا مولاي عبد العزيز، لكن في الواقع باحماد هو من يحكم علينا باسمه : إننا نريد سلطانا حقيقيا رجلا قادرا على التفكير وفعلنا. إننا نطالب بتولية مولاي امحمد.

ولما سمع القواد كل هذا الكلام طلبوا من المخزن أن يرجعوا إلى أهاليهم مع وحداتهم، لكن أجابهم بما يلي :

___ لا يجب أن تجهلوا حال قبائل الجنوب في هذه الأثناء، فلن تستطيعوا دخول أراضيهم دون مقاومة. هذا كل ما يمكن أن نقول لكم. فمن يحس منكم أنه قوي ويستطيع أن يتحرك في بلدانهم المتمردة وتسوية الأوضاع فإننا نأذن له وبكل طواعية، بالذهاب أما هؤلاء الذين يعرفون أنهم لا يستطيعون ذلك فإننا نحثهم على البقاء، والانتظار حتى تجتمع محلة السلطان الكبرى. وهذا أمر لن يتأخر كثيرا. ولكن لا أستطيع أن نقول لكم متى سنتطلق. ومن المعلوم أن كل العكس سيقفون مع السلطان، وأنه لن نسرح أحدا من أجل لا شيء.

فدخل القواد إلى خيامهم ليفكر وفي الأمر، فاجتمعوا وقرروا، أمام تقاعس المخزن، أن يجتمعوا ويذهبوا إلى الحوز، وتكوين محلة دون أفواج نظامية، وتولية قائد واحد هو : سي محمد الأمrani.

وهكذا انطلقت كل الوحدات لتتزل نحو مكناس ثم الرباط لتتوقف وترتاح بمولاي بوشعيب قرب أزموور. وقد ساد في طريق المحلة، تفاهم كبيرين القواد. حيث اتفقوا في نقاشاتهم الطويلة في المعسكر على أن يقتلوا كل واحد تعرض بسوء لأحدهم. لكن بالوصول إلى مولاي بوشعيب بقاعدة عسكرية لعملياتهم المستقبلية. برزت عدة اختلافات بينهم، وتناقضت وجهات نظرهم الشخصية حيث كان أحدهم يرغب في الذهاب أولا لإخضاع السراغنة، وقال الآخر ! بأننا نوجد قريبا من عبدة فلنبدا بهم. وكان يعتقد الثالث أن هذا الظرف ملائم جدا للقيام بحملة قوية إلى سوس، في حين قال سالم العربي الذي كان فعلا رجل حرب، مغضبا من تصارع وجهات النظر هذه :

— كفى ! لقد اتضح لي أنه ليست لكم مواقف ثابتة. افعلوا مابدا لكم. أما أنا فسانطلق دون كثرة كلام.

وهكذا اتجه هذا المحارب نحو قبيلته العونات قرب دار القائد التونسي، ثم إلى الرحامنة، كما عبر مشرع بوالعوان حيث اعترض طريقه أهاليه بطلقات نارية لكن لقتلهم دروسا قاسية ثم عاد إلى منزله.

أما الآخرون الذين بقوا في مولاي بوشعيب، فقد أحسوا ببعض الهوان من تقاعسهم وعدم سداد رأيهم. وقرروا عبور الواد واتباع نفس طريق العوني الذي استغلوه حارسا أماميا. (3)

لكن كل القبائل المتمردة كانت في الجهة الأخرى. حيث وصلت متحدة ومتأمرة برجالها وخيولها الكثيرة. فقد كان هناك عبدة ودكالة بل وحتى الشياظمة واتفقوا على مواجهة هذه الحملة بكل الوسائل عبورها الواد خاصة أنه لافضل لهم في قدوم هؤلاء الجنود. لكن كانت هذه الحملة قد امتدت ببهاائمها وبغالها وجمالها الحملة بالخيام ثم رجالها وفرسانها على مسافة أكثر من ثمانية كيلو مترات. وبالتالي كان عليها أن تمر عبر قنطرة أكثر اتساعا. وكان على المتمردين الرئيسيين للمنطقة وأعنى بهم دكالة حراسة وإد أم الربيع. فجهزت كل قواتها الموجودة على الضفاف المقابلة وقالت لحركات القواد :

— ماذا جئتم تفعلوه عندنا؟ إنا لانريد منكم شيئا. فلكم قوادكم معكم، فاتركونا في أمان. إنكم تقولون أنكم تريدون فقط المرور من بلادنا أو ليس معكم بعض دكالة؟

(فللمرور من بلادنا إذن، علينا أن نتيقن جيدا أنه لا يوجد بين صفوفكم أي دكالي. فقد يمكن أن يمر هؤلاء الرجال متحجيين أو متنكرين في زي نساء. فلنا الحق إذن في خلع الخمار من على وجه كل نساء الحملة، لتيقن أنه لا يوجد بين صفوفها أي دكالي)

وعندما سمعت الحملة هذه الشروط الغريبة كان أول من استفزته هذه الشروط وأغضبته، القائد المهدي الصبيري البربوشي (من الرحامنة) :

— ماهذا الكلام؟ هل جئتم؟ أعتقدون أننا كلنا نساء؟

فتوجه إلى أتباعه :

— أعطوني بندقيتي.

فوضع البارود في البندقية وصرخ.

— لعنة الله على والديكم.

ثم قصف في اتجاه العدو. فبدأ صوت الرصاص يدوي على ضفتي الواد. وقد كانت الطلقات النارية للمحلة أكثر قوة وفعالية حتى إن دكالة بدأوا يترآخون أكثر وأصبح من الممكن المرور بكل سهولة.

وعندما وصلت الحركة كلها إلى الضفة الأخرى، كانت الشمس على وشك الغروب. فقررنا أن يعسكروا على مسافة قريبة للتشاور والإتفاق حول الخطة المستقبلية لكن كان القائد المتوكي قد حمل خيامه وتسلسل مع رجاله مغادرا المعسكر. وإسم هذا القائد سيدي عبد المالك الذي لازال قائدا حاليا على متوكة⁽⁴⁾. وقدعينه مولاي عبد العزيز مكان عمه سي حمو. حيث كان المتوكي قد تشاور مع أتباعه وتناصحوا فيما بينهم، وكان قد قال لهم فيما قال :

___ إن لدينا هنا بالمحلة أكثر من 500 فارس و800 رجل من المشاة. ثم إن عدم الإتفاق وتشتت الآراء يسودان المحلة، فكل واحد يفعل ما يميله عليه فكره، ثم إننا نحن شلوح، ولن نتفاهم إطلاقا مع هؤلاء العرب، فأنا أفضل أن نرجع إلى بلادنا وباستطاعتنا ذلك لأننا أقوىاء. وإذا اعترض طريقنا أحد ما واجهناه بالبارود. ومن لم يعترضنا تركناه في أمان. وتفاديا لمزيد من التفاصيل وكثرة الكلام فإني أمر برفع الخيام والإنطلاق مباشرة نحو مراكش. وقد كان للمتوكي، ولمزيد من الإحتياطات، قد بعث قبل هذا الإجراء عدة رسائل إلى أهله، بأن تأتي مجموعة من الفرسان إليه لتعزيز صفوفه أثناء زحفه، وهكذا وصل إلى بلده.

أما بالنسبة للآخرين الذين علموا بما قام به المتوكي فقد فكروا في اتباع خطته، حتى إنه لم ينقض النهار حتى لم يبق أي أحد مع قائد المحلة سي محمد الأمراني.

وكان قائد عبدة سي عيسى بن عمر الذي بقي مع أتباعه قد قال له :

___ إذا كنت تريد المحبيء عندنا إلى دار سي عيسى (قرب آسفي) فمرحبا بك.

لكن الآخر أجابه بما يلي :

___ لا. فلم تعد لي ثقة بأي واحد من هؤلاء الرجال. إني أفضل أن أرجع إلى مولاي بوشعيب.

وهذا بالفعل ما قام به، ثم التحق بعد ذلك بعض القواد حينما علموا أثناء الطريق أن منازلهم قد نهبت وأحرقت وأن أتباعهم قد قتلوا أو اختفوا، وأن نساءهم وفتياتهم قد سبيت، وأن قطعانهم قد أكلت أو سرقت فكل شيء قد أتلّف وضاع تماما. وأعني هنا : الحاج العربي بن تومة والشافعي العبيدي، وسي احمد بن عبيدي بن الدوح (أحمر) وسي عبد الحميد (الرحامنة) وسي العربي ولد زروال.

وكان آخر قائد التحق بهم هو سي السعيد الشيطمي الذي وجد هو أيضا منزله قد هدم ورجاله قد تفرقوا، وقيل له في البلاد إن رجال المتوكي قد مروا من هنا ونهبوها وعلموا أيضا أن المتوكي أثناء الطريق من فاس إلى مولاي بوشعيب كان يبعث برقاصة يحملون أوامره إلى رجاله ببلده ليهبوا أربع حملات : الأولى إلى بورقي في حاجة في نفس المكان الذي عين منه مولاي الحسن سلطانا، والثانية إلى أركانة إذا أوزيكي، والثالثة إلى تامراغت قرب أكادير، والرابعة إلى مزوضة بقيادة أخيه القائد العربي. وهذه الأخيرة هي التي نهبت دار القائد الشيطمي :

كما اجتاحت أيضا دار قائد مجاط ودار القائد أحمد الحاحي ودار ولد گورمة.

وبهذا يكون المتوكي قد قام بعملية شبيهة بما ستقوم به فرنسا في مرحلة لاحقة في حملاتها المختلفة عندما هاجمت القبائل بعد أحداث الدار البيضاء.

وخلاصة الكلام فإن الجنوب كله في تمرد وعصيان. حيث عمت الفوضى كل مكان خاصة على الطرق التي قطعت ولم تعد هناك أي أسواق تجارية. وكان صوت الرصاص مسموعا في كل الجهات، وقد امتدت المواجهات إلى حدود تامصلوحت على أبواب مراكش (19 كلم)، وكان القائد والمسؤول عن هذه التمردات الكبرى هو : سي عبد المالك المتوكي.

وكان الرحامنة الذين دشنوا حركة العصيان، قد نصبوا قائدا للسيا يسمى، مبارك ولد الطاهر بن سليمان، الذي كان يحارب في السفوح، ويستعد للانقضاض على أقرب مدينة مجاورة : مراكش. وكان السراغنة أيضا المشجعين من جيرانهم قد نهبوا منازل قائديهم : الجيلالي بن المودن ومحمد بن الطيب. كما حاصر بنو مسكين دار القائد الشافعي المسكني : ولم يرجع قائد دمناث الحاج الجيلالي الدمناطي إلا ليرى منزله محطما. كما نهبت دار المخزن وخاصة بيت المال بدمناث، حيث سرق شلوح المنطقة بقيادة قائدهم ولد الروحات أموال الخزينة لدرجة أنهم لم يعودوا يستطيعون حمل المزيد من النقود الذهبية، بل يضعونها في أضرفة ورقية ويبيعون خمس لويزات ذهبية بقرش واحد (0.25fr) وأمام هذه الوضعية رجع الحاج الجيلالي إلى مولاي بوشعيب عند سي محمد الأمراني المستغرب من عودة هؤلاء المنهوبين المجرمين من متاعهم.

ويمكن القول إن صفتي أم الربيع قد كستها الدماء واشتعلت بها النيران من السفوح إلى الجبال وأصبحت الوضعية أكثر خطورة بالنسبة للمخزن.

لكن باحماد الذي كان يتابع كل شيء لم يكن يوصل إلى السلطان أخبار تقدم هذه التمردات إلى أن علم مولاي عبد العزيز أنه ليس محط رضى وقبول الجميع. وأنه موصوف

بطفل حلوى. وكان يقال باستمرار : « إن السلطان الفعلي هو باحماد، لأنه هو الذي يسعى في تولية هذا الطفل. وهاهو الآن يعطيه الحلوى، ويحثه على قراءة الكتب وأن يكون مهذباً هذا في وقت يحكم فيه كيف يريد».

فقد كانت الإضطرابات عامة، وكنا نسمع في جميع الأنحاء أن الرحامنة يرغبون في تولية مولاي أمحمد الوريث الشرعي للعرش، وتحريره بواسطة هجوم مقبل على مراكش حيث كان الأمير سجيناً بدار مولاي الزين. وإذا لم ينجح هذا الهجوم فإنهم، وأمام تقاعس فاس فإنهم سيحاصرون المدينة (مراكش)

ماذا يحدث في مراكش؟ فالسلطة المخزنية في القصبية تحت إدارة القائد الحاج محمد ويدا الذي كان يسكن بدرب شتوكة. أما المدينة التي لا تقوى على الدفاع. فتحت قيادة سي عباس بن داود. وعندما وصلت هذه الأخبار وتشتت قواد مولاي بوشعيب، وتفكير الرحامنة في تنصيب مولاي أحمد، إلى علم محمد ويدا، استقدم الإبن البكر لمولاي الحسن وقال له :

— إنك على علم سيدي بعضيان الرحامنة، إنهم يريدون توليتكم سلطانا مكان مولاي الحسن فما هو رأيكم؟

— نعم أنا على علم بذلك ! لكن لست أفهم ما يريدون. فأنا لم أطلب منهم شيئا. خاصة أن السلطان المعين هو أخي مولاي عبد العزيز فعليهم طاعته، فأنا وأخي شيء واحد.

ثم قال قائد القصبية للرحامنة :

— إنكم تتمرّدون دون سبب، فلهذا أطلب منكم الخضوع والطاعة، وإلا أحرقتكم، فلقد سألت مولاي أمحمد، وأجاب بأنه لا يرغب في الملك وأنه سعيد جدا بتقاعدته. (3)
فأجاب الرحامنة :

— إن ويدا رجل طيب يصدق كل ما يقال له. وإنه معنا مولاي أمحمد ويمكن أن نعطيه رسائل من الأمير يعبر فيها عن استيائه من سلب حقوقه. وأنه لا يحلم إلا بالملك الذي سوف نعيده له.

لقد سبق أن قلت لك إن الثورات قد انتشرت في كل الجهات كدخان البارود. حيث قام «ضراوة» سكان منطقة واد درعة إحتداء بسابقيهم بطرد قائدهم الطاهر بن سليمان وطاردوه إلى حدود الأطلس. فاحتمى هذا الأخير بمراكش حيث استقبل بالأدراع المفتوحة. وقد كان أخواله من الرحامنة. والقواد والأعيان ورجال البارود ومستشارو السببا أتباع مولاي أمحمد أهله. فاحتفل به القائد ويدا وقال له.

__ لقد جئت في الوقت المناسب. لأن المخزن وكل الناس هنا محتاجون إليك لإصلاح الأوضاع. وأريد أن أكلفك بمهمة بسيطة بين الطرفين. حيث ستذهب عند أهلك الرحامنة. وهناك نقودا ستوزعها بطريقة ذكية على شخصياتهم المؤثرة في أخذ القرار. وبالتالي شراؤهم لصالحنا. فنحن نعتد عليك في اعتماد هذه التمرد الناشيء في أقرب وقت.

فانطلق الطاهر بن سليمان ليصل إلى حركة الرحامنة المعسكرة ببئر الضراوي. حيث استقبل بحفاوة كبيرة. ثم قال سي الطاهر :

__ ما الذي تفعلوه أيها العقلاء؟ أو ليس فعلا شيء مشين أن المخزن قد مات أو كاد من أجل فرض سلطته أليس كذلك؟ فالعنوا الشيطان وانهوا هذا العصيان واختاروا قوادكم بانفسكم إن شئتم. وادخلوا حفظكم الله في صفوف الطائعين. وتذكروا جيدا عواقب ومواجهة المخزن - وتذكروا رجال قبيلتكم الذين ظلوا أسرى في الجزيرة (سجن موكادور الصويرة). وتذكروا جيدا تمردكم ضد مولاي الحسن الذي عاقبكم أشد عقاب، وأحثكم على أن تكونوا جنودا للمخزن. واعتقد أنكم نسيتم كل شيء، وأنتم تتمرّدون دون سبب.

فاقتبل كلامه بالاحتجاج والغضب والصفير والسب والشتم وقالوا :

__ كفى ! إن هذا أحرق. لكن كم أخذ من النقود ليربينا كالأطفال؟ ثم كم أخذ شيخنا؟ تقولون إن من يكلمنا بهذه الطريقة منحذر من الرحامنة؟! فإننا لا نعتقد ذلك. إنه عميل ويدا. - لعنة الله عليه. . . إلى غير ذلك من الشتائم المماثلة.

فاحمر وجه الطاهر ثم انفعل كثيرا، لكن تمالك نفسه ثم قال :

__ رجاء هدوءا وصمتا حتى نتفاهم وأشرح أكثر ما أريد قوله :

وجلس بعد أن ظل واقفا، وكذلك فعل الآخرون :

__ الرحامنة، اسمعوني جيدا. فأنا لأريد إلا هناءكم وسعادتكم، وهل هذا هو الجزء الذي أنتظرونه منكم؟! فقد سبني الرعاة ككلب، هل هذا كل ما أستحقه منكم؟! فرغم كل ما قلته لكم فإنكم تريدون أن تظلوا كالعبيان أمام أشعة الشمس. ومادمت أنكم اخترتم السير في هذا الطريق فإنني أقول لكم بأنني عميل لويدا وأنه قد اشتريني لأشتغل لحسابه. والآن أرجوكم أن تجعلوني فردا منكم. وسنصمد أمام كل المواجهات. وإذا شكتكم فيما أقول، فأنا مستعد أن أشهد بذلك أمام عدلين.

وهذا ما تم بالفعل وكان من شتمه قبل هم من قالوا بأنهم لا يريدون قائدا آخر سوى الطاهر بن سليمان.

وأثناء الخطاب الثاني للطاهر بن سليمان، أخرج أحد الحاضرين الدهاة منديلا من حرير لامرأة ما ولوح به ثم قال :

— إنها « سنية » لالة زينب أم مولاي امحمد، التي انضمت إلى الرحامنة وترغب جدا في أن يصبح ابنها سلطانا.

لكن ويدا الذي كان له جواسيس في صفوف حركة الرحامنة قد أخبر في مساء ذلك اليوم بكل ما وقع بما في ذلك من انضمام الطاهر بن سليمان للرحامنة، وكل ما قلته لك سابقا، ولم يعد هناك من حل سوى المواجهة المقاومة.

وكان أول مقام به ويدا هو ما يلي :

توجه رفقة حراسه من المخازنية إلى دار مولاي الزين وطلب مقابلة مولاي امحمد فأدخل عليه. وبعد التحية وبعض الكلام الذي أظهر فيه الاهتمام والرعاية التي تعطى لابن السلطان أقفل راجعا بهدوء. وكان هذا التصرف مؤشرا للمخازنية الذين كانوا قد دخلوا إلى القصر للقيام بالعملية التي جاءوا من أجلها بسرعة. فدخلوا غرفة مولاي امحمد واعتقلوه محذرينه من القيام بأي رد فعل مهددين جنود قائد المائة بقتل مولاي امحمد إذا قاموا بأي رد فعل.

ولما انتهت هذه العملية، رجع ويدا إلى القصبة، واستدعى الأعيان ليخبرهم بالوضعية الجديدة، كما أعطى الأوامر باغلاق كل أبواب القصبة، وشرع في توزيع الأسلحة والمؤونة من مستودعات المدينة الإحتياطية، حيث أعطيت 40000 بندقية لحراس القصبة والمخزن. كما بعثت 16000 بندقية إلى المدينة.

ثم التحق بن داود بالقصبة لأخذ التعليمات من ويدا. واتفقا فيما بينهما على الصمود في جميع الحالات سواء في الهجوم أو الحصار.

لكن اتضح بعد ذلك أن ابن داود كان يميل إلى الرحامنة وترك ويدا وحيدا على موقفه النبيل واتفقا في إطار استراتيجيتهما بأن تكون أبواب القصبة وحدها هي المغلقة.

وعندما جاء الرحامنة إلى أبواب المدينة، لم يحضوا بأي تجاوب مع سكان مراكش وقال لهم ابن داود :

— مرحبا بكم ادخلوا المدينة وتاجروا كما يبدو لكم. فالمدينة مدينتكم، خاصة أن منكم من له فيها منازل ودكاكين. فتجولوا إذن بكل حرية فأزقتها وشوارعها رهن إشارتكم. فدخل الرحامنة إلى المدينة، كالمعتاد، للتسوق، وبيع الحبوب والفحم وجميع متوجاتهم. لكن عندما وصلوا إلى أبواب الحراسة أجبرهم الحراس على وضع أسلحتهم. فاحتج الرحامنة عند الباشا. لكن قيل لهم :

___ لستم بحاجة إطلاقاً، لأسلحتكم للتجول في المدينة. فتركوها عند جنودنا، وستأخذونها عند رجوعكم، أليست هذه هي العادة.

فاستجابوا، ودخلوا إلى مراکش دون أسلحة.

وقد امتدت هذه الحيلة / اللعبة شهرين. امتلأت فيها المدينة حبواً من كل الأنواع، والفحم الخشبي الآثي من الرحامنة. وخلال هذه المدة ذهب بن داود إلى ويدا ليقول له :

___ إن أولاد الكلاب هؤلاء الذين يزعموننا، لأحب أن أراهم بعد الآن. فلقد حصل ما نحتاجه منهم، فمراكش مملوءة حبواً إلى حدود الانفجار.

فقال له ويدا :

___ جيد، حتى إذا ما حاصرونا يوماً فإننا سنصمد أكثر، وهذا أمر إليك، لكن فلنتنظر إلى أن يأتوا عندنا، فلا شك أن البارود سيتكلم بين يوم وآخر.

وبالفعل، وبعد مدة من هذا الحوار : وصل حفيد للطاهر بن سليمان سي محمد بن الجيلالي إلى مراکش ليتشاجر شجاراً عنيفاً مع حراس باب إيلان، لأنه لم يقبل بأن يضع سلاحه في باب المدينة وعند خروجه عنف الحارس المسؤول، لكن عندما قاومه هذا الحارس أطلق عليه النار، فنقد صبر الحارس وقتلوا محمد بن الجيلالي وأسروا رفاقه.

وعندما علم بن داود بالحادثة سرع إلى ويدا ليخبره بما وقع، فقال له ويدا غاضباً :

___ إن ما وقع تتحمل فيه المسؤولية. لأنك أعطيت، وبدعوى التجارة، امتيازات كبيرة لأولئك الكلاب الملاعين، فيجب أن يوضع حد حاسم لمنع انتشار البنادق بهذا الشكل.

فأجابه ابن داود :

___ أعرف هذا ! ويدا. لكن ماذا تريدني أن أفعل ؟ فلا يمكنني أن أكون مثلك، ولا امتلاك خصالك بصفقتك رجل حرب ومخزن، وتعلم أنني مفاوض جيد، كانت سياستي تهدف دائماً إلى تجميع خيرات الرحامنة في المدينة، وتعلم أن أكثرهم لهم منازل هنا، وقد نجحت سياستي بالفعل حيث يمكن لنا الصمود أكثر أمام حصار أطول، ويمكن أن تغلق منذ الآن أبواب المدينة إن شئت.

فقال ويدا :

___ إذن لم يبق متسع من الوقت لذلك !

وبالفعل، وبعد صدام باب إيلان، انطلقت حركة الرحامنة بقيادة الطاهر بن سليمان العسكرية بتزلة العظم قرب بن كرير، وبدأت ملامح مواجهة تظهر بسرعة. حيث قال الطاهر من ضمن ما قال :

— انظروا أيها الملاعين درجة ضعفكم وتخاذلكم، حتى تجرباً هؤلاء اليهود على قتل أبنائنا، فماذا تنتظرون إذن لتكونوا رجالاً؟!

فرفع المعسكر وتوجهت الحركة نحو مراكش.

وعندما أعلم وبدأ بالخبر إستقدم قبائل المخزن للدفاع عن المدينة، وقد كانت هذه القبائل هي : أولاد ادليم (الشراردة)، وتكنة، والوداية، وإذا أوبلال، وأيت إيمور، وحريل، وكل القبائل الموجودة في حوز مراكش.

وقال لهم ويذا :

— تعالوا إلى هنا، فستكونون أتم وأسرهم محميين بأسواركم، ولا تمكثوا في بواديكم إذا أردتم أن لا يهجم عليكم الرحامنة. فستعطيكم هنا خيولاً وأسلحة وكل معدات الحرب.

وعندما وصلوا إلى مراكش وزعت عليهم الأسلحة والمؤونة بمسؤولية قوادهم كما أعطيتهم أجرة 2. 50 ph للفارس. و 25fr. لكل رجل.

وقد علمنا أن الرحامنة عندما اقتربوا من المدينة، كتبوا إلى جيرانهم أولاد ادليم :

— ما الذي تصنعون !! انظموا إلينا إلى إخوانكم.

فأجابوهم :

— نحن لسنا لا معكم ولا معهم. نحن محايدون. ولا يمكن أن ننظم إليكم، أولاتعلمون أن نساءنا وأطفالنا وأمتعتنا في أمان داخل قصبة مراكش، وأنا أصبحنا نتقاضى رواتب المخزن؟ فاتركونا إذن مكتفين بدور المتفرج.

فقال الآخرون.

— ماذا؟ أتريدون أن تبقوا محايدين، وفي الوقت نفسه تحرسون أسوار القصبة؟ هذا غير ممكن، فاجتاحوا أراضي أولاد دليم، ثم التحقت كل القبائل المتمردة بالمخزن واحتمت بمراكش وعسكرت على طول تانسيفت بين جبل جليز وسوق الخميس⁽¹⁾. حيث مضت رضى ويدي الذي أعطاها الخيول والأسلحة والمؤونة.

وعندما علم الظاهر بن سليمان بالخبر ثارت حفيظته وأرسل على التو تعليماته إلى مسفيوة الداخلة في سييا بين سيدي رحال ودمنات، باجتياح أراضي آيت إيمور أراضيهم. فتدخل الرحامنة ليسحقوا، آيت إيمور الذين لم يتركوا في الساحة سوى الجرحى والقتلى.

أما الوداية الذين كانوا في نفس وضعية آيت إيمور، مترددين في أي الجهات يتبعون. فقد جاءوا إلى الرحامنة بثور « التركيبية » وانضموا إليهم. وقد كان الوداية رجالاً مكرة، لاستطيع الوقوف عن صدق طويتهم. وكان يقال عنهم « أن لهم عينان واحدة من الدم

والأخرى من الحليب » لكن يتضح أن بعد هزيمة آيت امور أصبح الوداية موالين تماما للرحامنة.

وكان الرحامنة قد بعثوا قوة أمامية إلى قنطرة تانسيفت حيث بدأت المواجهة مع المدافعين عن المدينة. وبدأ القتال، وكانت بقية الرحامنة مستعدة للهجوم.

وعندما علم السلطان بخطورة هذه المواجهات أرسل من فاس القائد العربي بن حمو الذي كان رحمانيا، ليحاول اصلاح الوضع وجلب الصلح والسلام، لكن أهاليه كان من الصعب اقناعهم فغادرهم لينظم إلى ويدا.

وفي الوقت الذي اندلعت فيه أولى المواجهات على قنطرة تانسيفت شرعت مدينة مراكش في الدفاع وإغلاق جميع الأبواب. حيث كانت جميع الحصون محروسة، وكان المراقبون يظهرون من شرفات الصوامع. كما كانت كل الفنادق الموجودة بساحات القصبة غاصة في انتظارهم جماعي، وكان قائد الرحامنة الطاهر بن سليمان قد كتب إلى مسفيوة :
— أخبركم يامسفيوة، الأوفياء وأصحاب البارود ودو النار، أنه غدا، ويعون الله سندخل مراكش، حيث سنفعل فيها ما هو واجب علينا فعله، أما بالنسبة لكم فإني أمركم، وبمجرد ابتداء المواجهة، أن تدخلوا المدينة عبر القصبة وأنصحكم أن لا تهجموا على أكدال ولا على دار المخزن. فليس من المعقول إزعاج شريفات القصر، وليس عندكم ما تفعلوه تمة. وبعد استحواذكم على القصبة. انتظروا مجيئي.⁽⁹⁾

لكن في الليل، ودون انتظار بداية المواجهة تسرب مسفيوة إلى جدران أكدال، وأحدثوا بها ثقباً تسربوا منها الى الخدائق، لكن جهلهم بالممرات والطرق جعلهم يتيهون ويقعون في الشراك التي نصبها لهم حراس القصر. فقبض عليهم ووضعوا في الأكياس. وقد دامت مواجهة الخدائق العنيفة هذه ثلاث ساعات. كانت محلة الرحامنة المعسكرة قريبا من بوقريحا بين ساسي تنتظر الإشارة في حماس. وعند وصول الفجر كانوا في كامل الاستعداد للمواجهة.

وكانوا يقولون :

— وأما ! هاهم مسفيوة قد اقتحموا أكدال واستولوا عليه. فلم يبق علينا سوى دفع الأبواب برؤوس جيادنا ودخول المدينة.

لكن عندما اقتربوا من المدينة رأوا بعض مسفيوة فارين بعد فشل مهمتهم بالليل. فاستهزؤوا منهم واحتقروهم خاصة أنهم رأوا من ضمن الفارين أحد أعيانهم الذي كان مولاي امحمد يرغب في تنصيبه قائدا وقد فقد ذراعه بعد انفجار وقع بالقرب منه على ما اعتقد.

فقالوا له :

مما يشتكي هذا الرجل ؟ أو ليس بيده طابع القائد الذي أعطاه مولاي امحمد السلطان المقليل ؟ (10)

وقال آخرون :

— هل أنتم متيقنون أن كل مسفيوة رجال !

وقد غضبوا كثيرا من تصرف مسفيوة.

أما هم فقد هاجموا في اليوم الموالي، لكن السكان أبانوا عن مقاومة قوية حيث كانوا كلهم مسلحين بالبنادق : 74 بندقية من Martini,Rauington,Mauser، وبنادق عصرية سريعة الطلقات، وبرصاصات جاهزة، في حين كان الرحامنة مسلحين ببوشفرة، وكنا نعد عندهم حوالي 70 بندقية منها 50 قديمة من الحجارة. وأخيرا، وبينما كان المتمردون يطلقون النار دون أوامر، كان السكان منضبطين للأوامر في إطلاق الرصاص. وكانوا يطلقون أحيانا الرصاص في الفراغ لكن لم تكن بعيدة عن المهاجمين، ورغم ذلك أصابوا بعض الجرحى. وهكذا فقد الرحامنة كثيرا من الرجال، وبسرعة، فترجعوا مهزومين، ففرح المراكشيون وهنأ بعضهم بعضا قائلين أن المخزن نصرته عناية إلهية. ثم رجعوا بحذر دون مطاردة المهاجمين. ولو كان السكان يحسنون الرمي لدمرت هذه القبيلة المتمردة عن آخرها بعد هذه المواجهة، وكانت هزيمة الرحامنة فرصة سانحة لبعض القبائل المخزنية المتعودة على البارود تقوم ببعض الإحتفالات وقطع الرؤوس، خاصة بعدما علموا أن المخزن يعطي 10 فرنك لكل رأس مقطوع و50 فرنك لكل أسير.

وكانوا يقولون : « إذا كان المخزن يشتري الرأس بـ 10 فرنك، فإننا سنواجههم إلى أن نسحقهم جميعا.

وخلال هدنة أربعة أيام، اجتمع فيها الأعداء ورموا صفوفهم من جديد وقرروا الهجوم من الشمال الشرقي، انطلاقا من باب الخميس إلى باب أغمات. وعند علمهم بهذه الخطة خرج جنود المخزن ليختبئوا في خنادق عميقة بوادي اسيل، حيث شغلوا كل الحفر والصخور الموجودة في سرير الوادي. في حين كانت وحدات القبائل من الفرسان قد عبرت قنطرة الوادي وتوزعت يمينا ويسارا في غابات النخيل من أجل الهجوم على جناحي أو جهتي المتمردين. فجاء الرحامنة وبدأت المواجهة لكنها لم تكن في صالحهم خاصة أنهم قد ضبطوا من كل الجهات : من أهم نقاط المدينة ومن الخنادق الطبيعية للوادي لدرجة صعب عليهم معها رصد مكان أعدائهم المختبئين أو المندسين في كل مكان. وعندما أحسوا بضعف جهتهم اليسرى مالوا بقوة على كل الفرسان الذين رصدوهم، وأجبروهم على التراجع إلى المدينة في فوضى عارمة وقد دامت المعركة لحد الآن أربع ساعات.

وكان ويدأ الذي لاحظ تراجع الخيالة قد طلب من القائد العسولي من أولاد رحال أن يمدد برجاله. وكان هذا الأخير قائدا ل 50 فارس و50 رحال تقريبا، محاربين أكفاء. فقام بهجوم مضاد تراجع على إثره المتمردون كما قام العربي بن حمو بنفس العملية حيث هاجم وبقوة الجهة الجنوبية للأعداء. وانتهى كل شيء، وفتح أهل مراكش الأبواب واحتفلوا بالانتصار وطاردوا الفارين.

وكان عدد الأسرى والرؤوس المقطوعة هذه المرة كبيرا. حيث علقّت هذه الغنائم الدموية على جدران فنادق جامع الفنا بعد أن قام يهود الملاح بتعليقها.

وهكذا فقد الرحامنة شجعانهم، وهنأ المراكشيون بعضهم بعضا ولم يعودوا يشكون إطلاقا في الانتصار النهائي. في حين رجع المهاجمون إلى معسكراتهم لتضميد جراحهم والاستعداد لهجومات جديدة وعندما رأت بعض القبائل الحليفة للرحامنة ماصارت عليه الأوضاع تراجعت وذهبت إلى مراكش بالهدايا (الثيران) طالبة الأمان والتمتع بنفس حماية السكان. وكان من هذه القبائل آيت إيمور الذين بعثوا برجالهم إلى مراكش بعد هزيمتهم العنيفة ضد الرحامنة، ولم تكن مساهمتهم بهؤلاء الرجال أمرا هينا خاصة أنه كان منهم رماة مهرة، حيث إن أربع رماة من آيت إيمور يعادلون في رمايتهم 25 جندي عادي.

وخلال خمسة عشر يوم. كان الرحامنة يستعدون للهجوم من جديد بعد المفاوضات الفاشلة خاصة أن الرحامنة قد تركوا عدة جرحى وقتلى لا بد من الثأر لهم.

وهكذا قرر الرحامنة هذه المرة، عدم الهجوم من وادي اسيل، بل اتباع خطة شبيهة بخطة المخزن، حيث عملوا على استغلال منحدرات وملتويات الميدان والقناطر والأسوار والنخيل والحدائق الموجودة بين باب دكالة وكليز. فتجمعوا في هذه الجهة. وكان القائدان الحاج علي والمطاعي قد جاءا مع وحداتهما ليعسكرا أمام باب دكالة إيذانا ببداية المعركة.

فنشبت المعركة ليلا ورغم جهل القصة بما يحدث في باب دكالة، فإن ويدأ قد أرسل آيت إيمور لتقوية الحاج علي. لكن هذا الأخير المتيقن بقدرته وحده على ضبط الأوضاع، وطلب منهم الرجوع إلى قصبة لأنها في حاجة إليهم أكثر. واستمرت المواجهة إلى مساء اليوم الموالي حيث كان الرصاص يسمع في جهات المدينة. لقد كان بالفعل يوما محزنا فلم تكن تخطو عشرة أمتار حتى تمجد بعض القتلى. وعندما انهزم الرحامنة للمرة الثانية طاردهم السكان من جديد. لكن السكان وقعوا في شرك جناحي الرحامنة الأيمن والأيسر فرجعوا متشتين مذعورين إلى كليز المقتطع من المدينة، مما جعل ويدأ يتدخل مع وحدات التقوية ليجلي الرحامنة عن كليز ويطاردهم. فابقن الرحامنة أنهم قد هزموا هذه المرة، وفروا تاركين وراءه القتلى والأسرى بأيدي المراكشين.

ثم رجع الجنود إلى معسكراتهم ليدفنوا محاربيهم ويرتاحوا من متاعب هذا اليوم العصيب. وفي الوقت الذي كان فيه القواد يبحثون في إمكانية تدشين مفاوضات السلام. بعث ويذا وبصفة استثنائية إلى السراغة إخوة أولاد ادليم وأعداء الرحامنة أن يأتوا إلى مراكش للبحث في صيغة توافقية. وكان يسمع في كل الجهات أن المستفيد الأكبر من هذا الانتصار هي المدينة لأنها سوف تراح من قيادة سي عباس بن داود الباشا الذي لم يتردد في حلق لحي كل من كان يحارب وهو فارس مترجع، خاصة أن الرحامنة قد تركوا عدة قتلى. وأنهم كادوا يغادرون المعركة بعد أن تراجعوا ثلاث مرات. وتكاثر البلاغات حتى إن السلم أصبح شيئاً بعيداً.

لقد دام هذا العصيان وعدم الاستقرار بالجنوب أكثر من سنة. حتى القواد المعسكرين بمولاي بوشعيب قد تعبوا من الانتظار هناك. وقرروا الرجوع إلى السلطان بفاس. باستثناء سي عيسى بن عمر الذي رجع إلى قصبته، حيث استطاع بواسطة مرتزقة ماجورين الاستيلاء على عبدة واحمر والشياطمة بطريقة متتابعة.

لقد ظل السلطان، كما قلت لك، دائماً في فاس بدون رد فعل، وهذا أمر غريب بعض الشيء، واكتفى الوزير الأول سي احماذ بالكتابة إلى ويذا :

إن لدينا ذخيرة كبيرة من الرصاص والبنادق والمدافع والرجال. فلا يمكن أن نهزم. وإذا كنت ترى أن أجرة الجندي اليومية المحددة في $h_2.P$ غير كافية. فإني أذن لك أن ترفعها إلى 2 دورو (10 فرنك). واعلم أن المخزن لا يذخر هذه الأشياء إلا لمثل هذه الظروف التي تمر بها في مراكش وبعد مرور شهر، بعث سي عيسى بن عمر، الذي كان يحضى باحترام المخزن، إلى السلطان بأنه في غاية القوة حتى إن تغذية أتباعه أصبحت شيئاً صعباً، فهم يستهلكون أكثر من 100 ثور يومياً. وأنه سيكون محتاجاً إلى نقود أكثر، وأنه، إذا أراد أن يتيقن. من أقواله فما على مولاي عبد العزيز سوى طلب توضيحات في هذا الموضوع من تجار آسفي الفرنسيين. وأضاف بأن البلاد منهكة تريد السلام. وأن سيدنا ما عليه سوى إخراج رأسه من مخزنه، وأن قدومه وحده كافٍ لإحلال السلام.

وكان مولاي عبد العزيز قد سمع نصيحة باحماذ وأمه بالتوجه نحو مراكش. لقد كان الوزير الأول رجلاً هادئاً ودبلوماسياً جيداً، حتى إنه لقب بخيطة الحديد « لدهائه ومرونته، لكنه في الوقت نفسه كان قوياً إذا وضع أحداً بين يديه.

وهكذا غادرت محلة السلطان فاس (سبتمبر 1895) لتمر في بطيء من زمرور تحت القيادة الفعلية لحمو بن الجليلي. وقد بقي عم السلطان مولاي عرفة في فاس ممثلاً للسلطان. وقد كان تحرك السلطان بطيئاً فيه تفكير وتأمل ثم وصلنا إلى الرباط. فداع في كل القبائل خبر توجه السلطان الشاب رفقة قواته إلى مراكش لإجلاء المتمردين عنها. لكن الإقامة في

الرباط دامت عدة أشهر فيها امدادات القبائل الآتية من كل الجهات، وخلع وتعيين قواد جدد. وهكذا حل المتوكي ضيفا على السلطان بالرباط مجهزا بحركة قوية وأسلحة مؤن وأعتدة. فسر المخزن بمجيء هؤلاء الشلوخ المحاربين الجيدين لتعزيز صفوفه.

وكان قد جمع في هذه الأثناء بالرباط حوالي 15000 رجل بما في ذلك النظاميين ووحدات المتوكي وقبائل المخزن الشمالية والغربية وبنو مطير وگروان والخلوط وبنو حسن والحياينة وآيت يوسي والشراردة وأولاد جامع.

وفي أواسط فصل الشتاء (فبراير 1896)، انطلقنا من الرباط بدون فوضى، وفي هدوء كتحرك رجل مسكين. حيث وصلنا الشاوية، وعبرنا أم الربيع عبر مشرع الشعير، حيث تقدمنا باحتراس شديد نحو الرحامنة، بالقرب من بني مسكين حتى الخوام؟ لكن منذ مغادرتنا قصبة تمارة كان شيء ما يصحبنا يقتل الكثير من أفرادنا في هدوء وصمت، إنه المرض المسمى « بوكليب»⁽¹¹⁾ الذي انتشر وبسرعة كبيرة من طنجة إلى الجنوب، إنه يخرق صفوفنا برصاصاته الخفية، وقد كانت رؤية الرجال الأقوياء يسقطون من على فرسانهم مصعوقين أمرا يدعو إلى الشفقة والرحمة. فقد كان هناك عدة جثث في كل الحقول.

ولم يسلم الأعيان بدورهم من هذا الداء خاصة الوزير سي التازي الرباطي، وسي مولاي عبد الله « متحسب»⁽¹³⁾ مراکش. وكذلك Minnie أخت القائد هاري ماك لان. وكان في هذه الحملة أيضا مدربون فرنسيون وأنجليز. وكان ماك لان الذي يحضى باحترام المخزن الكبير، يقود طابوره من المشاة المجهز منذ مدة قصيرة برشاشات أنجليزية. وكانت عائلته زوجته الاسبانية وبناته في رفقة أطباء أجانب وكان طبيب السلطان هو الإنجليزي Verdon وطبيب العسكر Linarés، لكن رغم العناية التي كان يحضى بها هؤلاء جميعا فإنهم كانوا ضعافا أمام بوكليب. صحيح أنه لم يمت كل المصابين. لكن كنا نرى يوميا رجالا يسقطون من المرض قرب الجثث التي يدفنونها. فذب القلق والتدمير إلى النفوس من هذا التحرك البطيء ومن هذا الشلل الذي انتاب المعكسر و من شراسة « بوكليب» هذا.

فقال لهم باحماد :

... أنا لا أعرف لماذا أنتم متدمرون بسرعة فيوگليب موجود في كل مكان، فلماذا تشتكون، إنه وراءنا وأمامنا، وقد علمت أنه وصل إلى مراکش، واعتقد أنه يعمل في هذه الأحيان لحسابنا فسواء هنا أو هناك لن يفلت أحد من مصيره إذا جاء أجله.

ورغم هذه الظروف طلب من الرحامنة المحيي إلى الحملة وسماع الشروط التي يفرضها السلطان . وقد كان القائد عبد الحميد هو الذي يفاوض بإسم الرحامنة. فقال له باحماد :

— ستقدمون للمخزن 4000 أسير، يأتي كل واحد منهم بفرسه وسلاحه ومؤنثته ويعطي ذلك كله للمخزن، ثم يغل ويذهب به إلى السجن. والآن فإننا نريد المتمرّد والمسؤول الأكبر الطاهر بن سليمان، وبالحاج. أين هو الآن؟

فأجاب عبد الحميد :

— إنه محتمي بزاوية سيدي علي بن إبراهيم.

فقال الوزير الأول :

— جيد ! إذن يجب عليكم إحضار كل هؤلاء المتمردين على وجه السرعة وأخص بالذكر منهم، ذلك الذي تمرد في جهة دمنات المسمى ولد الروحات.

وعندما علمت القبائل المترددة والمتمرّدة بخضوع الرحامنة، أرسلت وحداتها إلى المحلة التي بدأت أعدادها تزداد وتصبح ذات أهمية أكبر يوما بعد الآخر. وعلم نهائيا وتقرر أن المخزن هو الذي انتصر دون إطلاق رصاصة واحدة. بفضل مقاومة ويدا، والخطة الدفاعية المحكمة عن المدينة. وخاصة بفضل الأموال الكثيرة التي صرفتها الخزينة المخزنية.

وكان الرحامنة مضطرين لقبول الشروط القاسية المفروضة. فوصل أسراهم جماعات تحت حراسة الشيوخ⁽¹⁴⁾ على الجمال أو الحمير حيث طيف بهم في كل أنحاء المحلة تحت وابل من الشتائم والسخرية، فكانوا يشدون من لحيمهم حتى إنه لم تبق على وجوههم الدامية سوى بعض الشعيرات. ثم جعل الحدادة الأغلال والقيود القوية في أرجلهم واقتيدوا في مجموعات من 15 إلى 20 أسير (في كل مجموعة) ثم إلى ربط خيولهم في ركن من أركان المعسكر. كما جمعت بنادقهم والخناجر في الوسط. وظهر قائد التمرد الطاهر بن سليمان بدوره. ملتقا بغطاء ضريح سيدي علي بن إبراهيم رفقة شرفاء ومقدمي « الزاوية »⁽¹⁵⁾ الذين جاءوا به بأمر من السلطان، وقالوا لباحامد :

— أسيدي، دون إطالة كلام. إنه مذنب بالفعل، لكنه كان مدفوعا من أهل سوء من قبيلة. وقد استأجر بحمانا ووجدنا الذي تحترمه أنت أيضا، فلا يحق لك الآن أن تنتقم منه، إنه في حمانا.

فأجاب الوزير :

— بالتأكيد، فأنا مثلكم أحترم سيدي علي بن إبراهيم. لكن ماذا تعتقدون أنه كان سيفعل سيدي علي بن إبراهيم، لو واجه في حياته متمرّدا مثل الطاهر؟ إنه كان سيقوده حتما بيده إلى المخزن لينال عقابه ولهذا أقول لكم لا تسامح مع هذا. . . !

فقال الشرفاء :

إنك فعلا على صواب ولو أننا لا نعرف ما الذي كان سيفعله سيدي علي بن ابراهيم، في حياته. ولكن الأمر يتعلق بحرمته وحماه الشريف المقدس. فانظر إلى هذا الشقي وغطاء ضريح ولينا فوق ظهره ! إن دينك يمنعك أن تمسه بسوء. لقد جئنا إليك، واستقدمنا هذا الرجل من منفاه لأننا كنا متيقنين من عفوك.

فقال باحماد :

___ هل تمرد الطاهر بن سليمان ضد سيدنا أم لا؟ أجيبيني !

___ نعم لقد تمرد الطاهر.

___ أو لم يرد في حديث سيدنا محمد (صلعم) : فالذئب لا يأكل إلا الشاردة من الشياه، فالطاهر إذن نعمة ضالة لم يعد من حقها الإلتحاق بقطيع الأوفياء فأزيلوا عنه هذا الغطاء الشريف الذي يلطخه بعرقه والذي لن يحميه من أي شيء.

وهذا ما تم بالفعل، حيث جلد هذا الشقي بعنف حتى كادت روحه تزهق.

وجعل في اليوم الموالي في قفص من خشب وجعلت قضبانه من بنادق الرحامنة. ثم حمل فوق جمل وطيف به في جميع أنحاء المعسكر، وقذف بالقاذورات كالكلب. هذا إذن جزاؤه.

وبعد ذلك، أدى الرحامنة كل مستحقاتهم من الضرائب المتأخرة منذ سنتين، ومبلغا ماليا ضخما تعويضا عن خسائر الحرب وصل إلى حدود 200000 دورو، مليون فرنك فيما اعتقد، لقد كان المخزن يريد إنقال كاهلهم جدا حتى لا يفكروا في التمرد من جديد. كما أعطوا خيولهم وأسلحتهم. وجاء الدور أيضا على كل القبائل الأخرى التي ساندت الرحامنة في تمردها حيث قدمت الأسرى وأعطت النقود.

وهكذا بسط المخزن سلطته على الأوضاع وأصبح أكثر إرغابا وإخافا. وكان قد تطلب إرجاع الأمور إلى نصابها أربعين يوما. وعندما هدأت الأوضاع انطلقت الحملة نحو مراكش التي دخلتها دخولا احتفاليا (7 مارس 1896) وسط تهانيء ومبايعة السكان وزغاريد النساء.

وكانت تظهر في الموكب كومة الأسلحة التي تجرها، وراعا سلاسل من الخيول مشدود بعضها إلى بعض، وطابور أمن الأسرى المعذبين بطريقة عنيفة جدا - وكان يظهر السلطان الشاب جوار باحماد الداهية المشهور.

وبعد مرور أيام قسم الأسرى المغلولين دائما مجموعات ووزعوا على المراسي : الرباط وآسفي والصويرة والجديدة وطنجة وتطوان، كما شرع في جميع القضايا التي يمكن البث فيها.

وقد تم نهج الطريقة نفسها مع القبائل الأخرى المتمردة، حيث سومحت شكليا وعين عليها قواد جدد. واحتيل عليها عندما أتت بعد مرور بعض الأشهر إلى القصر للسلام على السلطان يوم الهدية. وقد كان من عادة باحماد وضع الأغلال في الأرجل في الزنازن ونسيانهم هناك. وبهذا الإجراء قل يوما بعد يوم أعداء المخزن.

وقد استطاع القائد سي عيسى بن عمر الذي حضى بمساعدة المخزن، أن يخضع جهته وعين بالتالي قائدا عاما على عبدة ودكالة والشيظمة. وعين تحت إمرته قوادا آخرين لتسيير منطقتهم المتسعة. وقد كان الجزاء اعترافا للمخزن له بالجميل على اقتراحه الصائب بوجوب نزول المخزن إلى الجنوب وجنى ثمار انتصار هيأه آخرون.

وهكذا عاد الهدوء والحياة إلى الجنوب كله.

الهوامش

- 1- 19 غشت 1908 هو تاريخ هزيمة مولاي عبد العزيز أمام الوحدات الحفيفية. و 25 نونبر هو تاريخ وصوله إلى الدار البيضاء.
- 2- رغم هذه النكبة التي تعرض لها سي فضول غرنيط فإنه لم يمت بفاس إلا في 28 ماي 1928.
- 3- لقد عبر قسم محاربي وخبول هذه المحلة أم الربيع بالمركب. ليتوقفوا بمولاي بوشعيب على الضفة اليسرى جنوب شرق أزموور، أما الأكبر ففي في ناحية سيدي علي في انتظار الأمر بالإنطلاق وكان عليه عبور الواد عبر مشرع محمولة أو مشرع الكرمة قرب بولعوان حسب العمليات المرتقبة. وقد كان عرض المياه في تلك الأثناء 50 إلى 70 متر.
- 4- توفي القائد الكبير سي عبد المالك المتوكي في 21 أبريل 1928.
- 5- أي رسل ومبعوثين.
- 6- يبدو أن مولاي محمد. وبمساعدة بعض الوزراء وعمه مولاي عمر، ودعم الرحامنة كان يرغب أن يبايع سلطانا في مراكش.
- 7- لقد كان الرؤساء والقواد بما في ذلك الأفواج النظامية والإحتياطية مكلفين وبصفة فعلية على توزيع البنادق على رجالهم.
- 8- قرب الباب الذي لازال يحمل نفس الاسم (باب الخميس) إلى اليوم.
- 9- كان يوجد بقصر السلطان عدد من الشرفيات أو الأميرات (مع خدمنهن البيض أو السود) المستنات أو المطلقات أو المغضوب عنهن. وكان يقمن بالقصر بصفة قارة رغم غياب السلطان.
- 10- لقد كان كل قائد معين يتوفر على طابع يستطيع به أن يختم به على الوثائق. ويعتبر هذا الطابع مؤشرا قويا على مكانة القائد، وبمطابقة قرار تعيين رسمي.
- 11- المراد ببوكليب هو داء الكوليرا. الذي تسرب عبر الحجاج الذين وصلوا في سفينة من جدة إلى طنجة (11 غشت 1895). وكان الناس يعتقدون أنه من أمراض الجن.
- 12- لقد أصيب الوزير موحى التازي بالكوليرا لكنه لم يمت من جرائه.
- 13- موظف سامي في المدن يحدد الأثمنة في الأسواق. يراقب جودتها ويشرف على جميع المبادلات التجارية ويعمل على التنسيق بين الحرف. فهو بمثابة وزير تجارة محلي.
- 14- جمع شيخ. رئيس فرقة أو فخذة من قبيلة أو قرية صغيرة أو زاوية دينية. ولكي يحكم قائدا ما قبيلة ما لابلده من عدة شيوخ.
- 15- الزاوية مجموعة من البنايات حول ضريح ولي معين تحمي المنفيين السياسيين الفارين من الحزن. وتعيش من هدايا وتبرعات الأنبياع والأهالي. التي توزع حسب أهمية أهل الزاوية لأن هناك الشرفاء أو الأمراء المشحذين من صلب الولي، ثم المقدمين ثم الفقهاء المكلفين بتلقين القرآن.

وقد لعبت الزاوية دوراً مهماً في تاريخ البلاد. حيث كان لها أحياناً، إشعاعاً على المستوى الوطني واتباعها ما يصبحون محاربين في المستقبل وقد انطلق المرابطون من زاوية ابن ياسين، والموحدون من زاوية ابن تومرت، كما كان للزاوية الدلالية الشهيرة.

دوراً هاماً في الاطاحة بآخر السعديين، والتي سوف يقضي عليها الشرقاء العلويون من زاوية سجدماسة بتافيلالت أحفاد مولاي علي. وتحكم المغرب بعد ذلك.

16 - سلم الطاهر بن سليمان للمخزن في 27 يناير 1896. وكان دخول السلطان إلى مراكش في 7 مارس من نفس السنة.

آخر محلات الوصي على الملك

-اختفاء عائلة باحماد- مظاهر كفاح المخزن.

وهكذا عاد الهدوء والأمن إلى جنوب المغرب كله. ولم تكن أي ثورة أو تمرد يثير قلق أو إهتمام المخزن في الشمال.

ففاش آمنه وهادئة تحت قيادة مولاي عرفة، وكذلك مكناس التي بعث إليها بالأسرى تحت حراسة قوية. حيث غادر مولاي أمحمد دار مولاي الزين مع أصدقائه وأقاربه الرحامنة إلى دار المخزن بمكناس. ولم تصطدم حامية تازة المكونة من 500 رجل بقيادة سي علال الودي مع غيثة الذين سبق أن نهبوها، أما وجدة ففي هدوء وراحة تامة مع باشاها الجديد إدريس بن يعيش الخليفة القديم لقائد المشور إدريس بن العالم، حيث بسط سلطته ونفوذه بقوة في المنطقة لأن الكل قد علم ما حدث للرحامنة من جراء تمردهم. فكان الناس يتحركون في انتظام وهدوء ودون رفع رأس كما يقال.

وحل المخزن بمراكش، حيث سيمكت به عدة سنوات⁽¹⁾، ثم عمل على خلع قواد وتعيين جدد. وكان قد ظهر في هذه الفترة على مسرح الأحداث، مخزني كان يحضى بتقدير باحماد يسمى المهدي المنهبي وعين لقيادة قبيلة المنابهة. وأحدثك عن هذا الرجل الذي لم يكن من عائلة كبيرة معروفة لأنه سيأخذ فيما بعد المخزن كله بيده.

وماكاد السلطان الشاب يستقر بمراكش حتى استقبل (باشا دورا) سفيرا⁽²⁾، يحصلون في هذه الفترة على عدة امتيازات، فأصبح ماك لان قائد الحراس أكثر حضوة حيث يقضي أغلب الأوقات تقريبا في القصر، ويلبس على الطريقة العربية ولم يعد ينتظر كالسابق ساعات أمام باب القصر بين جماعة الزوار الذين يرغبون في لقاء أحد أفراد المخزن فكان بمجرد أن يأتي إلا ويدخله مخزني خاص إلى السلطان. وقد كان يحيط بموتمي عبدالعزيز بعض الحساد الذين لا يرتاحون إلى ماك لان، لكنهم كانوا، مع ذلك يسارعون إلى السلام عليه لأنه كان يحضى باحترام وتقدير باحماد وكل الوزراء. لقد كان رجل حرب قوي، ويشغل طاوره بنظام. وفيما كان الإنجليزي يعمل جاهدا على إمتاع السلطان بالمحادثات والظرف، وإبراز آخر مستجدات أوروبا الميكانيكية والتقنية، كان الوزير الأول يحكم وفده دون مراقبة، اللهم من عائلته وأصدقائه الذين يحيطون به في المخزن.

وقد جهز في خريف هذه السنة التي وصلنا فيها إلى مراكش عدة حركات للذهاب إلى ناحية سوس ورأس الواد، والاستطلاع حول ما يمكن أن يقع في هذه المنطقة⁽⁴⁾ لقد كان أهالي هذه الجهات في تمرد دائم منذ وفاة مولاي الحسن. أنا لم أكن من أفراد هذه الوحدات، ولا أعلم ماذا فعلت هذه الوحدات في تلك البلاد : انطلقت الأولى إلى هوار « بقيادة الباشا حمو بن الجليلي ومولاي عثمان عم السلطان، والثانية إلى شتوكة الموجودة في الجانب من هوار بقيادة القائد اسعيد الغلوي، والثالثة إلى واد ماسة بقيادة الحاج محمد ويذا الذي دافع بقوة عن مراكش، ومولاي عبد الحفيظ أخ السلطان. وكان أن عززت هذه الحملة بحمية قصبة تزيت القارة بقيادة القايد عبد السلام ايطو. وقد عرف الخزن في هذه المناطق أياما نحسات، انتصارات وهزائم. وقد نهب مرة، المعسكر الشريف لمولاي عبد الحفيظ. وبعد أيام أخذنا بعض الأسرى وحصلنا الضرائب.

ثم عادت، في الأخير، كل هذه الأفواج التي أنهكت البلاد عدة أشهر إلى تارودانت وأكادير حيث بعث إليهم بإحماذ عدة طوابير لتقوية صفوفهم، لأن أهالي تلك المناطق قد طاردتهم بقيادة محمد أهاشم شريف زاوية سيدي إحماذ أموسى، ولم ترجع وحدات في تزيت إلى قصبتها إلا بصعوبة كبيرة. ونجد الإشارة إلى أن أغلب الوحدات النظامية الحاربة ومدربها قد بقت مع السلطان بمراكش ولعل هذا ما يفسر فشل تلك الحركات الصغيرة التي كانت ترسل إلى هنا أو هناك، والتي لم تكن تستطيع مواجهة حتى بعض الجبناء.

وظلت جهة مراكش بعد هذا الصيف (1897) هادئة، كما كانت الإستعدادات جارية لمغادرة مراكش برغبة من السلطان والخزن والنظاميين والمدرين الأنجليز والفرنسيين.

هكذا غادرنا مراكش (16 شتبر 1897)، حيث مررنا ببني مسكين والكعدة لنعسكر بصخرة الدجاجة بوادي زم على الحدود بين تادلة، بسبب ما يلي. لقد ثارت القبائل المجاورة لقصبة بن أحمد : عشاش والخساسرة وأولاد أمحمد ببني إيمان والأولاد / الولاد ضد قائدها وحاصرته. فمكثنا في هذه الجهة أكثر من ثلاثة أشهر معسكرين تحت الخيام والبرد القارس. وقد كان برفقة السلطان، فضلا عن الوزير الأول / الصدر الأعظم وكل الوزراء المرافقين، قائد الحملة مولاي الأمين عم السلطان وسيدي محمد الأمراتي.

فكونا إثنا عشر طابور متشابهة، أحاطت بكل جهات صخرة الدجاجة لمحاصرة القبائل المتمردة، واجتياحها ونهبها وإرغامها على أداء الضرائب للمخزن. وكان مختلف قواد الطوابير يقولون للإنفصاليين المنشقين :

— استسلموا وأدوا مستحقاتكم من الضرائب، وحيثئذ سنغادركم إما إن رفضتم فإننا سنظل بأراضيكم وستكونون مرغمين على مؤونتنا وتغديتنا إلى أن تفقروا وتصبحون أعزى من كأس كما يقال.

فسارعت القبائل المعنية بآداء الضرائب بصخرة الدجاجة، لكن يبدو أن هذا الإجراء لم يشف غليل المخزن، فكتب السلطان، بإيعاز من باحماد، إلى قواد الطوابير الإثناعشر : « إنني مسرور منكم، لكنني لاحظت أن عملياتكم الصغيرة قد دامت مدة أطول. لهذا يجب أن تقضوا على هؤلاء المتمردين إطلاقا، ولكي تكون عملياتكم أسرع وأنجح فإنني سأحدد لكم يوما وساعة واحدة لانطلاقها وتكونون متفقيين على زمنها جميعا. وحينها سوف تجتاح كل وحدة المنطقة التي توجد أمامها. وتنحي كل الجهات التي تقاومها. وتجلب إلى صخرة الدجاجة الأسرى والقطعان والمؤونات وكل ما يمكن أن يؤخذ وينقل . وبوصول هذا الأمر إلى كل جهات الطوابير انطلقت بسرعة لأداء المهمة واجتياح كل هذه الجهات حيث أسرنا 800 أسير، وجلبنا عددا كبيرا من رؤوس الأغنام والأبقار والخيول دام توزيعها مدة طويلة، وعندما قسم كل شيء « وشبع » المخزن. أمر السلطان بجمع الأسرى في عشر مجموعات وأرسلهم إلى الرباط وسلا وتطوان والعرائش ومكناس وفاس ومراكش وآسفي والصويرة، ثم أعطى إشارة الإنطلاق.

وقد كان هؤلاء الأسرى في صف من 15 إلى 20 فرد في قيد واحد متبوعين بسائهم وأطفالهم وكان منظر رؤيتهم وهم يقطعون، وبصعوبة، المسافات الطوال وبسرعة وتحت التعذيب أمرا يدعو على الشفقة، فملأوا سجون القصبات والمدن وأماكن متعددة حيث كانوا يجدون في أماكن عديدة منها رفاقهم الرحامنة.

كما كان هناك أيضا عشرات الرؤوس المقطوعة بعث بها لتعلق على جدران قسبة الوداية بالرباط. لقد كان انتقام المخزن عنيفا جدا. لكن السلطان الشاب أو من يأخذ بيده كان يريد أن يظهر للجميع أنه قوي خاصة بعد هذا الإجماع والتوزيع العنيف لهؤلاء الأسرى على كل جهات البلاد، وأراد أن يظهر لأهالي البلد والمدن العقوبة التي تنتظر المتمردين.

وللرجوع، عبرنا الشاوية من المزامزة وأولاد اسعيد ثم لنصل إلى أزموور وبعدها توجهنا نحو مراكش.

وبوصولنا إلى واد تانسيفت، عسكرت الحلة اثنا عشر يوما قريبا من القنطرة، حيث جاءت كل فخذات الرحامنة للسلام على السلطان وتقديم المؤونة، وكذا بعض الهدايا كما جرت العادة بذلك حين عبور السلطان بلدا ما. لكن السلطان اعتقل كل هؤلاء ومرافقيهم، وعين على كل الرحامنة القائد سي عبد الحميد الذي كان بمولاي بوشعيب والذي كان أيضا طرفا في المفاوضات مع هذه القبيلة حين خضوعها.⁽⁴⁾

وبعد تسوية جميع الأوضاع والأمور دخل السلطان إلى مراكش وسط الإحتفالات المعتادة، حيث أقام في هدوء وأمان.

وكان القائد اسعيد الغلولي العامل على كل بلاد حاحة تقريبا، قد قام «بصوكة» إلى سوس الذي بدأت الأوضاع تهدأ فيه تدريجيا.

وفي الوقت الذي كان فيه مولاي عبد العزيز يستقبل السفراء⁽⁵⁾ الذين كانوا يأتون بالهدايا - حيث لم تكن تمر سنة دون مجيء سفراء أوروبيين : فرنسيين وألمان وأنجليز وإيطاليين وإسبان إلى القصر محملين بالهدايا، طالبين بالمقابل بعض الإمتيازات التجارية لبلدانهم وأراضيهم أو تصفية بعض العصابات - أرسلت حركة سي محمد الأمراني لتسوية الأوضاع بمنطقة جبال المتمردة، كما بعث الباشا ادريس بن يعيش من وجدة إلى تطوان ليرجع الأمور إلى نصابها بقوته وصرامته المعهودة كما جهزت أيضا محلة ضد مسفيوة الذين حاولوا قديما الإستيلاء على أكدال، حيث التقت في طريقها حركة من كلاوة بقيادتها سي المدني من تلوات.

وقد كان مسفيوة الذين استسلموا وخضعوا بعد انهزام الطاهر بن سليمان، قد تمردوا من جديد، لكن ووجهوا وأدبوا بقوة وعنف، حيث اعتقل منهم العديد من الأسرى، واجتاحت منازلهم وأخضعوا قسرا.

وبعد مرور بعض الوقت توجهت الأنظار والأسماع نحو المخزن. حيث كانت هناك أحداث على جميع محادثات الناس في الشارع : فقد توفي وزير الحرب سي اسعيد أخ باحماد، بعد أن عانى من المرض عدة أيام، ومات أيضا الحاجب الملكي سي ادريس أخ باحماد الثاني. ثم جاء دور الوزير الأول / الصدر الأعظم باحماد ليعاني بدوره من وعكة صحية حادة. وقد كان باحماد الذي رأى -وأمام عينيه- اختفاء أخويه يحاول التجلد والصبر. فرغم كل الأدوية المستعملة، ورغم اجتماعات الأطباء بما فيهم الأوربيون الثلاث ليناريس، وطبيب سفارة جاء إلى مراكش، والأطباء التقليديين والفقهاء المسلمين مثل سي محمد غرنيط المحتسب الحالي لفاس الجديد، ورغم فحوصات آلة كهربائية كانت ضمن أمتعة ماكلان، فإن الوزير الأول / الصدر الأعظم مات بعد أسبوعين من مرضه (13 ماي 1900)

وقبل ذلك بأيام، مات أيضا سي ادريس بن العالم قائد المشور الذي كان أطباؤه أقل لكن مات على كل حال. وكان الآخرون الذين بقوا ينتظرون الموت بدورهم يعيشون في هلع وخوف.

وقد أزعجت هذه الوفيات المتلاحقة المخزن كثيرا، لكن عمل بسرعة على ملأ المناصب الشاغرة فعين : سي لحسن أخ باحماد في منصب الحاجب الملكي، والحاج بن عبد الله بن أحمد قريب الوزير الأول / الصدر الأعظم المرحوم في منصب الوزير الأول. وسي محمد بن ادريس بن العالم القائد السابق في منصب قائد المشور، لكن لم يبق في هذا المنصب سوى خمسة أشهر أو ستة لأنه كانت له عدة عيوب، فقد كان رجلا مدمنا، وعلى ظهر يده

اليمنى تورم متعفن ميؤوس من علاجه. ولم يكن من المستحب رؤية الضماد على يده، وسيعوض فيما بعد قدور بن الغازي، ثم فيما بعد : ادريس بن يعيش المستدعى من تطوان. أما وزير المالية فضل هو موحا التازي الرباطي، الذي احتفظ بهذا المنصب منذ مولاي الحسن. وهو من نادى عليه باحماذ أثناء وفاة مولاي الحسن.

وضل منصب وزير الحرب شاغرا. وعندما تقلد الحاج ادريس مهامه، استنصحه مولاي عبد العزيز وطلب منه أن يختار علافاً جديداً.

فأجابه :-

إني أذكر أن باحماد : وقبل أن يموت قد قال، ضمن أشياء أخرى، أن الخليفة الأنسب لسي اسعيد المتوفى هو سي المهدي المنهي قائد المنابهة الحالي.

فقال السلطان :

___ بالفعل، سيصبح كذلك، لأن باحماد كان رجلاً ذكياً، وكثيراً ما زودنا بنصائحه الجيدة.

وفي اليوم الموالي، استعرض السلطان جميع قواد الرحي وعين عليهم قائدهم الجديد.

لقد كان وزير الحرب الجديد، الذي كان محط عناية باحماد، على علم بكل ما يحدث في المخزن إنه سيتقلد مهام جديدة، وسيلقي فيها كما تلقى سمكة في البحر. إنه شاب قوي ومحارب جيد، ومتعود على اتخاذ قرارات سريعة وصائبة، ولاشك أنه سيكون في المكان المناسب.

وبمجرد التحاقه ببنيقته قرب السلطان التي تركها باحماد، والتي كان من المفروض أن يكون فيها المختار، طلب منه مولاي عبد العزيز وجهة نظره في جميع القضايا المطروحة أمامه.

لقد بلغ السلطان عشرين سنة من عمره، أصبح يدرك فيها بعض الشيء كيف يحكم، لقد كان شاباً قوياً وصلباً وذو وجه بشوش، ووجنتين ممتلئتين، لكن دون شعر في الحية، يعشق الرياضة والترفيه والموسيقى. وقد كان مؤنسه ومضحكه جندي قديم من كيش لعرايش، يسمى علي البلوط، يرفه عنه في غرفته كما كان يطلب أحياناً من الشيوخ أن تغني له بعض الوصلات الأندلسية القديمة.

كما كان يعتني عناية خاصة بفرقة نحاسية شبيهة بالجوقة الحالية، لكن بدل حوالي 60 عازف كان هناك أكثر من 100 عازف بقائدين، تعزف كما هو الشأن اليوم كل مرة يخرج فيها السلطان ظهر يوم الجمعة للصلاة في القصر.

وكان له أيضا 10 عازفين على الكمان والرياب يدخلون إلى غرفه عندما يرغب في سماعهم، وقد كان المنهبي رفيقا حيويا ونشيطا يستشار في أمور الترفيه أو قضايا الدولة الصعبة، كان من عاداته البث في جميع القضايا بما في ذلك تلك التي لاتدخل في اختصاصاته، مما جعل قواد القبائل الذين يميلون مع الريح القوية يلجأون إليه في أمورهم مباشرة دون المرور عبر البنيقات الأخرى، فأصبح المنهبي الوسيط الوحيد بين السلطان والقبائل، مما جعل أهميته تزداد يوما بعد الآخر.

ولم يكن المهدي المنهبي محط رضى جميع الوزراء الذين أصبحوا مهمشين ولا يعلمون لماذا تصدر عدة قرارات دون استشارتهم، فأبدوا غضبهم من هذا الذي لم يعرفوه سوى مخزني. وكان أكثر هؤلاء غضبا الحاج المختار الوزير الأول. الذي عينه في هذا المنصب، وموحا التنازي أقدم وزير في المخزن.

فاشتكوا إلى مولاي عبد العزيز من سير الأوضاع.

— سيدنا إن هذه الوضعية الراهنة لايمكن أن تستمر على هذه الحال، إن وزير الحرب يعمل على الإستحواد على كل شيء، والبث في جميع القضايا وتسيير الشؤون، وبمباركتكم، لكل إدارات الدولة، إنه شاب مبتدئ، ليس له سوى خصال علاف، ومن أجل هذا استقدمه السلطان إلى المخزن، إن المنهبي لا يشعر أن بجواره وفوقه وتحتة وزراء أكثر منه أقدمية في المنصب وأثبتوا جدارتهم طيلة سنوات. ونرى أنه من واجبا إشعار سيدنا لأن سياسة وسيرا كهذا لايمكن أن يكون إلا سيئا ودون جدوى. وأنه ستحدث عنه مصائب لانريد أن نكون مسؤولين عنها.

فكر السلطان قليلا وقال للوزيرين :

— أرى أنكم على صواب، حين فكرتما بهذه الطريقة وأخبرتاني بما يروج في ذهنكما وسأعمل على الحد من نفوذ هذا الذي يزعجكم.

فرغم إجابة السلطان هته، فإنه ظل مؤيدا للمنهبي. لأنه يعتقد في قرارة نفسه أن هذين العجوزين ليسا سوى حسودين. أما هو فإنه يتجاوب مع الشاب المهدي أكثر من الشيخ المختار. فأثناء وزارة باحماد ظل بعيدا عن كل شيء، وكان يحكم بإسمه أما الآن فله صديق يخبره بكل الأشياء ويستشيرهم ويتفهمهم. فقد تقوت جناحاه وبدأ يفكر في الطيران وحده. أما مستشاروه فيتكلمون بأفكار قديمة لاتلائم سنه، ومن الأفضل تركهم وتهميشهم أكثر من معاداتهم.

وكان السلطان يقضي أوقاتا كثيرة في التنزه رفقة وزيره الجديد : حيث نظم هذا الأخير خرجات للصيد في ضيعة كبيرة بأكدال لقنص الأرانب والغزلان، والتمتع برؤية كلاب الصيد (السلوكي) وهي تجري بين الأشجار كالسهام. وكان كل يوم تقذف شهب /

مفرقعات اصطناعية ملونة في السماء تضيئ حدائق اكداال تعكس ألوانها على مياه الصهاريج المسابح الموجودة، وسط أعذب الألحان والأغاني، وحمل الخدم الحليب الطري المعطر وعصير الرمان والعنب. وقد كان المنظم والساھر على هذه الحفلات هو القائد ماك لان المقرب عند المنبهي الذي يزداد بدوره قربا وصداقة عند سيدنا، وكان قد جلبت عدة مفرقعات من اورويا أغلبها من انجلترا يصل ثمن بعضها إلى أكثر من 10 كتب. لكن لا يهم فالسلطان يتمتع بالحياة، ولا يحب أن يرى حوله ما يغضبه ولا سماع المختار وهو يقول للنازي.

___ أنظر ! نعتقد أن سلطانا يمكن أن يحكم هكذا، إنها تفاهات صبيان.

وكان المنبهي قد علم باحتجاجات هذين الوزيرين، ويمكن أن يكون مولاي عبد العزيز هو من أخبره بذلك؟. لكنه لم يقل أي شيء بل ظل محتفظا بصمته منتظرا الفرصة المواتية للإقنضاض عليهما.

وقال يوما للسلطان :

___ هناك أناس في المخزن، عيهم أنهم يجدون كل ما يقوم به غيرهم خاطئا، وهم لا يقومون بأي شيء. فلو تعلق الأمر بي أنا، فإنني سأتركهم يتكلمون وأتابع إنجاز مهامهم. أما أن يتعلق الأمر بالسلطان فأرى أنه تصرف غير مغتفر. فكيف يتجرؤون على مثل هذا يوميا، كما أعلم؟ فأنت سيدنا هو السلطان ! فلا يمكن أن تكون متسامحا أكثر مع مثل هذه الحريات غير المسؤولة. فامنع هؤلاء المشوشين الذين مسوا شخصكم المقدس / المحترم، فأظهر لهم حقا أنك أقوى رجل في المغرب. وأرهم فعلا أنك سلطانهم.

فأجاب مولاي عبد العزيز :

___ اترك ذلك؟ فلا بد أنه سيأتي يوم لذلك. . .

وكان الحاج المختار الذي كان عالما كبيرا مثل سي بوشعيب الدكالي الذي كان وزير الشكاية ينصح السلطان بالمقابل شغل وقته وباله بالكتب الجيدة، وأخذ أجود الأنواع الأدبية العربية والتاريخية التي تتحدث عن الفتوحات الإسلامية بما في ذلك فتح المغرب، وأخذ العبر من جدوده في تسيير حياتهم اليومية فاستجاب السلطان النصوح واستقدم فقيها وكتبا. وبدأ يدرس يومان في الأسبوع الأدب والأبيات الشعرية الأقل صعوبة. لكن انتهى كل هذا بسرعة حيث تسرب إلى نفسه الملل لأن سن الأخذ في المدارس كان قبل سن السلطان بكثير؟ فعوض الكتب بزرع الأرانب في أكداال، وألعاب الصالونات القادمة من انجلترا، والدراجات الهوائية من عجلتين أو ثلاث عجالات. . التي تركبها نساء الحريم السلطاني. فرجع مولاي عبد العزيز إلى تمتعه وترفه.

يحدث كل هذا في وقت شرعت فيه القبائل في التحرك والتمرد، حيث اجتاحت القبائل البربرية لبني مكييلد وبني وارين وآيت يوسي كل جهاتها وهاجمت القائد عمر اليوسي في قصبته. فبعت المخزن لمواجهتهم محلة من 3000 رجل بقيادة الحاج الأمراني أهاشم. وعندما حاصر بعض المتمردين بقصبة تزيت بعث المخزن رجالا آخرين لتحريرها.

وبقي السلطان في مراكز على نفس الحالة من الترفيه، حيث جيء بزوارق كهربائية لصهاريج أكдал. وأعتقد أن هذه الزوارق تعويض لمركب «الحسني» الذي اختفى بعد وفاة مولاي الحسن وتسريح طاقمها الإسباني وشراء فرقاطة صغيرة (البشير) Le Bachir. وكان المنبهي الذي ينتظر دائما فرصة الإنقضاض على الأوضاع، قد سمحت له الظروف المواتية لتتحية المختار وكل مناوئيه.

وقد كان الحاج مبارك بن بوشتي قائد أولاد بوعزيز (بدكالة)، الذي تقاسم السلطة على هذه القبيلة مع قدور الخلال القائد الثاني، يرغب كثيرا في أن يكون هو المولى والرئيس الوحيد. فجاء معا إلى الوزير الأول، الذي علم أن مبارك قد أعطى قدور الخلال 80000 دورو (400000 فرنك) مقابل تنازله له. وستكون له بالتالي كامل الحرية في أخذ الغنائم وقيادة فخذته. وقد كانت هذه الطريقة معمولا بها، وكانت وسيلة تدر الكثير من الأموال على خزينة المخزن الذي كان يعمل على مضاعفة مبلغ الاشتراء.

وكان مبارك يتوفر على هذا المبلغ كله ومستعد للآداء.

فقال له الوزير الأول :

— جيد ! لكن من أين لك بتلك الأموال التي تريد أن تشتري بها مكان / منصب قدور؟ فإنه مبلغ لا يمكن أن تكون قد أخذته من القبيلة. ولقد اقترضته من أحد الجنوك الأوروبية، لأنه مستحيل أن تبقى محافظا على مبلغ مالي كبير مثل هذا، وتعلم أن تصرفا مثل هذا لا يقره الدين والرسول صلى الله عليه وسلم. إن هذا عمل حرام، ولا أقر هذا الشراء. فارجع إلى بلدك واستحيي مما فعلت !

فوصل هذا الكلام حرفيا وتوا، إلى وزير الحرب الذي حكى ذلك إلى السلطان، خاصة أن القصر كانت له عدة نفقات. وأنه سيستفيع بهذه الأموال النازلة من السماء. وأن هذه الأموال ستضيع ونحن في حاجة إليها.

— هل تفهم، سيدنا، مثل هذا التصرف؟ ما العيب في الإبقاء على أشياء كانت معروفة منذ أجدادنا؟

أترى سيدنا؟ إن لك وزيرا أولا لا يعرف شيئا في مجال الأعمال والأموال. فعليه أن يعلم أنه يجب أن يكون من أولى اهتماماته تلبية رغباتكم، سيدي وبمختلف الأشكال.

فقال السلطان :

__ أعرف ! لكن لتغييره لابد أن أجد أحدا . من تريد أن نضع مكانه ؟ فأنا لأعرف أحدا أكفأ منه .

__ موجود !

__ من هو ؟

__ سي فضول غرنيط مثلا .

__ من ؟ أين هو ؟ فأنا لم أره قط .

فقال الآخر :

__ أنا أعرفه سيدنا ، لقد كان وزير الشؤون الخارجية في المخزن على عهد والدكم سيدنا مولاي الحسن رحمه الله . وقد كان محبوبا عند باحماد الذي قال له عندما جاء يحتج عليه عندها عين حولك الوزراء الجدد : « سي فضول ، إذهب إلى منزلك ولا تقلق فلن تحتاج لأي شيء ، فإنني سوف تأتي إليك ونعطيك ما ترغب فيه . » وقد بقي ينتظر وأعتقد أنه حان الوقت للوفاء بما وعد به الوزير المرحوم .

وهذا ما تم بالفعل .

كان سي فضول غرنيط مقيما بمنزل في مراكش . وعندما خرج المنبهي من القصر ذهب إليه وقال له :

__ سأعينك وزيرا أولا .

فقال له الآخر مندهشا :

__ المنبهي ! إذا قمت بهذا فسأكون لك ممنونا جدا . فبمجرد أن أصبح وزيرا أولا ، سأكون خادماك ، وسنسير معا اليد في اليد .

__ إذن اعتبر الأمر كما لو حصل بالفعل . فأنا أرغب كثيرا أن تكون أنت في مكان المختار الذي يحاول دائما أن يبيضق في وجهي ، ويقول لمن يريد أن يسمع له أنني (عروبي) من عائلة غير متعلمة كأرض يباب متحجرة . فأنت على الأقل تعرفني ، لأنني أصليح للحروب ولن تتصرف كالختار . ولهذا منحتك مثل هذا المنصب .

__ اجلسني على ذلك الكرسي أولا ، وسترى فيما بعد ! .

وفي اليوم الموالي وأثناء المخزنية (حصة استعراض المخازنية بالقصر) نادى مشاوري (أحد رجال قائد المشور) على سي فضول غرنيط إلى القصر . فقدم إلى المنبهي الذي رأى

(غرنيط) أن له مكانة رفيعة في المخزن. فنهض وقام لإستقباله في وقت كان فيه الوزير الأول سي المختار عند السلطان للتوقيعات. ثم وصل المتواطئين إلى بنية الوزير الأول.

فأدخل المهدي غرنيط إلى البنية، أمام مكتب المختار الصغير وأجلسه، والتفت إلى الكتاب الموجودين المستغربين مما يرون إلى درجة سقوط الأقلام من أيديهم وقال لهم :

— اسمعوا أوامر سيدنا : هذا هو الوزير الأول سي فضول غرنيط فانحنى الكل محيين. وقد كان قائد المشور سي محمد بن العالم على علم بكل هذه التحركات والعمليات قد فوجئ ! أليس هو المسؤول على إدخال الأغراب إلى القصر وطلب سبب الزيارة؟ فلقد نصب شراكا إلى صديقه المختار، لكن ما الذي بوسعه قوله أو فعله؟ أليس المنبهي أكثر قوة كسابقه باحماد زمن مولاي الحسن؟ فانحنى بدوره للوزير الجديد كأنه لا يعلم شيئا.

وهاهو الحاج المختار يخرج من مكتب سيدنا راجعا. فانحنى على بلغته ليأخذها. فجاء أحد كتابه الأوفياء، وأوقفه وهمس في أذنه :

— إلى أين أنت ذاهب الآن سيدي ! لقد شغرت بنيتك.

فقال غاضبا :

— آه ! جيد !

ثم أعطاه الأوراق التي كانت بيده واتجه نحو الباب، حيث مر بعيدا عن بنيقته. فانحنى أمام غرنيط الذي كان جالسا في بنيقته فيبارك، ثم خرج، وبمجرد وصوله إلى منزله، جاءه أمر بمغادرة مراكش نحو مكناس حالا. فقال لمن جاءه بالأمر.

نعم أنا مستعد، لأطلب أكثر، فأنا مسرور بالذهاب توا. لكن كيف أستطيع حمل امتعتي؟ يلزمي أكثر من 30 بغلة.

وبعد ساعة أحضرت إلى بابه البغال الضرورية. فأعد رحيله ليلا، وفي الفجر غادر مراكش عبر باب الخميس. ووصلت القافلة إلى سيدي بوعثمان حيث قضت الليل. لكن في صبيحة اليوم الموالي أحيطت البغال التي كانت تعد للرحيل من جديد بوحدة من فرسان المخزن الذين تركوا نساء وخدم القافلة جانبا، ثم أخذوا الأمتعة وقالوا للمختار !

— كل ما يوجد بين أيدينا الآن هو للمخزن ويجب أن يرجع حالا إلى مراكش. فنحن لا نطبق إلا الأوامر.

فأجاب العالم :

— نعم ! لقد كنت أنتظر ذلك. لكن أرجو منكم أن تتركوا هذه « الشواريات »⁽⁷⁾ فليس بها إلا كتبي، أصدقائي الحقيقيين. ومن بينها صحيح البخاري الذي أعزه أكثر من عياني، فلا يمكنكم أخذها.

فتش الرجال، ولم يجدوا سوى كتباً كبيرة يعلوها غبار الطريق. فقرروا أن يتركوا له الشواريات (وكان الناس يقولون أن باطن تلك الشواريات كان كله ذهب. قد يكون ذلك صحيحاً ! ومن يدرينا؟)، كما تخلي له عن بعض الأعطيات، وزرريات أو ثلاث وألبسة قليلة جداً للإستبدال، ثم تابع الطريق نحو مكناس في حين عاد المخازنية محيطين بالبغال التي تحمل ثروة الحاج المختار بن عبد الله بن أحمد ⁽⁸⁾ إلى مراكش.

وهذا ليس كل ما حدث، فبينما كان قائد المشور سي محمد بن العالم يمارس مهامه داخل مكتبه بالقصر، نهبت داره بأمر من المخزن، وعندما جاء لإمتطاء بغلته، قدم أحد ليقول له :

— ألا تعلم سيدي محمد ؟ لقد اعتقدتكم مت ؟! إن المخازنية الآن يعملون على تترككم (أي تركه دون ثروة أو نهب أمواله وأمتهته).

فسارع المسكين المصدوم نحو منزله، حيث وجد الباشا العربي بن عبو المكلف بتنفيذ العملية الذي أخذه من يده وقال له :

— آسي محمد هذا يوم نحس، إنه شيء مقدر. ما العمل ؟! لكن لا تبقى واقفا هكذا تعال واجلس على الأقل هنا قرب الباب.

فأخذت أمتهته جميعها، ودخل ليجد غرفه الكبيرة مفرغة تماماً. ولم يعد بإمكانه سوى الذهاب إلى مكناس مع بعض أمتهته المحملة على البغال، والحراس المنتظرين في الشارع. وأصبح خليفته فيما بعد : القائد قدور بلغازي من البخاريين.

وفي اليوم الموالي أيضاً، اعتقل الحاجب : سي لحسن بمجرد وصوله للقصر، وأبعد إلى تارودانت وحل محله سي أحمد الركينة التطواني.

وهكذا لم يبق في المخزن أي أحد من عائلة باحماد، كما أبعد أصدقائه بالطريقة التي حدثت عنها.

وكان مجمل هذه الإجراءات والأحداث مؤشراً بالحيلة والحذر لأعداء المنهبي خاصة أن أحدهم وهو وزير المالية موحى التازي يتنظر بين الفينة والأخرى مجيء المخازنية لاعتقاله. وقد طلب، بتوسط من سي فضول غرنيط، مقابلة سي المهدي المنهبي. وقال له بأنه سيقدم استقالته للذهاب إلى الحج، تقبل طلبه، لكن بمجرد مغادرته مراكش أعطيه رسم بعد وجود مستحقات له عند المخزن. وهذا ما كان يطلبه (حيث نحى بأمتهته) فذهب إلى مكة، وعوض بالشيخ التازي الفاسي.

وهكذا ترى أنه من خلال يومين أو ثلاثة أيام غير وزراء مولاي عبد العزيز، فلم يعد هناك سوى رجال موالين للمنهبي أغلبهم شباب. ويبدو أن المنهبي قد ورث كل شيء عن

باحمد الذي كان مهتما به كثيرا في أثناء حياته. فقد رتب كل شيء ليحكم المغرب بشكل مقنع. لكن كان يوجد من ضمن الوزراء الذين عينهم « ثعلب » ذكي له نظرة ثابتة على المدى البعيد : إنه سي فضول غرنيط الذي يجلس في بنية الوزير الأول الذي يعمل على ممارسة مهامه على أحسن مايرام.

وقد قال يوما للسلطان.

— يجب علينا أن نبعث سفراء لأوروبا، لأنه من الأفضل أن نربط علاقات « دبلوماسية مع القوى الكبرى المغربية، خاصة أن لها بنوكا كبيرة ⁽⁹⁾ وامتيازات عدة.

فقال السلطان :

— إنها فكرة جيدة. لكن من سنبعث؟ وإلى أين؟

— أعتقد أن سفيرا واحدا غير كاف للقيام بكل المهام. حتى لا نشير تحاسد النصارى. فلهذا أرى أن تكون لنا سفارتان : الأولى إلى فرنسا برئاسة وزير الشؤون الخارجية سي عبد الكريم بن سليمان المؤهل لمثل هذه المهمة (للإشارة فإن سي عبد الكريم هذا هو الذي عوض سي فضول غرنيط عندما طلب منه باحمد مغادرة سكناه). وسنغزه بثان : سي محمد الكباش (خليفة وزير الحرب). أما الثانية فستعطي إنجلترا وألمانيا، الذين أرسلوا إلينا سفراء، هذه السفارة بشؤون الحرب وسيكون على رأسها وزيرنا في الحرب : سي المهدي المنبهي بإعانة من الكاتب الحاج عمر التازي والقائد ماك لان.

وبعد مرور عدة أيام، استجيب لوجهة نظر غرنيط، وغادر السفراء المعنيون البلاد (1 يونيو 1901).

إنها عائلة / منزل المنبهي في الواقع التي ذهبت بكل أعوانها. فأصبح الوزير الأول سيد الوضعية وأصبح يتقرب شيئا فشيئا من السلطان وأصبحت مكانته تترسخ يوما بعد الآخر. وكان يقدم النصائح للسلطان بين الفينة والأخرى ويعمل قصارى جهده ليووجه الأمير نحو أمور أكثر جدية.

وقد قال للسلطان :

— سيدنا، لقد اشتغلنا مع آبائك من أجل المصلحة العامة لهذا البلد. ولكي تصبح بالفعل أميرا سأدلك على الطريقة المثلى : فتدخلات المنبهي غير المتناهية، وحفلاته التي ينظمها من أجلك، يهدف منها إزالتك من على عرشك والحكم مكانك. لقد كان يريد أن يزوج بك في طريق خاطئة، بل الأدهى من ذلك أنه يريد أن كل الأمور على أحسن مايرام.

أنصت السلطان بكل برودة لهذا الكلام، لأنه كان لا يحب أن يذكر صديقه بسوء. لكن مادام هذا الأخير بعيدا عنه الآن، فإنه محتار في أي الآراء والطرق يتبع. وقال في الأخير للوزير الأول :

نعم، ما قلته صحيح، فالسلطان يجب أن يحكم لا أن يمزح.

وبدأ من هذه اللحظة شرع سي فضول غرنيط في الحكم الفعلي.

وفي الوقت الذي كتب فيه إلى ادريس بن يعيش بالحيي إلى مراكش إلى جوار السلطان اعتقل عيسى بن عمر قائد عبدة : حيث غادرت محلة كاملة : جنود نظاميون وخيالة ومدفعية بقيادة سي قدور بلغازي قائد المشور، عززت فيما بعد بوحدات دكالة واحمر وعبدة، مراكش تجاه طريق آسفي، حيث وصلت إلى دار سي عيسى وإجتاحت أملاكها واعتقلت القائد، ورجعت بعد ثلاثة أيام وقد أنجزت مهمتها.

وبوصول ادريس بن يعيش إلى مراكش، أدخله غرنيط إلى القصر ونصبه قائدا للمشور بينما خلع قدور بلغازي من عبدة، وأرسل لتعويض ابن يعيش في تطوان.

وهكذا بدأ نفوذ غرنيط يزداد يوما بعد آخر، في حين أصبح أتباع المنهبي الذين اختفى رئيسهم مهمشين قلقين، وكانت آخر ضربة عنيفة تلقوها هي تعيين وزير حرب جديد : الحاج عبد السلام بن شكرة الزمراني، في وقت كان يستعد فيه الوزير القديم للرجوع.

وأقنع السلطان بأن وزيره القديم، الذي لم يكن سوى مخزني، مدين في أمواله ومنازله الفارهة للمخزن، حتى إنه أصبح يعرف كابن عائلة كبيرة ميسورة. فكل ما في ملكه هو للسلطان، الذي ليس عليه سوى إعطاء أمر لإسترجاع هذه الأشياء. الم يفعل الشيء نفسه الحاج المختار؟

لكن مولاي عبد العزيز كان مترددا بعض الشيء في التضحية بصديقه القديم تاركا البث في الأمر إلى حين رجوع المعني بالأمر من سفارته حيث سيقف على نتائجها، وبالتالي التفاهم معه أكثر. لكن لم يكن يرى مانعا من حراسته ومراقبته بمجرد وصوله إلى طنجة. فأعطى غرنيط تعليماته بهذا الخصوص ليس فقط إلى حراس السواحل، بل حتى إلى حراس أبواب مراكش وباعتقاله أثناء مروره بها، وقيل أيضا إنه على طول الطريق الساحلية إلى مراكش كانت مراكز حراسة تترقب وصوله إليها.

وكان المنهبي الذي يسافر رفقة القائد العربي - مول الفراك حاليا، في عهد مولاي يوسف، والذي يحمل على رأسه عمامة كبيرة، قد علم بالخدعة المدبرة، ولكن لأعلم كيف علم بذلك؟ فيمكن أن يكون قد أخبر إما في برلين أو في مرسليليا. وفي الوقت الذي

كان ينتظر فيه وصوله إلى طنجة، وصل مساء ذات يوم على متن سفينة انجليزية إلى مازكان (الجديدة)⁽¹⁰⁾. وانتشر خبر وصوله، فسارع الناس إلى الميناء، بعضهم فرح مسرور من هذه العودة، والبعض الآخر مغضب قلق يدفع بيده المتزاحمين لرؤيته لم يكن هذا هو الإستقبال اللائق يأخذ المقربين عند السلطان، ولم يكن الوصول شبيها إطلاقاً للناس الذين يتدافعون اماما في الطريق :

— أرجوكم، فأنا متعب من السفر في البحر، اتركوني أسير أمامكم واتبعوني وجاء باشا مازكان الذي لم يتوصل بأي أمر من مراكش باعتقاله. هل يجهل فعلاً بما يحدث أم أنه ماكر محتال؟ فقال له الوزير السابق :

هيء لي الحمام فأنا بحاجة إلى استراحة أكبر.

فقال الناس :

— إذهب ياسيدي وخذ حمامك بسرعة وارح، لأنه، وبعد قليل في المساء، سوف يأتي مخازنية سي فضول لإعتقالك حين تكون في الحمام.

لكن هاهي بعض الخيام قد نصبت بالقرب من المدينة : إنه القائد سي الطيب الكندافي الذي كان مارا صدفة بالمنطقة، مع عدد مهم من أتباعه حيث سيعسكر أمام أبواب الجديدة. فذهب المنبهي لزيارة صديقه. وأرسل كاتبه ليقول إلى باشا مازكان :

— إن سيدي، سيذهب مع بعض أصدقائه لزيارة زاوية مولاي عبد الله⁽¹¹⁾، وأنه لن يأخذ حمامه إلا بعد رجوعه.

وفي حدود وقت العشاء، ركب فوج الزوار خيولهم، وقد كان منهم وزيرنا القديم الذي يحمل في عرض سرج جواده بنديقية انجليزية حديثة الصنع وكيسا يحتوي على بعض أجود أنواع الرصاص، مع بعض عبيده السود. وكنا نلاحظ غياب ماك لان الذي بقي، حذرا، في أوروبا والذي لن يرجع إلا بعد ذلك. كما كان بعض القواد في هذا الموكب، مثل سي الطيب الكندافي واحمد بن العربي الذي كان يتهيا أيضا مع خليفته، والقائد ابن الجليلي. فاختفى الموكب في اتجاه زاوية مولاي عبد الله.

لكن بدل متابعة السير في الاتجاه الذي قالوا عنه، انعرجوا نحو مراكش، حيث انطلقوا بسرعة كبيرة وقضوا الليل كله تحركا ليصلوا في الصباح إلى مظل⁽¹²⁾، وهي منطقة في مرتفع بين دكالة والمنابهاة حيث توجد بعض آثار قصبة برتغالية. فتوقفوا كثيرا لأن الخيول قد تعبت وكلت. ثم وصلوا بعد ذلك إلى دار القائد المنبهي التي أقاموا فيها بعض الأيام للاعتناء بالضيوف واستبدال الخيول. وطلب المنبهي من القائد الكندافي أن يصحبه

وأفراد قبيلته إلى مراکش. وفعلوا اتجه الموكب نحو العاصمة، وفي الطريق أخبر الفلاحون الراجعون من السوق أفراد الموكب أن حراس الأبواب قد أعطيتهم أوامر بالقبض على المنبهي. وبالوصول إلى جبل جليز، بقي جل أفراد الموكب في الورا، في حين إتجه الوزير مع الكندافي وحدهما أماما، وعندما بدت لهما أسوار باب دكالة، تنكر الرجلان في لباس مخزنيين، فسار بهدوء على طول الأسوار ليدخلوا من باب القصيبة، الذي هو باب من أبواب القصبة التي يمكن أن يدخل منها مخزنيين لإطلاع الباشا على انجاز مهامهما. ولما كان الحارسان يشربان الشاي، وملتفتين خلفا، انطلق أحد الفارسين ملثما يجري بفرسه فقال أحد الحراس :

— إني أعرف هذا الفارس، إنه المنبهي، الوزير القديم.

لكن كان الوقت متأخرا، فقد وصل هذين الرجلين بسهولة إلى دار المنبهي حيث سيقفون فترة من الراحة.

وقد شاع خبر هذا الرجوع بين الناس، حيث تناقل الخبر من دكان إلى دكان ومن سوق إلى آخر. إلى أن وصل النبا إلى القصبة حيث اعلم بذلك السلطان، الذي طلب المنبهي ليعلم نتائج سفارته فبادر المنبهي بسرعة إلى اطلاع مولاي عبد العزيز بكل ما أنجزه، ثم قال :

— سيدنا ! ماذا يريد أصحابي ؟! إنهم يريدون اعتقالي، فالحمد لله الذي مكنتني من رؤية السلطان مرة أخرى. إنها الخيانة إذن ؟!

— لا، يا المهدي، فأنا لم أحنك، وإنما كنت خائفا على حياتي، فقد كنت أخشى من السم إن أنا تمسكت بك، ثم إنك كنت بعيدا. فغيابك ترك في نفسي أثرا سيئا، وكنت أظن أنك لن ترجع، لكن ها أنت الآن قد عدت، فاهدا فكل شيء سيسير على أحسن مايرام.

فخرج المنبهي من القصر مزهوا متبخترا لا كما دخل إليه.

لقد علمت كل مراکش الآن أن الوزير القديم قد رجع، وأنه قد استقبله السلطان، وأنه قد جاء بأشياء عجيبة ومهمة من بلاد الروم. ثم اجتمع كل من قال فيه سوءا في غيابه، للتشاور فيما بينهم خوفا من انتقامه. فسارع قائد المشور ادريس بن يعيش إلى سي فضول غرنيط الذي يبدو هادئا ليخبره بما وقع. فقال له غرنيط :

— نعم، فأنا على علم بالخبر، لقد أفلت من بين أيدينا، والآن، ماذا ترى أنه سيحدث؟ فإن الكلب لم تعد له أنياب يعض بها. فلقد أحرقت أوراقه عند السلطان، فغدا يجب أن نكون لبقين ومرنين ومحتالين لكي تدبر له مكيدة قبل أن يديرها هو لنا.

— مالذي تريد فعله؟

— سأسجنه غدا صباحا عندما سيأتي إلى القصر. إنه حتما سيأتي غدا صباحا.

— لكن هل ستعتقله هكذا دون أوامر.

— لم لا؟ فليس على السلطان سوى الصمت. . حين اعتقاله فسترى.

وقبل أن يغادر المنبهي القصر كان قد أخذ من السلطان الإذن بإطلاق سراح صديقه القائد عيسى بن عمر، ثم ذهب إلى باشا القصبه العربي بن عبو، الذي كان بدوره من أتباعه فأعطاه التصريح بإطلاق سراح السجين الذي أخذه معه إلى منزله.

وفي اليوم الموالي، كان سي فضول غرنيط قد أعطى الأوامر باعتقال هذا القائد بمجرد وصوله إلى القصر، لكن لم تكن نعرف متى سيكون الاعتقال هل حين دخوله أم خروجه من الإستقبال لقد كان الكل يترقب هذا المشهد التاريخي.

وحوالي الساعة الثامنة وصل المنبهي رفقة سي عيسى بن عمر الذي لم يكن مجيئه وظهوره منتظرا - على البغال وخلفهما المناهبة وكندافة على الخيول مسلحين مستعدين للمواجهة. فكسى هؤلاء الفرسان كل ساحة القصر، لا يعرفون ماذا ينتظر منه. وهكذا دهش الذين شتموا المنبهي في غيابه، من هذا الدخول الرائع وغير المنتظر. فأطرقوا يفكرون مطأطئين. ومر المنبهي بكل تبختر أمام بنية بن شكره الذي حاول عبثا الإختباء وراء قمطر مكتبته الصغير. هؤلاء الفرسان الذين لا ينتظرون سوى الأمر بتنحية أسيادهم.

فقالوا :

— لقد جئنا في الواقع لاعتقال هذا الرجل، لكن يبدو ذلك شيئا مستحيلا. فهاهو قد دخل بكل اعتزاز وفخار إلى هذه الدار ولانعلم مالذي جرى بينه وبين سيدنا في المساء؟ ثم، انظروا إلى سي عيسى بن عمر الذي كان سجيننا بالأمس، بجواره وكل جنوده مسلحين. فما العمل؟ من الأحسن الإنتظار بعض الشيء.

وعلى القرب من صهريج صغير في ساحة البنيقات جاء عبد أسود من « موالين الدحو »⁽¹³⁾ يجري، ويصيح بصوت مرتفع.

— المهدي ! السلطان يطلبك.

فبقى سي عيسى الواصل من جريان الأحداث لصالحهما، في الخارج مع أتباعه في حين دخل المنبهي في حوار مع سيدنا. ماذا تقولون؟ فلقد استرجع سي عيسى كل نفوذه القديم على عبدة بفضل هذا الذي كان من المنتظر اعتقاله. أما سي فضول غرنيط فقد انسحب إلى

منزله متثاقلا وقد ازدادت حرارة جسمه (حمى) حتما مرتعدا كله، كما اختفى ابن شجرة على بغلته، وهكذا استعاد هذا الذكي بنيقته.

وقد كان الكل غير قادر على متابعة ما يحدث.

___ جيد ! فهذا هو ادريس بن يعيش يتجه نحو المنهي، ويتبادل معه التحايا بحرارة فأمسك العلاف بيده وذهبا معا، ليصلا عند عيسى بن عمر ذي الوجه المتلألأ الفرح، لأنه أصبح من جديد قائدا على عبدة، وأصبح صديق من جديد وزيرا، ولم يكن في هذا الواقع هذا هو المشهد المنتظر، لكن علينا أن ننتظر، لأن الرياح التي كانت تأتي من الشمال أصبحت تهب الآن من الجنوب.

واستدعى المنهي ابن يعيش إلى وجبة غداء، ثم قال له عندما كانا راكبين في اتجاه منزله :

___ إن البغلة التي تركيها من الدرجة الرابعة لا تليق بمقامك ومهامك.

___ فقال الآخر :

___ لقد جئت من تطوان منذ مدة قصيرة فقط، وهي الوحيدة التي أملكها الآن.

و بمجرد وصولهما إلى المنزل، أهداه المنهي بغلة « بسريجة » حمراء، وكيسا من 2000دورو (10000فرنك فرنسي). فقال ابن يعيش مسرورا :

___ حفظكم الله، ورضي عنكم.

فقال المنهي.

___ جيد فنحن أصدقاء، وأنا سعيد بلقائك. لكن قل لي بصراحة، مارأيك في كل هذه المهزلة ألا ترى معي أن أناسا مثل هذا القرد العجوز غرنيط حقودين ولاتستطيع فهم تصرفاتهم؟ فكيف تصدق أن رجلا أنا من بحث عنه وعينه وزيرا أولا، لأنه مسن ومجرب ليكون لي عوناً عند النصح، يتقممني بهذه الطريقة؟ لا أصدق ! إنه ناكر للجميل، جبان، خائن.

فأجاب قائد المشور.

___ أنت على حق سيدي، ولكن لا يمكن أن أخبرك بأي شيء لأنه لا علم لي به. فأنا لم آت من تطوان إلا منذ مدة قريبة لأعين قائدا للمشور مكان قدور بلغازي، فأنا وافد جديد إلى هذا المخزن، كالطفل أجهل كل شيء. لكن أؤكد لك أنني لست منحازا لأي جهة.

فقال المنهبي :

— أنا واثق من تصرفك، وأشكرك على ما قمت به صباحا.

لكن أنصار غرنيط لم يرموا السلاح بعد، بل كانوا يفكرون في اللجوء إلى العنف، حيث قرروا إغتيال المنهبي سرا يوم الجمعة الموالي عندما يأتي للصلاة. لكن أحدا ما أخبر مولاي عبد العزيز بالمؤامرة التي تدبر ضد صديقه المفضل. فطلب منه أن يبقى في منزله ذلك اليوم، ففشلت بالتالي العملية.

لكن السلطان الذي تعب من هذه الدسائس والصراعات التي تمزق كيان المخزن، والذي خاف أيضا من أن تؤدي هذه المشاكل إلى مواجهات دموية، قد قال بعد أن فكر في الأمر جليا.

— إنه أنا من يجب عليه أن يرجع النظام إلى صفوف المخزن، وتذكير وزرائي المتصارعين بمهامهم. والحل الوحيد هو أن يرجع المنهبي إلى منصب وزير الحرب قبل أن يعين سفيرا، وأستغني علي ابن شكره هذا الذي لم أر منه أي شيء.

وفي اليوم الموالي استدعى كل المخزن إلى القصر بما في ذلك قواد الرحى والأفواج النظامية وعند اجتماعهم جميعا قال :

أعين عليكم من جديد سي المهدي المنهبي، وزيركم في الحرب، المعروف عندكم بهذه الصفة.

وقد عينت أيضا سي عبد السلام بن شكره باشا على مدينتنا نازة.

ثم جمع كل وزرائه في مكتبه وعنفهم بالكلام، القاسي، حيث لامهم عن تخاذلهم فيما بينهم مما يتنافى مع سنهم وثقافتهم ووعيمهم.

— إنني أوصيكم جميعا، بأن لا يتعدى أحد مهامه المنوطة به، التي كلفناه بها. إنكم كلكم مستشارون في شؤون الدولة، ولاأميز أحدا منكم عن الآخر. إنني أحبكم كثيرا، لكن أحذرکم جيدا، فأول من سيزيغ منكم عن طريق سينال عقابا شديدا.

فوزيرنا الأول سي فضول غرنيط، ووزيرنا في الشؤون الخارجية هو سي فضول غرنيط، ووزيرنا في الشؤون الخارجية هو سي عبد الكريم بن سليمان ووزيرنا في الحرب هو المهدي المنهبي ووزيرنا في المالية هو الشيخ التازي، وقائد مشورنا هو سي ادريس بن يعيش، وحاجبنا هو سي احمد الركينة. فأريدكم أن تكونوا متحدين كأصابع اليد الواحدة. وهذا شرط أساس لكي يمكن لهذه اليد التي هي أيضا يدنا أن تشتغل وتعمل. فإن لاتنافر

ولاتعارض ولاعداوة فيما بينكم، أريدكم أن تكونوا أعضاء من عائلة واحدة، عائلة المخزن، وأطلب منكم الآن أن تتصالحوا جميعا أمامي.

فتصافح الوزراء فيما بينهم بحرارة كما لو أنهم عادوا من سفر طويل.

وبعد هذا اللقاء، عاد الوزراء فرحين كما لو أن كل واحد منهم أخذ في يده فأسا لتحطيم المخزن، وتكوين ثروته الشخصية.

ورغم كل مراسيم الصلح هته، فإن الوزير الأول كان ينتظر دائما الفرص لإسقاط والإنقضااض على المنهبي. لكنه لا يمكن أن يصل إلى أي شيء مادام السلطان في مراكش لأن المنهبي بها عدة أصدقاء وأتباع وقبيلته الأصلية قريبة أيضا. فكان يبحث عن طرق يرجع بها السلطان إلى فاس. فنودي على مولاي عبد الحفيظ أخ السلطان، الذي كان خليفة تزنيت، جهة سوس، وجعلت مراكش مقرا لسكناه وأصبح خليفة للسلطان على الحوز وسوس.

فانطلقت الحملة بالشكل المعتاد (20 نونبر 1901) بعد إقامة ست سنوات في الجنوب. وصمنا رمضان (1319هـ) (14) بالرباط التي أقام فيها السلطان حتى يشهد احتفالات العيد الصغير (عيد الفطر). وقد كانت هذه الإحتفالات رائعة : ارتدت فيها أفواج القائد ماك لان بدلة حمراء جديدة شبيهة بدلة الحرس الحالي، بأسلحتهم الجديدة والملمعة التي تمتع العين، وقد كان قائدهم يحضى باحترام الجميع، وكما كانت كتيبته من جنود شبان متتقين من القبائل المخزنية يصل عددهم حوالي 3500 جندي والمتبوعة بفرق الرشاشات -Garner Maxims - مكونين لجيش صغير، وقررالسلطان ترقية ماك لان إلى رتبة عسكرية مغربية كبيرة مثل الجنرال الفرنسي. ومنذها لم يعد يسمى ماك لان، إلا : كرونيل (تخريف الكلمة كولونيل). وقد كان تحت قيادته عدة مدرين انجليز من ضمنهم الملازم Verdon، الذي سيقتل فيما بعد في فاس سقوطا من احدى الشرفات، ثم أخ الطبيب Verdon الذي جاء إلى المغرب طبيبا لماك لان وعائلته؟ والذي جيء به أيضا لمعالجة باحماد المتوفى. والذي كان يتدخل أحيانا في شؤون المخزن بفضل تأثير ماك لان.

وكان في الميناء فرقا طتان (15)، حملت سفيرين فرنسي وانجليزي استقبلا في القصر وقد كانت تطلق هاتان السفينتان أضواء على البحر والمدينة. كما كانت مناورات للقصف بالمدافع على هدف جعل في البحر في أعالي القبيبات حتى يتمكن السلطان من تتبع المشهد من قصره. وقد كان الفرنسيون يقذفون بدقة كبيرة نالت إعجاب المتتبعين.

وبعد إقامة شهرين أو ثلاثة اشهر ذهب السلطان إلى مكناس. وبعد بضعة أيام دخلنا فاس وسط أجواء الإستقبالات والإحتفالات المعهودة (مارس 1902).

الهوامش

- 1- وبالضبط من مارس 1896 إلى نونبر 1901
 - 2- يتعلق الأمر بالسفير Sir Arthur Nicholson الذي جاء من آسفي في مارس 1896 على متن سفينة Arethuse، فوصل إلى مراكش في أبريل، ثم غادر المغرب عبر طنجة شاهدا على هدوء الأوضاع، حسب رأي سالم العبيدي.
 - 3- انطلقت هذه الحملات نحو سوس ما بين أكتوبر ونونبر 1896.
 - 4- لقد حدد الدكتور Weisgerber - الذي تابع محلة صخرة الدجاجة، لمعالجة الوزير المريض - الطريق الحقيقي لهذه العودة التي دامت ثلاثة أشهر.
- (In trois mois de Camagne au Maroc:édit:1904).
- حيث كان الإنطلاق يوم 1/21-1898 من ابن احمد ثم سطات (حيث أهدي للوزير باحماد10خيول عبيد ذكور) ثم سوق جمعة اولاد سعيد ثم مولاي بوشعيب قرب أزموور (يوم 15/3/1898). حيث تم عبور الواد على متن 20 زورق دام أربعة أيام من 12 إلى 15 وقد كان هناك عدة غرقى، وإتلاف عدة بهائم، ثم سوق الأربعاء بدكالة ثم ثلاثاء سيدي بنور ثم امطل ثم السوينة ثم قنطرة واد تانسقيت يوم 25/3/1898 وفي الأخير مراكش عبر باب الرب يوم 62/3/1898. مما يعني أنه لم يكن هناك توقف بقنطرة تانسقيت كما يحكي سالم العبيدي إما الإجراءات التي اتخذت ضد الرحامنة لم تكن إلا في العيد الكبير (عيد الأضحى) من هذه السنة يوم 2 ماي (1898).
 - 5- يتعلق الأمر بسفارة فرنسية(de:Monbel M) وسفارة ألمانية :
 - 6- عوضه مولاي يوسف يوم 10 مارس 1924 بيسي عبد الرحمان بن القرشي.
 - 7- كيسان من سعف النخل أو الدوم، مجموعتين بوسط بوضع على ظهر حمار أو بغل.
 - 8- لقد كان شيئا عاديا أن ترد جميع ثروات الموظفين المخزنين إلى السلطان. وكل ما أخذ من الشعب يعود إلى الخزينة. وهذا نفس ما طبق مع باحماد باستثناء قصر الباهية بمراكش.
 - 9- علق الأمر في الواقع بتسوية الحدود الجزائرية المغربية، وتركيز نفوذ إنجلترا ضد فرنسا وهكذا انطلقت السفارة الأولى (المنهي والتازي) يوم 2 يونيو 1901 من الجديد على متن السفينة البريطانية Diaden لتصل إلى لندن ثم برلين (عيد الكريم بن سليمان وبناصر غنام ومحمد الكياص) وصلت إلى طنجة يوم 11 يونيو على متن البارجة Pothuau، لتذهب إلى باريز وسانت بترسبورغ (حيث يقوم سي غرنيط بمهمة تمه، جاهلة هذا البلد البعيد).
- (Saint-Réné-Taillander:Les origines du Maroc Français,1930 chez -Plon .G)
- 10- وقد توفي القائد بن العربي الذي يتحدث عنه راوينا سنة 1939 بتواركة (بقصر الرباط) حيث ظل يمارس نفس المهام.
 - وكان المنهي قد قرر الذهاب، وسرعة إلى برلين، حيث سينزل ببريم.
 - 11- على ساحل المحيط الأطلسي بعيد عن الجديدة بسبع كيلومترات.

- 12- يوجد ضريح سيدي رحال مطل على بعد 91 كيلومتر من الجديدة.
- 13- جماعة من العبيد يكونون هيئة داخل القصر، مكلفين بالنظافة بما في ذلك غرفة السلطان، ولكل فرقة صغيرة منهم قائدها الخاص تحت الإشراف المباشر للحاجب الملكي.
- 14- إن سالم العبيدي مثله مثل سائر المسلمين الأميين، ليست له دراية حقيقية بالتاريخين الميلادي والهجري ورغم ذلك، حفظ هذه السنة بشكل دقيق.
- ومن المعلوم أنه للحصول على مقابل للسنة « الغريغورية » أو الميلادية، فإننا نعود إلى الطريقة التالية : حيث يكون حرف «هـ» دالا على السنة الهجرية وهي السنة التي هاجر فيها النبي (صلعم) إلى المدينة يوم 16 يوليوز 622 هـ، ونجري العملية الآتية :
- ؟ السنة الميلادية هـ. - 3هـ622.
- 15- لقد كانت هاتان الفرقاطان هما : البارجة الإنجليزية illustions، والبارجة الفرنسية : Charlemagne: اللتان حملتا الوزير الإنجليزي Sir. Arthur Nicholson والوزير الفرنسي M: Saint René Taillaudier إلى الرباط في مهمة لدى السلطان. وقد استقبل هاذان الوزيران بقصر القبيبات (مستشفى Marie-Feuillet حاليا) الذي كان مقر إقامة جلالته.
- وكان هذا الحية مؤشرا على بداية تصارع الفرنسيين والإنجليز للحصول على امتيازات بالمغرب.

ثورة بوحمارة

وبعد مضي مدة قليلة انطلقت محلتان نحو فاس. حيث ستعسكر الأولى بسبيدي بودومة قرب وزان، بقيادة مولاي عبد السلام الأمراني. أما الثانية فانطلقت نحو أراضي آيت يوسي. وقد كانت مهمة الأولى تقتضي جلب ضرائب المنطقة وحماية مدينة وزان المهددة دائما بهجمات جباله رغم تأثير وقوة شرفاء وزان، أما مهمة الثانية بقيادة عمر اليوسي الذي كان في صراع مع قبيلته، فتقتضي الذهاب إلى لوطا في منطقة إنجيل لإستخلاص الضرائب المتأخرة، وتأكيد نفوذ السلطان، خاصة أن آيت يوسي قد هاجموا ونهبوا قسبة قاندهم (يونيو، يوليو 1902).

وقد كانت تضم هذه المحلة كل الجنود النظاميين، وبعض وحدات القبائل، أما مدبرو الوحدات الإنجليز والفرنسيون فبقوا في فاس.

1 / نشوء وتطور حركة بوحمارة

وصادف هذه التحركات وجود رجل يمتطي حمارة رمادية اللون، يجوب أطراف المحلة متسولا، وفي الوقت نفسه مستطلعا ومتحسسا على أحوال المخزن، والوزراء، والتسلح، والمدافع، وعدد أفواج مولاي عبد العزيز إنه : الجيلالي بن ادريس اليوسفي الزرهوني الذي سوف يشتهر فيما بعد باسم بوحمارة، لأنه كان يرى دائما ممتطيا حمارته. يتنقل بين وزان، حيث تعسكر الأفواج الشريفة. وفاس متجولا في الأسواق قرب دار المخزن. حيث يسجل كل الملاحظات التي سوف يستثمرها فيما بعد حين تمرد.

وقد كان شاهد عيان في الواقعة التالية التي جرت أطوارها بفاس : حيث دخل أجنبي أمريكي يقال أنه جاء لزيارة فاس⁽¹⁾ إلى ضريح مولاي ادريس. مع العلم أن ذلك محرم على غير المسلمين. فتجمع الناس حوله عند خروجه من الضريح وعنفوه، بل إن أحد « المتعصين » رماه بالرصاص وقتله ثم دخل مستأجرا بضريح الولي.

فقرر السلطان الذي مل كثيرا هذه المشاكل التي يثيرها الناس - حيث إنه لم تكن تمر سنة إلا ويقتل أجنبي بهذه الصيغة، مما كان السبب في مجيء فرقاطات من « هيئة الأموات » إلى طنجة تهدد المدينة بمدافعها، إضافة إلى احتجاجات السفراء الطالبيين بمعاينة

المجرمين مع أداء غرامة مالية / دية كبيرة - إلى استدعاء « مجلس الوزراء » حيث أدلى كل واحد بوجهة نظره مما جعل هذه المحادثات تدوم وقتاً أطول دون الوصول إلى نتيجة محددة.

فصرخ مولاي عبد العزيز في الأخير في وجه الوزراء :

— قولوا ما بدا لكم ! أما أنا فلا أعرف الأسباب التي من أجلها قتل هذا المسيحي .
أريد أن أرى هذا المجرم ليفسر لنا تصرفه . احضروه حالا فأنا في انتظاره .

وبعد لحظات وصل ذلك الرجل إلى دار المخزن بين يديه على صدره لوحة خشبية مكتوب عليها بعض الآيات القرآنية، وكلام يثبت أنه من أتباع مولاي ادريس (شجرة النسب) .

فخرج السلطان من مكتبه، وجلس على الكرسي وحوله وزراؤه . ثم قال القائد المشور ابن يعيش :

— أحضر ذلك الرجل ومن معه، وشرفاء ومقدمي الزاوية والمشاورية .

فقال السلطان لذلك الرجل بعد أن أخذ منه تلك اللوحة وقبلها :

— ماذا فعلت إذن بهذا المسيحي ؟ ولم قتلته ؟

— لقد دخل، ياسيدنا إلى ضريح مولاي ادريس .

— لكن إن مولاي ادريس هو من ناداه وأدخله بالقرب منه ! وأنت تجهل هذا ؟! فماذا كنت تفعل أنت هناك ؟

— كنت أقوم بالزيارة .

— فالمسيحي أيضا كان يقوم بالزيارة . ثم إن علينا باستطاعته أن يبارك في الناس أينما كانوا . والآن، أجبن من فضلك من أمرك بقتله ؟

فقطأطأ الرجل رأسه ثم قال :

— لأحد ! فعلت هذا لوحدي .

— لكن ! لماذا قتلته ؟

— لأنه مسيحي غريب ليس من حقه تدنيس الزاوية .

— أه يا ابن الحمار ! الذي لا يعرف شيئاً؟ أو لاتعلم أن المسلمين والمسيحيين واليهود كلهم إخوة، رغم اختلاف دياناتهم ؟! ثم إنه لقتل إنسان ما لا بد أن يكون هناك سبب ما، أما أنا فلحد الآن، فلا أرى أي سبب لذلك .

— سيدنا ! إن مولاي إدريس هو الذي قال لي أن أقتله.

— آه ! جيد، فإن مولاي إدريس هو من قال لي الآن أن أقتلك أنت !

فقدم مولاي عبد العزيز الشرفاء والمقدمين وأعطاهم كيسا من 200 دورو لصندوق الزاوية، وقال للشرفاء :

— أعتقد أنكم لا تعلمون خطورة تصرف هذا الرجل، فلو كان مولاي إدريس مكاننا الآن لقتله توا. فكروا بعض الشيء في المشاكل التي سيواجهها الخزن مع الأوروبيين، وفي جميع الديارات التي ستعطاهم، وأعلموا أيضا أنه لا يمكن أن أترك هذا الرجل دون عقاب. فقد ملئت من اغتيالات الأجانب لسبب أو لآخر ولا بد أن تعطى العبرة لمثل من يقوم بهذه العمليات، فقد أخطأ فعلا ذلك المسيحي بدخوله إلى ضريحكم، لكن ليس لدينا الحق في قتل من يخطئ، أو يفعل سواء. والآن انصرفوا.

فجمع الجنود، وأعدموا ذلك الرجل بباب المكينة، وهذه هي الأسباب التي ستكون وراء ثورة بوحمارة القوية.

لقد تدخل السلطان في هذه الواقعة شخصيا، وقام بتحقيق مطول حتى يكون عادلا فيما يفعل : وهذا شيء لم يكن معتادا، فتكلم الناس عن هذه الواقعة في فاس كلها - وأهل فاس معارضون بالفطرة - وعن تفاصيل العملية والتحقيق، والإعدام، وقالوا بأن مولاي عبد العزيز قد أخطأ بتصرفه هذا، وأن ذلك المسلم فعل خيرا عندما قتل ذلك المسيحي، وأن ما قام به السلطان يعد مخالفة عظمى لمولاي إدريس، بل كان الساخرون المستهزئون يقولون :

— إن على رأسنا / عرشنا، ليس ابن مولاي الحسن، بل هو ابن ماك لان إنه فارس أنجليزي !

وقد كان مولاي عبد العزيز، الذي يحب الخيول، يفضل ويقرب منه النقيب ogilvy رئيس الخيالة المغربية، حيث كان مختلف قواد الرحي : الطيب المديوني وابن سعيد الكركور، وعلال ولد الطيب وولد بوششعة ومحمد المطيري تحت إشرافه. لقد كان متأثرا جدا بالإنجليز المحيطين به، وأعتقد أن هذا المسيحي المقتول من جنسية إنجليزية. فقد كانوا موجودين دائما بالقصر، يلعبون بالدراجات الهوائية، وكرة المضرب ولعبة البليار. حيث إن ماك لان وباقي الإنجليز هم من يأتي بهذه اللعب من بلدهم. وكان يحضر معهم أحيانا مؤنس السلطان : علي البلوط، حيث كان المدربون الأنجليز معجبين من بهلوانياته ومستملحاته وحيله، وكان عندما ينزل إلى المدينة يحكي كل هذه الأحداث، عن الأمير / السلطان، والقفز على الحواجز بالدراجات الهوائية، والحفلات الموسيقية، والصور الفوتوغرافية التي

كان السلطان يلتقطها بمختلف الألبسة، مما جعل الناس يقولون بأنها تصرفات لا تليق بأمر / سلطان، وأعتقد أنه كان لهم الحق في ذلك. يحدث كل هذا، وبوحمارة يتتبع الأحداث في صمت دون أن يقوم بأي شيء.

وقد كان تزايد نفوذ الأنجليز في القصر من نتائج التنسيق الذي وقع بين وزير الحرب سي المهدي المنبهي وماك لان. أما المدربون الفرنسيون فقد همشوا بعض الشيء، حيث كانوا مكلفين فقط ببعض الطوابير الأقل تجهيزا وعناية، وبأجرة لا مقارنة بينها وبين الطوابير التي يقودها الأنجليز.

وقد أدخل هذا الوزير (المنبهي) نفسه أحد أصدقائه من الشباب إلى القصر، إنه الحاج عمر التازي أخ وزير المالية الشيخ التازي الذي لم تكن له مهام محددة ⁽²⁾. حيث كلفه بكل ما يتعلق ببناء، وصيانته بنايات القصر، فأصبحت علاقته مع السلطان أكثر حميمية من صديقه حيث كان يتجول مع السلطان كل مساء في القصر يناقشان أمور الهندسة وأشياء أخرى. وعندما إقتضت الضرورة ان يبعث إلى أوربا شخص ثقة لشراء بعض الحاجيات اختير عمر التازي، ولما كان يعلم هذا الأخير، تعلق السلطان الكبير بالترك استقدم إليه ست حسناوات شركسيات يعزفن على البيانوا والكمان والقيثارة فسر السلطان من عمر التازي، وكلفه بعد أن استراح بعض الشيء باستقدام المزيد. ولما كانت هذه الأشياء من مهام الحاجب فإن سي أحمد الركينة قد أحس بالحرج والتهميش. فهذا هو شخص آخر استطاع أن يدخل إلى محيط السلطان ويحضى بالرضى والتفضيل، مما جعل المنبهي «النجم» يحس بدوره بخطورة هذا الوافد الجديد حيث أصبح مختلف القواد الذين كان المنبهي قد عينهم في سلك الجندي، يأتون بشكاية أو عقوبة أو قرار من وزير الحرب، ويدخلون به عند عمر التازي الذي سمع احتجاجاتهم وشكايتهم ويدخلهم بدوره عند السلطان الذي يبت في قضاياهم دون استشارة الوزير المعني. وهكذا بدأت ملامح الغنى والحضوة تظهر في عائلة الحاج عمر التازي.

لكن هل تظن أن بوحمارة الذي يتجول دائما في فاس يرى ويسمع ويلاحظ الفوضى في صفوف المخزن، وكذلك تلك الأهمية الكبرى التي أصبح يوليها السلطان للأوروبيين وتلك الأدوار التي يقومون بها من أجل الإكثار أو استنزاف أموال القصر، وعدم التفاهم والإنسجام بين أعضاء الحكومة، والأحقاد والضغائن التي تفرق بين الشخصيات الكبرى التي لا تبحث سوى عن الإغتناء، لا يكترت بهذه الأشياء أي بالسياسة الداخلية للدولة التي تسير بشكل عشوائي كمجري جواد دون فارس، لا، إنه متعلم وكان قد عمل مع مولاي الحسن في فيلق الطلبة المهندسين ⁽³⁾، كما كان كاتباً لمولاي عمر خليفة السلطان على فاس ثم إنه كان ذكيا، ويقال عنه أيضا أنه كان يتعاطى بعض الشيء « للسحر ». وفي

صباح أحد الأيام عندما ضبط ما سيقوم به، وسطر خطته وتصميمه كمهندس يفكر في بناء منزل ما، ركب حمارته الرمادية، وغادر فاس كفلاح من البوادي ليلتحق بقريته في الجبل وفي طريقه، عرج على القبائل الشرقية، ليزرع بعض البذور (بدور التمرد) التي سوف يحصدها عندما يكون في حاجة إليها، وهكذا، زار الحياينة وبني سادن، وبني وارين واتسول وجيرانهم البرانس، وهي كلها قبائل موالية بعض الشيء للمخزن. وقد كان يحكي لأعيان هذه البوادي والقرى التي يمر بها عن الضعف الكبير الذي أصاب الحكومة، وعن ميول القواد والرؤساء إلى الأوروبيين، حيث لم يعودوا ينظرون إلى الأشياء إلا بعيون الأنجليز، وعن مشهد القتل في زاوية مولاي ادريس، وعن ملاهي وألعاب سلطان غير مقدر لقيمة عرشه. وعن الأموال المبددة بتفاهة وتبذير، وعن عدم كفاءة وزراء يتحاسدون فيما بينهم، وعن ضرورة تدخل المؤمنين الأقوياء لتصحيح الأوضاع، ولو بالعنف اتباعا لتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن كل ما يمكن أن يقال عن أوضاع فاس، ثم يذهب ويترك لهم جميعا بركته.

لكن نفوذه القوي لم يبدأ بالفعل إلا بعد وصوله عند غيائه، عقب مقلب أو حيلة سحرية سأكملها لك :

فبينما كان ذات يوم يتحدث بكلامه المعتاد في إحدى القرى، عن الوضعية المزرية التي يمر منها المغرب والتي تفنن في وصفها حتى أصبحت أكثر سوداوية، طلب من مضيفه أن يهيء له الشاي، لكن لم يكن هناك « نعناع » فقال أحدهم إنه موجود عند فلان. فبعث بشخص لذلك، وكانت على بعد كيلو متر من مكان الجلسة « زريبة » ⁽⁴⁾ لأحد الفلاحين فيها بعض النعناع. فلما لم يجد ذلك الشخص أي أحد اقتحم الزريبة وأخذ ما يحتاجه من نعناع، وعند رجوعه وجد الفلاح (صاحب الزريبة) الذي وصفه باللص وعنفه كثيرا. فرجع ذلك الشخص إلى النواله التي كان فيها بوحماره منهكا ودون نعناع. فقال له :

— ماذا حدث، فلقد تأخرت ولم تأت بشيء ؟!

— نعم أسي الفقيه، لقد ذهبت مسرعا، لكنها المواجهة والمشاجرة هي التي أخرتني. وحكى له القصة.

— ماذا ؟! لقد تجرأ على فعل هذا ! وقال بأن النعناع له. جيد. فانظر ماذا ستفعل به بركتي.

وبعد قليل من هذا الكلام، اشتعلت النار في تلك الأخشاب والأشواك المحيطة بالنعناع. ويمكن أن يكون بوحماره قد بعث أحد مستأجره لإضرار تلك النار، خاصة أنه رأى تلك المواجهة من النواله التي كان يجلس فيها، وقد يكون هذا مظهرا من مظاهر بركته، لست

أدري ! لكن كل من كان حاضرا تعجب من المشهد وسارع إلى تقبيل يده، فبللهم ببعض ريقه تبركا منه.

وقد كان لهذه الواقعة الغريبة أثر كبير في نفوس جميع الناس، وأدركوا أن بين ظهرائهم شخصية قوية، بل حتى إن ذلك الفلاح الذي أحرق نعناعه قد جاء مستعظفا بالكثير من النعناع بين يديه.

فأخذ بوحماره كل وقته، وقال بعد أن فكر مليا :

__ لقد عفوت عنك وسامحتك، وستذكر طول حياتك عواقب رفض إعطاء النعناع للشريف، أما الآن بالنسبة لكم أنتم، وتوجه نحو الآخرين، فقد سررت جدا لمشاهدتكم مظاهر قوتي، وأنا قابل لسلامكم وتحاياكم واحترامكم وخضوعكم. لأنه لو تماديتم في خطئكم لأحرقتكم جميعا، ولما بقي من قريبتكم سوى الأطلال. لكن الآن، فلنشرب الشاي.

فانحنى الجميع معلنين استسلامهم وخضوعهم وولاءهم، ثم شرع في تفسير ومناقشة ما ورد في القرآن مع متعلمي الجماعة، ولم يجد أي صعوبة في التحكم في هؤلاء الرعاة. وقد كانت جميع الظروف مواتية ليقول بوحماره لشيخهم :

__ هل تعرفني؟ هل تعلم من أكون؟

__ لا، لم تقل لي بعد من تكون !

__ سأقول لك إذن، وهذا سر بيننا لأنني أقدرك، أنا هو مولاي امحمد ولد مولاي الحسن.

__ ماذا؟! أنت هو؟!

__ شت ! أسكت أريد أن يبقى هذا سرا.

__ آه ياسيدي ! إلى أين متجه فوق حمارتك؟

__ إنني متجه نحو القبائل والبلدان لأجمع المؤمنين الحقيقيين المستعدين للبارود ! ولتنظيم محلة، وإرسال وحدة، ضد أفراد المخزن، الموالين للمسيحيين الذين يبددون ثروائنا ويسيروا بنا في نهج الفوضى والإضطرابات، فسأناهم جميعا وسأقطع رؤوسهم بحول الله.

__ لكن أين هي محلاتك؟ وأين ستجمعها؟

فقال بوحماره ضاحكا :

__ يبدو أنك رجل طيب. فكل القبائل من الساقية الحمراء وإلى تافيلالت وإلى جنوب وهران قد بايعتني، ولا تنتظر سوى موافقتي لتنظيم محاربيهم وإعطائهم إشارة الإنطلاق.

ثم أخذ يبحث في جانيي برنوسه، ليظهر للشيخ رسائل موجهة لعنوان مولاي امحمد بن مولاي الحسن من سوس وحاحة والرحامنة ودكالة ودرعة وكل قبائل الجنوب والشرق.

لكن الشيخ، ومن خلال ما رأى وما سمع، لم يعد يستطيع حفظ السر، فشاع الخبر بين كل أفراد الجماعة، ومنها إلى باقي الناس حيث وصل الخبر بسرعة كبيرة إلى فاس. التي علمت أنه يوجد عند غيثة متمرّد يسميه الناس بوحماره، والذي بدأ في الإعداد والتمرد ضد المخزن.

فقال بوحماره لغيثة :

__ لقد سبق لكم ياغيثة الأوفياء أن حاربتم إلى جوار مولاي ادريس، ومن أجل ذلك جئت إليكم.

__ إنني أحب فيكم ياغيثة، صراحتكم واستقامتكم وحماسكم وانضباطكم في الحروب، وأريد أن يكون مخزني ووزرائي منكم.

وهكذا التف حوله كل اللصوص، والمتعطشين للنهب، وكل من يرغب في النقود والتشريف، والمعارضين ليكونوا جيشاً قوياً.

وبدأ القلق يتسرب إلى نفس السلطان الذي كانت تصله أخبار تقدم هذا التمرد. فكتب إلى الحياينة بتنظيم محلة ضد غيثة، وعززهم ببعض الفرسان، والقائدين المودن وبلخياط لقيادة العملية، فانتاب الخوف غيثة. فقال لهم بوحماره :

__ ماذا؟! هل أنتم خائفون! مرتعشون من هذا الذباب؟! إنه فعلاً شيء مؤسف. لقد كنت أظنكم أكثر شجاعة مما أرى، ثم إنه ليس هناك ما تخافونه، أو ليست لي بركة، وأقول لكم صراحة، وباسم الله الذي يحفظنا جميعاً أن كل من مات فجزأه الجنة.

وبعد هذه الكلمات، تقدم الفرسان، وأعطى الأمر بالانطلاق لجنوده المحيطين به لمواجهة الحياينة الذين يتقدمون. وهكذا لم تفتأ مظاهر بركته أن تبرز، فلم يطلق الطلقات الرصاصية الأولى حتى أرعب الحياينة وتراجعوا بسرعة إلى الوراء تحت مطاردة بوحماره وغيثاته. فأحرقت النوايل، وجمع الأسرى مع القطعان، لأن الحياينة طورردوا وعنفوا وسط أراضيهم. ولما جمع بوحماره الأسرى قال لهم :

__ ها أنتم الآن بين يدي! أفعل بكم ماأريد! ماذا تفضلون أن تكونوا محمدين معنا، نحن الورثة لعرش مولاي الحسن أم «كرونولين» مع أخي الشقي مولاي عبد العزيز؟
__ نريد أن نكون محمدين.

— إذن فأنتم أحرار، يمكنكم الذهاب إلى أهاليكم، لأنني لم آت لإثارة الشغب والفوضى، لكن لأنشر النظام فيما بينكم، وإسعاد المؤمنين الحقيقيين. فعمت الفرحة والسرور بين صفوف المحاربين، واطلقت الرصاصات إعلانا للفرحة والبهجة وصاح غيابة والحيانة :

— الله ينصر مولاي امحمد ولد مولاي الحسن !

وهاهو الآن الجيلالي بن ادريس أو بوحمارة قد أصبح سلطانا، في حين لازال مولاي امحمد الحقيقي دائما في السجن.

وبعد هذا الإنتصار الصغير ومبايعة هاتين القبيلتين، انطلق بوحمارة رفقة حراس أقوياء، تاركا إطلاق النار متبادلا وراءه، نحو بني وارين. وقد كانت هذه الأحداث كلها في بداية فصل الشتاء (9 أكتوبر 1902)، وهي فترة غير ملائمة للحرب، لأن العادة جرت أن تكون الحرب في فصل الربيع عندما تكون الأرض محروثة ومزروعة. وقد سر أهل فاس وساد بينهم الإنسراح عندما علموا أن بوحمارة قد غادر غيابة إلى بني وارين⁽⁵⁾.

وأشار الوزراء الذين لهم رغبة ومصلحة في الرجوع إلى مراكش على السلطان بقولهم : — إن مقامك هنا، سيدي، بالشمال لم يعد نافعا وذا جدوى، فكل الأوضاع هادئة، فيمكنك التحرك قبل الشتاء نحو الحوز على عادة آبائك.

أما هؤلاء الذين كانوا يعارضون الفكرة ويودون البقاء في فاس فقد قالوا :

— أنتصحن السلطان بالذهاب إلى مراكش، ويترك خلفه « ولد الحرام » بوحمارة الذي تجرأ على انتحال شخصية مولاي امحمد والمبايعة سلطانا. ألا تعلمون أن هذه عملية خطيرة خاصة أن أتباعه الحمقى والمجانين سيصلون بعد أيام فقط إلى مشارف أسوار المدينة (فاس).

فأجاب الآخرون :

— إذن، فأنتم خائفون من متمرّد صغير يمتطي حمارة، إنه لا شيء، إنه فراشة ليل سوف تنتهي بإحراق نفسها - بيدها. سيدنا، لاتهتم بأراء هاؤلاء البكائين.

فقرر السلطان أخيرا الذهاب إلى مراكش، بعد أن استقدم كل القبائل الموجودة حول المدينة وقيل لهم بعد اجتماعهم :

— هاهو السلطان سيرحل إلى مراكش، وقد كلفكم بالقضاء على هذا الجبان الأرعن المسمى بوحمارة.

— فليرحل سيدنا هادئ البال، فستكفل نحن بذلك.

— جيد !، فمن جاء منكم برأس بوحمارة، فسيكون جزاء قبيلته 50000 دورو (250000) فرنك.

فليسافر السلطان مرتاحا إذن. إنا هنا !

وأخذ بلخياط الكلمة وقال :

— فليذهب سيدنا دون تفكير في هذا الأمر، فإن بلخياط يضمن لك القبض على بوحمارة هذا، بمجرد أن يرجع إلى الحيانة، وسيأخذه سيدي المخزن.
فقال « المخزن » لبلخياط :

— إذا أتيتنا برأس بوحمارة فإننا نعدك بتعيينك قائدا على كل الحيانة، مع خضوع كل البلاد الموجودة بين تازة وفاس تحت نفوذك وأن محادثاتك واتصالاتك ستكون مع السلطان مباشرة.

وبعد انتهاء كل هذه الأشياء، عادت كل القبائل المجاورة لفاس إلى بلادها، فجمعت الحملة على الطريقة المعتادة لسفر السلطان من فاس إلى مراكش، حيث كان هناك كل الجنود النظاميين باستثناء طابور العبيد المكون من 600 فرد تقريبا، لأنه كان قد بعث منذ شهرين بقيادة بلخير الحمري لايت يوسي لتقوية صفوف القائد عمر اليوسي الموجود في مواجهات صعبة ضد أهل قبيلته الذين ثاروا ضده واجتاحوا قصبته. وعند اجتماع كل أطراف الحملة استغرب الجميع لغياب العبيد / السود -حرس السلطان الخاص.
فقبل لمولاي عبد العزيز :

— كيف تسافرون هكذا دون طابور العبيد؟

— لا يهم، فرجالي ليسوا سوى في مهمة ظرفية، استثنائية، لقد اعطيتهم الأمر بالالتحاق بالحملة في الرباط حيث ستقيم بعض الوقت، ثم إنني مسرور لعدم وجودهم معي في هذه الأثناء لأنه إذا ذهب بوحمارة عند آيت يوسي، فإنه سيفاجئ بعبيد السلطان عنده، دليلا على وجود المخزن في كل مكان.

لكن هاؤلاء الأفراد لم يلتحقوا بالحملة، وبقوا بانجبل مع عمر اليوسي. ورغم كل هذا، فإن السلطان، القلق دائما من سير الأوضاع، قد بعث محلة إلى الحيانة من 2500 رجل بقيادة أخيه مولاي الكبير، لإطفاء نيران التمرد حيثما اندلعت، وقد كانت تصل أخيار سارة عن هذا الطابور المعسكر بواد إناون، وقبل انطلاق السلطان بوحمارة وغياثة إلى جبال هذه القبيلة حيث يقال أنه اختفى عن الأنظار.

هكذا غادر السلطان ومخزنه فاس (10 نونبر) ليدخل مكناس محاطا بكل قواد الخيالة الذين دربهم الأنجليز، وسط حشود من 20000 رجل، وإثنى عشر 12 مدفع كبير.

ب - أطوار المواجهات الأولى :

ولم تدم الإقامة في مكناس سوى عشرة أيام، لأننا لم نصل صلاة الجمعة إلا مرة واحدة. فأنطلقنا جنوبا لإصلاح الأوضاع عند بني مطير وكروان وزمور الذين تمردوا «من جديد»، وقد عززت الحملة بوحدات القبائل «النوايب» : الشاوية (1500 رجل)، والسراغنة (1000 رجل) بقيادة بلمودن / بن المودن.

ثم عسكرنا بدار ام السلطان، وفي اليوم الموالي بسيدي عبد القادر بوكرنات في بلاد كروان. لكن على طول الطريق، كانت تصل رسائل ملحة إلى المخزن من الباشا سي عبد السلام بن شكرة الذي أصبح يهدده بوحمارة في منطقة نفوذه أكثر فأكثر، لكن لم يرد عليه بأي جواب بدعوى أنه ليس سوى خائف مرعوب، وكان يشير في رسائله أن هذا المتمرّد قد عسكر مع أتباعه تحت أسوار تازة ثم إن عدد جنود الحمية غير كاف 300 رجل للدفاع عن المدينة. وكان رجال المخزن يقولون : إن ابن شكرة خائف جدا من بعض المتمردين، إنه يرى بوحمارة في كل مكان، أو لم يصعد إلى الجبل ليختفي في أعالي الجبل؟ لكن رغم كل هذا الكلام، فإن الإضطراب والقلق ظل سائدا في أوساط المخزن، حيث ظهر فريقان بهذا الخصوص، فريق بزعامة غرنيط بن سليمان وابن يعيش يريد أن يرجع إلى فاس والقضاء على بوحمارة. في حين يريد الفريق الآخر بزعامة الشيخ التازي ومن معه، إتمام الرحلة إلى مراكش، وكان المنهبي قد احتفظ لنفسه في هذه الأجواء، بصمت حذر، خاصة أنه لم يكن له أصدقاء يجعلونه ينضم إلى هذا الفريق أو ذاك، لكنه كان يرغب في الذهاب إلى مراكش حيث يوجد أهله، وذلك أفضل من الرجوع إلى فاس. وفي خضم هذه الأحوال التحق ابن شكرة بالحملة بعد أن لاحظ أن الأوضاع أصبحت خطيرة بتازة، وهاهو قد فر إلى مكناس ليحتمي بالسلطان بدعوى أنه جاء ليطلعه على الأحوال ويخبره بالمستجدات، أما الأعيان (أعيان تازة) الذين خافوا على ثرواتهم وأموالهم فقد بايعوا بوحمارة، وقال الباشا ابن شكرة للسلطان بعد أن نجى بنفسه :

— آه ! يا سيدي، إنكم إذا ذهبتم إلى مراكش، فستركون وراءكم النيران المشتعلة. أتذهبون ياسيدي وهذا العدو في أعقابكم؟ كما لو أنكم فررت خوفا منه، فيجب القضاء على هذا الرجل أولا، ثم بعد ذلك تغادرون فاس بعد أن تكونوا قد سحقتم مولاي امحمد المزيف هذا فالناس يعتقدون أنه أخوهم. ثم إنهم يتهياؤون لمساندته ومؤازرته لأنه يطالب بعرشكم.

فاجتمع المجلس / الحكومة ليستمع إلى ابن شكرة وهو يشرح الأوضاع.

— كم عدد أفراد محلة هذا المتمرّد؟ هل هو خطير إلى هذه الدرجة؟

— إن له 15000 فارس يكونون فيلقه النظامي وأغلبهم من غيثة، كما أن كل وحدات القبائل الشرقية، والحياينة وبني وارين واتسول والبرانس قد بايعته ويقولون إنه رجل خطير! إنه محارب جيد، يحبه أتباعه، متعلم ماهر، وأقول لكم، وصراحة، إنه لو تابع السلطان طريقه نحو مراكش، فإن بوحمارة سيدخل فاس دون مقاومة، ودون إطلاق رصاصة واحدة.

ففكر السلطان قليلا وقال :

— لماذا غادرت تازة التي أمتك عليها؟ فإنك أنت أول من كان عليه أن ي دشن بداية المقاومة، والأخذ بيد الأعيان.

— سيدنا ! ليس لي هناك لا أخ ولا صديق، فأنا من الحوز، ولا أستطيع بعبيدي الثلاث الوقوف ضد غيثة وأهل تازة الذين بايعوا هم أنفسهم بوحمارة، وخطبت الجمعة باسمه على المنابر.

— باسمه ! وهو يلقب بوحمارة ! هل جن أولئك الناس؟

— لا يا سيدي، إنهم يدعونه مولاي امحمد، ويقولون إنه أخوكم. . وأنا لأعلم سوى هذا، فماذا تريدون مني أن أفعل !؟

فانفجر مولاي عبد العزيز ضاحكا ثم قال :

— إن أخي سجين حاليا في إحدى المنازل بقصري في مكناس، فليس هو !

لقد كان الكل يرى أن الأوضاع خطيرة. وقررنا الرجوع استثناء من كروان وزمور إلى مكناس حيث عسكرنا بعد ذلك بسيدي بوزكري (2 دجنبر)، في انتظار وصول أخبار عن محلة مولاي الكبير من تازة.

وقد ذهب السلطان إلى مولاي امحمد في مكناس يقول له :

— أسمع برجل ذهب عند غيثة، يتحل شخصيتك ويؤلب علينا قبائلنا؟

فأجاب مولاي امحمد :

— ماذا تفعلون أسيدي، اولاد الحرام كثر. ؟!

فأرجع إلى مكانه. فتيقنا أن بوحمارة مخادع ماهر، وأن ابن شجرة نفسه قد صدقه. لكن أخبار محلة مولاي الكبير كانت سيئة. فقد هزمت على مقربة من تازة، حتى اتحد الحياينة وغيثة ونهبوا المعسكر الشريف (6 دجنبر)

والآن يجب التحرك بسرعة. وهكذا غادر السلطان مكناس ليدخل إلى فاس (9 دجنبر) حيث قرر، ويطلب من سي فضول غرنيط، وابن سليمان، والعلماء، والشرفاء، وأعيان فاس، أن يمدد إقامته بفاس إلى حين القبض على هذا المتمرّد، فجمع كل قواته الكبرى. وأعطى الأوامر لكل المناطق بمحاربة بوحمارة، وطلب من القبائل المخزنية الإلتحاق حالا بفاس، وفتح خزينته وأعطى الأموال الكثيرة، وقام بكل مافي وسعه لتنظيم هذه الحملة التي رغب غرنيط وابن سليمان وآخرين أن يقودها سي المهدي المنهبي. ولكن أهل فاس كانوا يستهزئون ويسخرون من هذه الإستعدادات، ويستخفون بالسلطان مظهرين من جديد، ورغم كل هذه المجهودات، أن من كان معوجا في أول أمره يبقى دائما على نفس الحال.

ولابد أن أقول لك أن ماجعل الفاسيين يعارضون السلطان، ويتناقص احترامهم له شيئا فشيئا، هو إعطاؤه الأولويات والفرص للأوروبيين للتدخل في شؤون منزله. وكان الناس يخافون أن يمتد هذا التدخل إلى كل جهات البلاد. إضافة إلى بعد سلوكه عن سلوك الأسر المخزنية القديمة المتعقلة والرزية، بل إنه جمع حوله الرعاة (السراح) الذين لم يأتوا إلا للإغتناء كذبابه حول شهد نحل. وكنا لانجده في الشارع إلا محاطا بستة رجال مكلفين ببغلة إذا وطأت على حجارة ما بالطريق. ثم إنهم لم ينسوا أحداث الزاوية، كما كانوا يستهزئون أيضا من الجنود المتجولين في المدينة المكلفين بمنع الخصومات مع الأجانب.

وهكذا وصلت وحدات القبائل مع قوادها إلى فاس وأعني : وحدات الحوز والشاوية وعبدية ودكالة وحاحة وسوس والغرب، وآخر المرابطين دائما في فاس الجديد. ووصل عدد الجنود بالإضافة إلى الوحدات النظامية 40000 رجل بالمدينة. لكن بدل القيام بمحلة واحدة كبيرة، فقد قرر بالمقابل بعث أفواج صغيرة، شيئا فشيئا وبالتوالي نحو واد إنانون.

فتوجهت حركة بقيادة سي محمد الأمراني لموازة مولاي الكبير وجمع شتات أفواجه. ثم توجه بعد مرور أيام فيلق آخر بقيادة سي عباس المنهبي أخ وزير الحرب. ثم فيلق ثالث فيما بعد قيادة سي بوعلي الدكالي، ثم رابع بقيادة مولاي عبد السلام الأمراني والخامس بقياده سي عيسى بن عمر. ووصل العدد في المجموع عشرين ألف محارب.

وقد كانت العادة تقتضي أن يقود المحلة قائد واحد كبير. لكن مادام لم تعط أوامر بهذا الخصوص. فإن وزير الحرب سي المهدي المنهبي، الذي غالبا ما كان يكون هو القائد، قد بقي دائما في فاس. فأخذت هذه القبائل كامل حريتها في مواجهة العدو، والتدخل بقوة في كل وقت. لقد كان خطأ جسيما أن يكون لكل محلة أفواجه النظامية ومدفيعيتها وموكبها وقائدها، تحارب وقتما شاءت وكيف شاءت. فلم يكن هناك أي تنسيق واضح. وسأعطيك مثلا صارخا عن ذلك : فقد كانت تطلق أكثر من طلقة مدفعية واحدة عند صلاة الصبح والمغرب، في حين كانت العادة قد جرت أن تكون هناك طلقات واحدة، أما في تلك المحلات / المعسكرات فكنا نسع أكثر من خمس طلقات متباعدة فيما بينها.

وهكذا ظهر سوء التنسيق فيما بين هذه الأفواج بشكل واضح. وحسب المثل العربي :
عندما تكون قبيلة ما على حافة الإنهيار، فإن الكل يرغب في أن يكون قائدا أو رئيسا.

أما بوحمارة. فقد عسكر في عقبة بني مكادة على الحدود بين الحياينة وغيثة، حيث التفت وراءه ليجد رجال المخزن قد وصلوا إلى اوطابوعبان. وكان قد اجتاحت بعض الدواوير وسمع طلقات المدفعية الخمس الدالة على الفوضى وعدم التنسيق والإنسجام في الصفوف المخزنية. (اجتمعت الفيلق في وطابوعبان ما بين 15 و 20 دجنبر)، وكان معه وحدات غيثة وبني وارين وبني سادن، وآيت يوسي، وقبائل الشرق، واتسول، والبرانس كما نرى ضمن أفراد محلته رجالا من القبائل المخزنية، وبعض المعارضين، وبعض من كان يود اجتياح ونهب فاس، ولم يكن شيئا غريبا أن ترى أفراد قبيلة واحدة مقسمين كل شطر موال لجهة ما، أليس هذا أمرا سياسيا غريبا، بالنسبة لحيمة تريد أن تبنى في الظلام والفراغ أن يكون الأب مع السلطان والإبن مع بوحمارة دون أن ننسى أنه، وأمام هذه القوة، أصبح الناس يعتقدون أن بوحمارة هو مولاي امحمد بن مولاي الحسن خاصة عندما يغلق نصف عينه اليمنى، ويقلد جيدا أجواء القصر : الحفلات والموسيقى والنساء والجواري، وقائد المشور، والحاجب، والأفواج النظامية، وأغلبهم من غيثة، ولباسا عسكريا أعطته إياه إسبانيا، وكذلك تقليد سير طوابير السلطان.

وقد كان بعض الأذكيا يجارونه في هذه الحماقات، التي يظن من خلالها أنه سلطان، ولو أن ذلك سوى وهم. فكان يأتيه يوميا « رقاصة » (رسل / مبعوثون) برسائل يقال أنها من قبائل ووحدات سلطانية، وهي رسائل كتبها هو بنفسه في خيمته مساء، وقد كان عنده بالطبع خاتم يختم به وثائقه ورسائله باسم مولاي امحمد ولد مولاي الحسن.

وقد اسعده كثيرا وصول هذه الفيلق الصغيرة إلى محلته، لكن ماكان يسعده أكثر هو سماع الطلقات المدفعية الخمس المتتابعة عند الفجر والزوال وغروب الشمس. فاستقدم أتباعه وقال لهم :

— ما جديدكم؟

— لاشيء سيدي.

— هل رأيتم هذه الذبابات القدرة التي جاءت إلى السهل ؟!

— صحيح سيدي، إنها حشود قوية !

— ماذا هل أتم غافلون؟ فكل ما ترونه أمام أعينكم سيكون لنا. فالأسلحة والمؤن والمدافع ستكون لي، لأن مولاي ادريس نفسه هو من بعثها لي لتقوية صفوفي. أما الخيول والخيام والأمتعة فسأتركها لكم فهي لكم.

وحدث يوما أن هجمت الوحدات المخزنية، بشكل عشوائي، على بوحمارة (20 دجنبر) الذين رأهم يجرون في اتجاهه وقال :

— إنكم ترون حتما هذه الجماعة من المحاربين. فلن يصل أي واحد منهم هنا إلا ليموت. إنهم يجرون فقط لنهب أو سرقة، إن استطاعوا، برادا (آنية لطهي الشاي) أو صينية نحاس.

— آه كان من الممكن أن يكونوا خطيرين لو كان لهم قائد واحد، أما أن يكون لكل وحدة كبيرها، فهم كجماعة دجاجات بدون ديك.

ثم وزع جنوده على طول الخط الذي اختاره وحدده لهم وقال :

— لا تطلقوا الرصاص إلا بين القبيلة والأخرى، وبطريقة صحيحة ومضبوطة. فنحن لسنا في حفل التبوريدة (الفانتازيا)، فاحتفظوا ببارودكم لمن يستحقه، ولندرس جيدا ما سيقوم به هاؤلاء.

فأعجب أتباعه بذلك وشجاعة قائدهم. وإذا كان منهم من جاء ليحارب معه، فإن منهم أيضا من جاء معه لغايات متبانية لإشباع فضول أو انتقام أو ثأر.

وبعد أن رأى بوحمارة سخافة الهجوم قال لأتباعه :

— لاتسبلوا مزيدا من الدماء الفاسدة. فلا خوف عليكم بعد هذا.

فلم يكن هناك سوى بعض الطلقات المتفرقة بين هذه الجهة وتلك. وهكذا استرجع جنود بوحمارة حماسهم وشجاعتهم، بعد أطوار هذه المواجهة الأولى، خاصة أنهم كانوا خائفين جدا من عدد أعدائهم.

وقد كانت هناك صوكات يوميا. حيث كانت ترسل كل وحدة رجالها بشكل تناوبي لكن نتائجها كانت دائما سلبية.

وفي هذه الأثناء كان السلطان يعمل جيدا على تقوية جنوده بالمؤونة والأسلحة، حيث كان يرسل دائما من فاس نحو واد إناون 100 بغلة محملة بالمؤن و 100 بغلة محملة بأكياس الدوروات، تحت حراسة قوية.

وتجدر الإشارة إلى أن بوحمارة قد ظهر في المواجهة الأولى محاربا قويا، وفي مستوى مهمته مما كان له الأثر الطيب عند أتباعه في المعسكر. والأمر نفسه فعله في اليوم الموالي مما جعل أتباعه يرتقبون انتصارا قريبا ونهائيا.

وصادف هذه الأحداث صيام شهر رمضان. حيث صمنا أربعة أيام في هذه الظروف وقد كانت المناسبة مواتية ليكتب بوحمارة إلى القبائل المجاورة التي لم تؤيده وتوازه بعد :

«من كان يريد أن يربح أو يغنم شيئا سأحصله من الغنائم فما عليك سوى الإلتحاق بي بسرعة. فالهراوة فقط تكفيه سلاحا له»⁽⁶⁾.

وقد كان الحياينة الذين كانوا مقسمين قسمين : قسم مع المخزن، والآخر مع بوحمارة قد تعبوا وملوا من رؤية رجالهم « يأكلون » بلادهم كأرجال من الجراد قد عملوا على ضم قسمهم الموجود في جهة المخزن بواسطة عملاء بوحمارة. وفي أحد الأيام، وكالمعتاد، طارد بوحمارة حركة مخزنية إلى أن أنهكها، حيث ظلت النيران تدوي من الصباح إلى المساء. وعند العصر (3 أو 4 بعد الزوال) ازداد عنف المواجهة، حيث توجهت أفواج بوحمارة نحو محلة مولاي الكبير الذي أصبح يحارب متراجعا، وكان قد بقي قسم من هذا الفوج في المعسكر لطهي حريرة رمضان، الذي سرعان ما رأى رفاقه الذين ذهبوا إلى المواجهة قد رجعوا متفرقين إلى المعسكر، لم يتردد أفرادهم في الهرب نحو فاس. أما قواد الفيالق الأخرى، ففوض أن يذهبوا لمؤازرة مولاي الكبير ضد عدوه الشرس، رفعوا المعسكر للرجوع، وفي المساء ازدادت المصائب أكثر، حيث استغل الحياينة وجودهم فوق أراضيهم ليطلقوا الرصاص في الفراغ حول المحلة لارعب وإخافة المحاربين ونهب الخيام بسرعة.

وعندما عم الظلام / الليل، أصبح بوحمارة سيد معسكرات السلطان، التي فر جنودها هرعين نحو فاس، والدين يعترضهم بالعنف والطرد أفراد القبائل التي كانوا قد مروا بها منذ مدة ونهبوها، حتى كانت الطريق ملأى بالجثث، وكان منهم أيضا، الغرقى بواد اللبن، كما كنا نرى أيضا بعض الموتى الذين رمى بهم الحياينة في الواد بعد أن جردوهم من متاعهم، كما عروا كثيرا منهم تماما، ومن حسن حظهم أنهم بقوا على قيد الحياة. لقد كان هجوم بوحمارة بسيطا، وقد كان هجوم آخر مضاد من الوحدات المخزنية كافيا ليحد منه قبل الغروب وهكذا سقطت كل الخيام والأسلحة والمدافع والعتاد والمؤن، وبضائع الأسواق التي تصاحب الفيالق، والاماء (السود)، والعبيد في يد بوحمارة، بما في ذلك قافلة من البغال المحملة بأكياس من الدوروات غادرها حراسها هنا. فكما ترى فإن مولاي عبد العزيز لم يكن يترك جنوده دون أموال. . . بل إنه كان يقول أيضا في رسائله : « أن تشجعوا، هذا كل ما أطلبه منكم، أظهروا أنكم جنود المخزن الأقوياء وإذا كنتم محتاجين للرصاص، فاصرفوا الدوروات التي بعثها لكم، وسأعطيكم أكثر إن أردتم » وقد كانت لحظة الفوضى والإضطراب هذه قد أفسدت بل أظهرت كل شيء إذ رجعت هذه الأفواج من الرجال الحفاة العراة بعضهم كانوا، اثنين أو ثلاثة أفراد، يمتطون دابة واحدة، إلى فاس وسط هلع السكان الذين علموا أن المحلة قد هزمت فأغلقت دكاكينهم وقالوا « لقد انتصر، وهذا ما كنا نرغب فيه، مولاي امحمد أو بوحمارة، فهو من سيصبح سلطانا علينا » فأقفلت الأبواب الشرقية. فكان الهاربون من المحلة يجدون صعوبة في دخول المدينة، فيطوفون بكل المدينة إلى أن يدخلوا. وكان الناس قد بدأوا يستعدون، كما لو أن حصارا سيضرب على المدينة.

لكن تخوفاتهم لم تكن في محلها، ذلك أن رجال بوحمارة المستمعين والمستغربين من هذا الانتصار لم يكن يهمهم سوى البحث عن مكان آمن يقضي فيه هذا السلطان المزيف حفلات عيد الفطر الذي على الأبواب في عاصمته تازة. ويبحث في هذه المراسيم عن أي القبائل يمكنه الإعتماد عليها. وهكذا رجعت محلة بوحمارة المنتصرة إلى تازة، في وقت كانت فيه فاس ترتعش خوفا من ظهوره فيها.

وأمام هذه المستجدات، والنظر إلى الأفواج المهزومة الراجعة كان السلطان، القنبلة القوية والهادئة، قد استدعى وزير الحرب ولامه لوما عنيها :

___ ما مصدر هذه الفوضى والخسائر؟ هل يمكنك أن تعطيني تفسيراً لهذا؟

فقال المنبهي :

___ سيدنا إن المسؤول عن ما حدث ليس بعيداً منا : إنه ابن سليمان وابن يعيش وشيخ تازة، وأنا وأنتم والمخزن. فلم يكن علينا إرسال رجال لا يتفاهمون فيما بينهم، وغير متمسكين جداً بالمخزن. ومادام أن بعضهم قد قال لكم بأن لا تعطوا القيادة لقائد واحد، فإنهم كانوا خائفين أن يرجع وحده هو المنتصر. والآن أطلب منكم أن يخرج كل وزير مسؤول عن محلته، وإذا رجعنا مهزومين أو فارين فليقطع حينها السلطان رأسنا، ولأكن أنا الأول.

___ لماذا لم تقل لي هذا الكلام قبل هذا الوقت؟

___ كيف كنت سأفعل ذلك؟ فلم تكونوا تطلبون مني أي شيء، وكنتم تهمشونني.

___ سأحضر كل الوزراء أمام السلطان قال المنبهي :

___ إن المخطئين والمسؤولين عن هذه الفوضى وعدم انضباط الأفواج السلطانية هم الوزراء الحاضرون هنا، وقد كان هؤلاء الوزراء يشيعون أنني أنا المسؤول الوحيد عن كل هذا لأنني وزير الحرب. وهذا غير صحيح وأرفض أن أتحمل هذه المسؤولية لوحدي.

لكن سي فضول غرنيط قاطع المنبهي وقال :

___ آه، أعتقد أن كلامك عفيف بعض الشيء ! فكيف تفسر أن لنا نصيباً في هذه القضية التي لاتخص سوى بنيقتك.

___ هذا بالفعل كلام صحيح فإن بنيقتي التي تتحدث عنها لا وجود لها. ثم إنني وزير حرب دون نفوذ تعرقلونني في كل مرة أحاول فيها، وبالصدفة، نقل قرار ما إلى سيدنا باعتباري وزيراً للحرب. وقد قلتم منذ قليل بأنني أتحمل مسؤولية هذه الهزيمة، وكأنني لا

أصلح وزيرا للحرب، رغم ما فعلت من أجل الجيش، فماذا تريدون؟ ثم إنكم أناس لاعلاقة لكم بالحروب والبارود، ثم إنني لا أهتم بمشاكلكم الإدارية ولا أحكامكم المختلفة؟ فلا أريد أن أحشر أنفي فيما لا يعني، ثم إنكم إذا تركتم كل واحد يقوم بمهامه المكلف بها فسيكون ذلك أحسن، وحينها سيمكن الوقوف على المسؤول الحقيقي.

فأجاب الوزير الأول :

___ جيد، مادام الأمر كذلك، فليكن حوارك بخصوص مشاكل بنيتك مع السلطان مباشرة.

___ فهذا ما أريد، لأنه لو تكلف كل واحد بوزارته الخاصة فقط، فسيسود النظام والتسيير الجيد، فأنت ابن سليمان وزير الخارجية ستكون مسؤولا عن وحداتي حيث ستصرف في تنظيمها كما يبدو لك. وأنت الحاج عمر ستكلف بقواد الرحي الذين سأعاقبهم لما أحدثوه من اضطرابات أضحى معها النظام مستحيلا، فمنذ مدة لم أكن إلا وزير حرب رمزي فقط. فأنت لست مسؤولا على الفوضى في صفوف أفواجي، فلم يعطيني السلطان أي أوامر، ولم يطلب مني أي مشورة منذ مدة. فلم أكن أعد من المخزن، فأعطوني الضوء الأخضر فقط، وسترون من هم أولاد المنابهة. ثم إنكم، وقبل ذلك تعرفون قدري. فلو كنت ثمة باوطا بوعيان، القائد الأكبر، أو حافظت على كل سلطتي على أفواجي التي أضعقتها بسوء تدبيركم، لن يتقدم ولن يتأخر أي أحد، وسيقاتل المحاربون من أجل السلطان حتى آخر قطرة من دمهم. لكن الذهاب إلى قيادة أناس، كانوا، وبإشارة مني يختبئون وراء ظهور بعضكم، والقول لهم ماذا فعل هذا المنهي من جديد؟ قل لي بسرعة ماذا صدر منه اتجاهك لأخبر السلطان بشيء... .

فقال ابن يعيش مستخلصا :

___ إن القضية في الأخير تبقى متشعبة، لكن قل لنا ما هو « العلاج » الذي تقترحه.

فقال المنهي : سأفعل ما يأمرني به السلطان.

وقال السلطان :

___ نريد أن ننظم حملة من جديد، وستكون أنت المنهي قائدها، والتي ستأتي بهذا الجني بوحماره. حيا أو ميتا !

جرت هذه المحادثات في شتاء (1902-1903). وقد كان بفاس شخصيتان أعتقد أنك تعرفهما: M. Descos⁽⁷⁾ وسي قدور بن غرنيط الجزائري المتحدث مع المخزن باسم المديرين الفرنسيين، والذين استغل منصب ملازم المدفعية Schneider في فاس ليبرز المزايا الكبرى

للمدفع 75. وعين ملازما من المشاة من البعثة الفرنسية وهو : سي عبد الرحمان بن سديرة، لتمرير المدفعية واستخدام المدفع الجديد المشتري.

فماذا أصبح بوحامرة؟ فبعد انتصار باوطابوعبان، رجع إلى تازة احتفل فيها بعيد الفطر بطريقة سلطانية، واستغل هذه الإحتفالات عندما قدم إليه غيثة بكثرة، لاستكمال تنظيم مخزنه بطريقة جدية. واختار الرجال والأقوياء واصحاب النفوذ من القبيلة، ومتمن علاقته مع غيثة بزواجه من فتاة من أهل الطاهر إحدى أقوى فخذات غيثة، وبعد انتهاء الإحتفالات، أعطى أوامره ببناء مستودع للقمح والشعير والبرسيم وحضيرة للبهائم بخميس الكور الموجود على بعد خمس ساعات مشيا من فاس، لأنه قرر الهجوم على فاس دون تأخر.

وكان المخزن قد قام، بعد علمه بالخبر، بتنظيم محلاته وإعطاء تجهيزاته ومؤنه والرفع من أجور الجنود، حيث كان يتقاضى الجندي من المشاة روبية (1.25fr) يوميا والفراس نصف ريال (2.50 fr) حتى أنهكت الخزينة، فعسكرت المحلة أماما بالمطافئ بقيادة عمر اليوسي في حين كانت تستعد القوة العظمى بالمكان المعتاد على قنطرة سبو بقيادة سي المهدي المنهي القائد العام للعمليات، وبعد ذلك جاءت محلة الفراك لتعسكر على هضبة ظهر المهرز في الجهة الجنوبية لفاس.

واجتمعت يوما محلثا عمر اليوسي والمنهي، فاتجهتا نحو واد إناون : حيث علمنا من مخبرنا أن بوحامرة يتجه نحو ثلاثاء النخيلة، وأن عدد جنوده قليل وأقل حراسة وتأمينا، وبمجرد العلم بالنبأ، ذبت حركة نشيطة في الصفوف. فوجد الحياينة وغيثة هذه المرة، يقفون ضدهم الند للند. في محلثنا : بنو مطير وزيان وبني مكيلد وآيت يوسي وكلهم محاربون أقوياء. كما ظهرت أيضا معالم قوة يد العلاف المنهي، وبعد هجمة من المحلة صغيرة فر الحياينة وبني واربن، فأصبح بوحامرة المحاط بغياثة أتباعه الأوفياء يحارب متراجعا فانهزم بالتالي في هذه المواجهة فقد خيامه ومؤنه، وأسلحته وبعض هيئته، خاصة أن أتباعه كانوا يعتبرونه رجلا لا يهزم (29 يناير 1903). ففر مع أصدقائه البرانس واتسول ليصل إلى تازة التي يحتلها دائما، حيث نظم مخزنه. لأنه هنا في مكانه القوي، وشرع في جمع المؤنات، وتضميد الجراحات، والطلب من القبائل المجاورة التي أحس أنها متعبة من الحروب أن تأتي وتلتحق به، ولم يعد يصرح ويقول أنه هو مولاي امحمد ولد مولاي الحسن، لأنه قد عرف ان السلطان قد جاء بمولاي امحمد من مكناس إلى فاس، وأظهره في مناسبات عديدة بدد بها جميع شكوك الفاسيين، وأصبح يقول الآن إنه يشن هذه الحرب لوجه الله. ومع ذلك بقي محتفظا بمخزنه ويعين ويخلع القواد ويحتفظ دائما بخاتم مولاي امحمد.

ودخل المنبهي المنتصر إلى فاس بعد أن طارد بعض الوقت الروكي⁽⁸⁾، في الجبال الوعرة. صاحباً معه 40 أو 50 أسيراً، بعضهم كان من غيثة، وأغلبهم من لحياينة، حيث كنا نحلق رؤوسهم بعد أن « ملحقها » اليهود على جدران باب محروق.

وقد احتفل بهذا الانتصار الكبير طيلة سبعة أيام، كان خلالها بوحمارة يهيه نفسه، ويهدوه في تازة.

وعندما كثرت مصاريق المخزن من جراء الحرب، قرر الإقراض من فرنسا وأنجلترا وإسبانيا، خاصة أنه كان عليه إعادة ترتيب المحلات. خاصة أن الشخص المهم (بوحمارة) ينقص الحفل، ولا بد من القبض عليه، للحد من هجماته المتوالية⁽⁹⁾.

فمنذ هزيمته، وبعد أن شفي من جرح بالغ في كتفه، رجع إلى معسكره، وإلى القبائل المجاورة من أجل تزويده بالنقود والرجال، وقد كان اللوم في هذه الأثناء منصبا على المنبهي لكونه لم يقبض على الروكي، وإن انتصاره ناقص. فخرج المنبهي مع آلاف من جنوده وفاس دائماً في أفراحها⁽¹⁰⁾، أما بوحمارة فيوجد الآن عند صنهاجة بعين مديونة. وكان أهالي هذه المنطقة الجبلية قد واجهونا بمواجهات طفيفة خاصة بعض المسخرين والحراس والمتأخرين عن القافلة، ونجح المنبهي في إجلاد أعدائه إلى أعالي الجبل. دون أن يقوم ضدهم بحملة حاسمة، خاصة أنه كان من الخطير مطاردتهم في هذه المضائق، وقرر وزير الحرب الرجوع إلى فاس لترميم صفوفه وإتمام تجهيزاته وأسلحته ومؤنه والإحتفال بعيد الأضحى (7 مارس 1903).

ورغم هذا كله. فإن المخزن الذي ظل قلقاً من سقوط مناطق الريف ووحدة شيئا في يد بوحمارة ورجاله. قد قرر إرسال بعض الشرفاء لاصلاح الأوضاع، وجلب مزيد من التعقل والترزق في صفوف أهالي تلك المناطق، حيث توجه سيدي محمد الأمrani ومولاي عرفة إلى طنجة (في نهاية يناير 1903)، ومن ثمة سوف يذهب أحدهما إلى مليلية والآخر إلى وجدة بحرا، وقد كان بوحمارة مستمرا في تأليب الناس ضد المخزن والقول لهم بأنه يخوض حرباً مقدسة ضد مولاي عبد العزيز المتهم بتسليم المغرب إلى الأنجليز، حيث غادر تازة تاركا بها خليفته وبعض النظاميين، واتجه نحو البرانس وكزناية وبني بويحيى ثم ليصل (في الأيام الأولى من أبريل) زبوجة نحو عين واد كرت. وبمنطقة كلاعة نظم سيدي محمد الأمrani المعزب 500 جندي بقيادة القائد البشير بن سناح حملة مخزنية ضد بوحمارة، واجهها كلاعة الذين اعترفوا ببوحمارة، فحوصرت بقصبة جنادة وأجبرت على الإحتماء بالإسبان في مليلية حيث توجهت بحرا إلى العرائش بعد فشل مهمتها الذريع. فتنامت مكانة بوحمارة بشكل واضح. حيث إن كل القبائل الموجودة بين تطوان وملوية وكل الأراضي الموجودة على مشارف وزان وفاس إلى حدود الجبل قد اعترفت ببوحمارة.

وكما أغارت قبائل بني بوزكو وبني محيو الموالين لبوحمارة الذي بنى في بلادهم مركزا/ قاعدة بعين سيدي ملوك. على بني يزناسن الذين ظلوا أوفياء للمخزن. وقد كان يوجد بهذه المناطق مولاي عرفة مع بعض المئات من الجنود، الذي اضطر بدوره للإحتماء بمناطق نفوذ الفرنسيين (منطقة لالة مربية 13 ابريل). وبدأ بوحمارة في تسيير الشؤون واصدار الأوامر إلى وجدة، التي يحيط بها أتباعه من أنكاد وامهاية وسدجة. وبني معسكره بقصبة سلوان مع مخزنه وحريمه. وبدأ في الإستعداد للهجوم على فاس.

وقع كل هذا، إذا لم تخني الذاكرة في ربيع هذه السنة، لأن اسم بوحمارة كان على كل الألسن (ماي 1903) وأصبح أكثر اعتزازا بنفسه أكثر من أي وقت مضى. ولا أدري هل كان الإسبان الذين ليسوا بعيدين منه قد ساندوه بطريقة علنية حيث كانوا يتاجرون مع محلته بالرصاص والبنادق، التي كانت وفيرة بشكل واضح. فأصبح أتباع المخزن يحسون ببعض الحرج فتوجهوا بالدعاء إلى مولاي ادريس. وكان بعضهم الذين لا يدرون هل سيكون الروكي السلطان الآتي : معجبين بصفاته الحربية، وكفاءته في تسيير الشؤون والعمليات. فلا بد من القضاء نهائيا على هذا الشيطان، وهكذا عمل المخزن الغني بالأموال المقترضة من المسيحيين، والمتوفر على البنادق الكثيرة والمؤن القادمة من كل الجهات على تجهيز محلة كبرى تحت فاس. سيكون قائدها المنبهي : وقد أعطيته أوامر ألا يعود إلا بعد إخضاع القبائل المتمردة إلى حدود تازة، وتدمير قوات الروكي والتيقن من مكان وجوده الحقيقي. فسمعة وزير الحرب سيئة ولا يمكن استرجاعها إلا بعد ضربة قوية منه ضد الروكي.

محلة المنبهي الكبرى

فكل شيء يعد الآن في فاس للقيام بحملة لاشك أنها ستكون طويلة جدا. حيث كوتب قواد سوس والحوز والغرب للمجيء لمساندة وتعزيز وحدات السلطان، خاصة أن هؤلاء القواد كانوا قد رجعوا مع جنودهم إلى بلدانهم بعد هزيمة أوطابوعبان. وكما ترى. فإنه، ومن أجل تقوية حملتي المنبهي، فقد استدعي أيضا برابر آيت يوسي وزمور وزيان وبني مكيلد وبني مطير. وقد وصلت هذه الأفواج من صنهاجة إلى فاس متعبة، فاحتفظ بهم السلطان استعدادا للحملة الكبرى التي يعد لها : وهكذا شرع في توزيع الأموال والبنادق، لكن عندما أصيب هاؤلاء في المواجهات رجعوا أفواجا أفواجا إلى منازلهم، ليعيشوا على السرقة والنهب حيث كان زمور هم السابقون لذلك وبعدهم جاء بنومطير والآخرين.

وهكذا، ترى أنه لو انطلق هؤلاء جميعا في الأول لأبرزوا فعلا قوة المخزن. بل إن قبائل أخرى قد سارعت إلى فاس، عندما قيل لها. بأنه ما عليها سوى الالتحاق بفاس وطلب الذهب لمواجهة الروكي، وأخذ بندقية ونقود مثل الجنود. وقد كانت هذه السنة سنة

جفاف ويؤس، فقد كانوا يغادرون حقولهم القاحلة ليأتوا إلى فاس ميرزين نفاقا مظاهراً الطاعة والولاء، إنهم من جديد زمور وبني مطير، بل كان هناك أيضاً بعض الموالين لبوحمارة من بني وارين وآيت سغروشن والحباينة وأيضاً غياثة. وأعتقد أن الكثير من هذه البنادق قد ذهبت إلى معسكر بوحمارة.

وقد كان المخزن مسروراً، من رؤية التحاق موالين جدد، ففتح لهم دراعيه وكان يوزع عليهم النقود والبنادق والرصاص والبارود يوميا.

وقد استغل اللصوص وسراق القوافل هذه الأوضاع لإحداث مزيد من الإضطرابات والخسائر في المدن، خاصة أن المخزن كان منشغلاً بالخارج / خارج المدن. فنهبت أسواق مدن الرباط وسلا ومكناس بل حتى أسواق فاس. مما إضطرت المخزن إلى وضع تجريدة عسكرية بسوق الخميس وباب محروق. إنهم البرابر، أو المخزن الجديد من يلهو في المدينة استعداداً للمواجهة، ولكن يجب عذر هؤلاء الرجال الذين لا يحبون إلا للبارود.

وفي كل هذه الأوقات، كانت الحملة تتهاى وتستعد جيداً. حيث عسكر أولاد جمعة ما بين واد إناون بقيادة ولد بامحمد الشرقي. في حين تجمعت الوحدات الأخرى بالمطافئ (بآيت يوسي). أما الحملة الكبرى فتتكون دائماً بمكانها المعتاد على فطرة سبو. وهما هي الآن مستعدة تماماً للإنتلاق : فقد عززت بمدفع 75 المشتري من فرنسا الذي يشغله الملائم سي عبد الرحمان بن سديرة. وقد كان مع وزير الحرب كل خيامه ورجاله، ونسائه وخدمه، وطلب من قائد المشور إدريس بن يعيش أن يلتحق به وأن يكون ملازمه.

وقد كان عدد أفراد الحملة 50000 رجل ؟ فكنا نلاحظ بالإضافة إلى وحدات السلطان، ووحدات زمور والخلوط وسوس وامتوكة وكندافة وكلاوة وهؤلاء الآخرين كانوا تحت قيادة محارب متميز : سيد المدني المزواري أخ الحاج التهامي باشا مراکش الحالي، الذي كان أيضاً معه لكن في المرتبة الثانية بعده. وكانت قطع المدفعية 75، تحت إشراف قائدي الرحى : بويه وموحي، من مختلف الأحجام. وقد كان كل النظاميين يتحركون مع وزير الحرب، كما كان هناك أيضاً طابور الخرابة بدون قائدهم الأكبر ماك لان، بل بقيادة قائد الرحى المنهبي الذي كان فعلاً مساعد نقيب أول في هذا المعسكر، والذي يتقن استعمال رشاشات Garner,Maxims ou Hotchkiss. ويتبع طابوره وقد كنت في هذه الفترة خليفة طابور الخرابة.

وقد كان الإنتلاق حوالي 15 ماي (1903) ⁽¹¹⁾. وقد كانت أول مرحلة هي « الحجرة » الكحلة على ضفاف سبو عند أولاد الحاج حيث أقمنا يومين ليتمكن المتأخرون من الالتحاق بنا، ومن ثمة انطلقنا عبر شراكة إلى أحد بوشابل. ووصلنا إلى ضفاف واد ورغة ثم إلى فاس البالي (قشتالة).

وبوصلنا إلى هذه المرحلة كان على المحلة أن تأخذ احتياطاتها، بوضع تجريدة أمامية بقيادة بوشتي البغدادي، والتي هاجمها بنو مسكيلة الذين اختفوا بمجرد رؤيتهم القوات الكبيرة الزاحفة.

وبعد هذه المناوشات وتوقف يومين، وصلت المحلة إلى دار البغيل قرب واد وديار، وقد كان أمامها بنو زروال. وعلى يسارها بنو مسكيلة، وعلى يمينها بنو ورياغل، وكان وزير الحرب قد كتب إلى كل قبائل هذه الجهة بوجوب الطاعة والخضوع للسلطان. ومن أجل تعزيز وتقوية هذه الرسائل الشريفة، كان يتحرك مع المحلة شرفاء وزان لما لهم من تأثير كبير على جيرانهم جبالة، حيث كانت مواعظهم وخطبهم تسير بموازاة مع المحلة. وقد كان لمساعداتهم وتدخلاهم هاته أثرا طيبا وقويا في نفس المخزن وقد كان من ضمنهم : سي محمد بوشنافة الوزاني، وسيدي عبد القادر، وسيدي علال، وأخيرا مولاي الطيبي الزموري.

وأعلن بعد ذلك بنو مسكيلة المستغربين والخائفين من هذه الحشود الخضوع والطاعة بدار البغيل، لكننا لم نعرف شيئا بخصوص بني زروال الذين غادروا (مشاتهم)⁽¹²⁾ مع نسائهم وأطفالهم وقطعانهم وكل ما أمكنهم حمله. ثم صدر أمر للأفواج الشريفة باقتحام أراضيتهم وتدميرها ونهبها كلها طيلة نصف يوم. وقد تركت وحدة حراسة كافية بعين المكان. كما تم اقتياد كل من وجدناهم ثمة وراءنا على مسافة 10 كيلومترات تقريبا. وبعد ذلك كتب المخزن إلى هذه القبائل بوجوب الطاعة، وأنه لا يطلب منهم سوى تحصيل الضرائب الواجبة عليهم. فجاء بنو زروال لإعطاء ضرائبهم، وأعتقد أنهم كانوا تحت تأثير واستجابة لطلب مقدم الزاوية الدرقاوية : سيدي عبد الرحمان الدرقاوي الذي يحترمونه كثيرا، مثل شرفاء وزان الذين يصاحبون المخزن ويرافقونه. فخرج «البراح» - تبعا للعادة - يعلن بين الناس أن بني زروال لم يعودوا أعداء للمخزن، بل إنهم سيقاتلون مع الأفواج الشريفة رفقة وحدات القبائل الأخرى.

وبعد استراحة 15 إلى 20 يوم بدار البغيل، انطلقنا نحو قلعة اسلاس، عبر منبسط واد ورغة حيث عسكرنا يومين أو ثلاثة، ولم تكن تواجهنا أي مشاكل، حيث كان السلاس يؤديون ما يطلب منهم. ونظمتنا من ثمة صوكة إلى جعاية، وهم قبيلة صغيرة من جبالة بدوار بني زروال ثم أتينا إلى ضفة بوالطاهر على ورغة بقبائل الحياينة حيث أقمتنا بعض الوقت.

ثم انطلقت المحلة بعد ذلك نحو عين مديونة (صنهاجة)، وفي الطريق استسلمت قبائل صغرى من جبالة متبوعة، ومزياط، وغياوة جبران صنهاجة. لكن كانت المحلة قد واجهت مقاومة خفيفة عندما أرادت أن تعسكر فوق حقول القمح على القرب من مديونة. ورغم ذلك عسكر المنهبي. ونظم صوكة بسرعة نحو عين مديونة، لكن الأفواج السلطانية

عادت متناثرة مهزومة نحو المعسكر. فتقرر إذن، وكالمعتاد، استعمال ورقة الشرفاء والسياسة/ المفاوضات مادام السلاح قد عجز عن الحسم في الأمر، فطلت المفاوضات والتدخلات والنصائح والمواظع لكن أهالي مديونة الذين يحسون أنهم محميون ومؤازرون بالجلال لم يتنازلوا عن موقفهم. ولم يلح عليهم الخزن بالتالي، كثيرا فتركهم.

وكانت الأمطار التي تنزل باستمرار، قد عاقت إجراء العمليات بصفة واضحة، ثم كان البرد قارسا أيضا في المعابر والمضايق، وأصبح الناس يعانون أكثر. فكثر الإنسحابات من الصفوف رغم سلطة العلاف القوية. فمئذ انطلقنا، نحو الشرق وتازة، كان برابر هذه المنطقة غيثة وبنى وارين الذين يحاربون معنا يختفون من المحلة، ليرجعوا إلى أهاليهم، وليلتحقوا برفاقهم في صفوف الروكي أو خليفته خاصة أنه يقال أن هذا الأخير هومن يحكم تازة. وهاهو بوحماره الآن يحاصر الشرفاء، بعد أن يكون قد زوده هؤلاء المحاربون بمعلومات عن قواتنا ووفاء وحدتنا. والحاصل أن معنويات أفراد المحلة لم تكن عالية.

وفي ظل هذه الأوضاع عرجنا نحو الجنوب الشرقي حيث عسكرت المحلة على ضفة واد اللبن الذي يفصل بين صنهاجة واتسول. ولم نفأ نصل حتى اندلعت مواجهة بيننا وبين أهالي هذه الجهة الذين كانوا ينتظروننا، والذين طلبوا تعزيزات من جيرانهم البرانس فانضم إليهم الحياينة الذين كانوا معنا، لأنهم متعارفين أكثر. وقد كانت المواجهة عنيفة تركنا فيها عدة خسائر، ورجعت هذه الصوكة مهزومة إلى المعسكر، بل إن الرصاص بات الليل كله يدوي في المعسكر الشيء الذي استحال معه البقاء في هذه المنطقة.

فانطلقنا من واد اللبن نحو واد امليل، في مكان يسمى الحجرة الكحلة، حيث مكثنا يومين، ثم ذهبنا بعد ذلك نحو واد الهدار في منبسط يسمى الكادة الحمراء (نهاية يونيو 1903). وفي هذا المكان، وطيلة النهار، كان الخزن يستقبل أهالي مكناسة التحتانية ومكناسة الفوقانية، وغيثة الذين جاؤوا بدعوى الخضوع والاستسلام للاستطلاع على أحوال الوحدات والطرق التي نسلکہا، والمدافع والمؤن، ووفاء والتزام أهالي القبائل وفي المساء كنا نرى النيران مشتعلة في الجبل تمكن من رؤية، وبشكل واضح، « خيال » رجال يتحركون في تلك الكهوف المضئية كأننا نهارا. لكن الخزن لم ينخدع من رؤية تلك النيران الدالة على قوة وشراسة أهالي الجبال، والمشجعة لمن يود الإلتحاق بهم من المترددين.

وتابعت المحلة طريقها نحو مكناسة التحتانية عبر واد الهدار، وعسكرت في مقعر شاسع به بعض الإرتفاعات، حيث انبسطت المحلة بطريقة استثنائية، فكانت طلقات البنادق تصل من أعداء غير ظاهرين، محدثة بذلك الفتنة والفوضى والإضطرابات بين الصفوف. فكانت المحلة تتحرك بشكل بطيء وعند غروب الشمس بنيت الخيام بالقرب من مكناسة التحتانية، تحت إطلاق النيران الذي لم يتوقف، لكننا كنا نتحمل تلك الطلقات مادام أنهم يطلقونها من بعيد، وفي حدود الساعة العاشرة ليلا سمعنا ثلاث طلقات مدفعية متتالية من

تازة، سقطت ثالثتها على أطراف المحلة في المرتفعات المجاورة. وكان هذا مؤشرا على هجوم مرتقب، لقد كنا محاصرين بالنيران، ولم نكن نرد إلا بصعوبة دون أن نسدد طلقاتنا جيدا، ودام هذا المشهد الليل كله، ولم يكن أعداؤنا هنا بنو علي وأولاد الشريف المعسكرين فوق أراضيهم فقط بل كان هناك أيضا مكناسة، والطايغة، وبنو ورياغل ومغراوة القادمين من ضفاف واد مسون، وغياثة بني وجان، وبنو بوكيطون القادمين من تازة التي لا تبعد عن مكناسة إلا بنصف يوم مشيا.

وقد كانت خسائرنا في هذه المواجهة فادحة : حيث كان الرصاص ينزل علينا من كل صوب واجتبح المعسكر، واقتلعت الخيام، وقتل وجرح الرجال والبهائم. وقد أحصينا في الصباح 70 قتيلًا وأكثر من 100 جريح، من ضمنهم امة سوداء للمنيهي قطع ساقها.

ومن المؤكد أنه لو كان رجال المحلة، على مشارف فاس لكان عدد انسحابات أكثر في الليل لكنهم الآن في منطقة مجهولة، محاطين بنيران الأعداء من كل الجهات، وكانوا متيقنين أن كل المنافذ المؤدية إلى خارج المعسكر محروسة جدا، فما عليهم إذن سوى البقاء.

ورغم ذلك فقد أظهر المنبيهي، والقائد عمر اليوسي شجاعة وسلوكا وهدوءا وريانة نادرة، فقد أطفأوا كل أضواء الخيام وأخرجوا الرجال من داخل المعسكر حيث هم معرضين أكثر للطلقات المنبعثة من الأعالي، ووزعهم على التخوم من أجل التمكن من الأعداء إذا ما نزلوا من أعاليهم نحو المعسكر. بل إن القائد عمر اليوسي الذي كان محاربا جيدا لم يتردد في أن يخرج مع تهريدة من بعض الفرسان النظاميين الأقوياء ليأتي ببعض الأسرى يجبرهم رجاله مقيدين بحبال قوية مع تكميم أفواههم. وقد كان وزير الحرب، صاحب التجربة الكبيرة في الحروب يشك في وفاء السليانية الظرفي، والذين لازالوا بالمحلة، لأن من عادتهم نهب وقتل وسرقة أصدقائهم، قد كلف الكلاوي والكندافي بحراسة هؤلاء وقتلهم بمجرد عزم أحدهم على سرقة أو نهب إحدى الخيام المهجورة، أو سرقة فرس. مما كان له أثر واضح في حفظ النظام داخل المعسكر. وقد صعد قائد آخر : أحمد الحرابي، إلى أعالي هذا المنبسط وشرع في الرمي برشاشة في اتجاه نيران ورصاص البرانس.

وأخيرا انقضت هذه الليلة المرعبة، ولم يكد النهار يطلع ويضيء القمم والمضايق حتى خفت حدة التراشق بالرصاص، إلى أن توقف نهائيا، وعندما استوى النهار كله لم يبق أي أحد حولنا، حيث تراجع كل أهالي الجبال، فمنهم من ذهب إلى قبائلهم ومنهم من ذهب إلى تازة.

وفي اليوم الموالي وأعتقد أنه كان يوم 5 يوليوز (السديرة) انطلقنا للإقامة في مكناسة التحتانية، ثم اتجهنا بعد ذلك نحو تازة في خط واحد مستقيم عبر الطريق المارة بالحجر

القط. وعبرنا الواد أمام تازة تحت وابل من الرصاص يقذف علينا من المدينة والأسوار والزياتين الموجودة في المنحدرات أمام الأسوار حيث كان غيابة الذين أخذوا بيدهم زمام حكم تازة باسم بوحمارة قد أجبروا السكان على موالاتهم ومحاربتنا. وكان لزاما علينا تقديم المدفعية إلى الأمام لتأخذ مكانها أمام الواد وتشرع في القصف، تارة على اليمين نحو قرن النصراني، وتارة على الشمال نحو الروف حيث تظهر تجمعات الأعداء. وقد أعطى هذا القصف نتائج بسرعة، حيث بدأت نيران المدينة تضعف، ثم لتتوقف نهائيا وعلما أن غيابة قد فروا إلى الجبل تاركين السكان وحدهم. وأصبح ممكنا أن نتوقف تحت الزياتين حيث يوجد الآن معسكر جيراندو. فقال المنبهي :

___ لقد طردنا الأعداء. فنحن إذن المنتصرون، لكن لنؤكد للجميع هذا الانتصار فيجب أن ندخل المدينة. وبا لفعل دخلنا المدينة عبر باب جمعة بدون مقاومة، فانتشر أفراد المحلة على أطراف المدينة وقد كان هناك بطبيعة الحال بعض اللصوص وقطاع الطرق الذين يناوشوننا بمنة ويسرة، لكن بعض الطلقات القليلة كانت كافية لإجلائهم. أما أهالي تازة فقد جاؤوا مرتعشين خائفين من هؤلاء الوافدين الجدد، معتذرين طالبين رؤية وزير الحرب لإستعطافه : فقد كانوا مدفوعين كثيرا من قبل غيابة، الذين كانوا سيقتلونهم لو رفضوا أن يحاربوا معهم المخزن، فيجب قبول عذرهم، لأنهم أجبروا تحت الضغط والتعنيف ليسمحوا لهؤلاء المتمردين والفوضويين باحتلال، مدينتهم، لكن قلوبهم ظلت دائما مع السلطان الحقيقي بفاس الذي بايعوه بكل طوعية.

لكن الأفواج الشريفة المزهوة بهذا الانتصار كانت تبالغ في نهب أحياء المدينة، حيث تسارعوا إلى الملاح، وهجموا على الدكاكين، وأخذوا الأموال، وأتلفوا السلع. إنها فعلا وحوش كاسرة أطلقت من قيودها، تغتصب النساء والفتيات اليهوديات بعد مطاردتهن، ويضرمون النيران، ويدمرون البنايات، ويعنفون الشيوخ الذين يحاولون حماية أنفسهم أو ممتلكاتهم، وكنا نراهم يقتادون فتيات لبيعهن في سوق النخاسة، وعندما علم المنبهي بهذه الأوضاع بعث جنودا نظاميين لإرجاع النظام، ورد النساء والفتيات إلى منازلهن. وسهر شخصا على إرجوع الأوضاع إلى ماكانت عليه. لكن هذه الإجراء كان متأخرا جدا. فقد دمر الملاح تماما. وكنا نرى أفواجا من اليهود المدمرين متجهة نحو مليلية أو دبدو.

فتوقفنا بعد أن كانت مشاهد النهب والصراخ والبكاء والإنفجارات قد هدأت شيئا فشيئا (7 يوليوز 1903).

وبعد ذلك جاء أهالي تازة مجتمعين مبايعين البيعة الرسمية للشريف سيدي محمد الوزاني (باسم السلطان بطبيعة الحال) حيث تعرفوا على قوة المحلة وسلطة مولاي عبد العزيز وبعث إلى غيابة بعد ذلك ما يلي :

«لقد هزمكم جنود المخزن ليس فقط في مكناسة، عندما جئتم مدعمين بالبرانس، في كهوفكم وراء صخوركم، بل أيضا حتى في تازة التي تحكمون فيها النساء اللواتي تركتموهن عندما جاء الرجال. فاتفقوا قوة وغضب مولاي عبد العزيز ونيران المدافع التي تقتل من بعيد فسارعوا إلى البيعة، وسيغفر لكم، خاصة أنكم لستم سوى أطفال مشردين طائشين». فجأؤوا بالفعل. لكن عندما كانت تأتي فخذاتهم المتتالية بشيران «التركية» كان هؤلاء المتهيجين قد وجدوا الفرصة مواتية لشراء البنادق من جنود المخزن. وإطلاق النيران مزاحا، على مراكز الحراسة في أبواب المدينة، وأعتقد أن ذلك إجراء منهم لاختبار وتجريب مشترياتهم، ولما تكرر هذا الأمر وأصبح مقلقا، فإنه كان من اللازم وضع مدفعية 75 بباب الجمعة، وقصف الأفواج المغادرة التي تعرف مفعول شنايدر Schneider وبالتالي تم إيقاف هذا القصف.

وكتب المنبهي إلى السلطان، يخبره بالإستيلاء على تازة. وأن الأفواج المخزنية معسكرة الآن بالمدينة. وأضاف بأن بوحمارة قد فر إلى حدود سلوان.⁽¹³⁾

وعندما وصلت الرسالة إلى السلطان، قال الوزراء حساد ومعارضو المنبهي :
— هذا ليس صحيحا ! غير ممكن !فلو أن تازة بالفعل تحت قبضة المنبهي، لم لم يأت ليأخذك إلى هناك؟ وسنذهب نحن جميعا.

لكن بعد مضي وقت قصير، جاء قائد المشور شخصا، برسالة من وزير الحرب. فتأكد أن المنبهي قد انتصر فعلا، مادام أن قائد المشور جاء في طلب السلطان ليدخل تازة دخولا رسميا. فأعطيت التعليمات اللازمة بهذا الخصوص. حيث عسكرت آخر الوحدات المخزنية ومحلة السلطان والفراك مع مولاي عبد العزيز بالمطافئ على واد سبو. وطلب من المنتصر في تازة أن يأتي لصحبة السلطان إلى المدينة.

ومجرد تلقي المنبهي هذا الأمر، سارع إلى أخذ جميع التدابير، وغادر تازة توارفقة القائدين سي المدني الكلاوي وسي الطيب الكندافي و100 فارس : حيث قطع الطريق خلال يومين مارا وبكل سرعة من بلد عدو، وقد كنت من ضمن الحرس (سالم العبدى)، ومن الواضح أنه ماكان لهذا الفوج أن يمر من هذه البلاد لو كانت تعلم هذه القبائل بذلك. وقد استنتجنا أن الطرق التي خلفنا مقطوعة الآن.

ولما وصلنا إلى السلطان، نودي على المنبهي الذي هنأ السلطان على استرجاعه المدينة. متأسفا على عدم وجود بوحمارة بها، ثم قام : بجمع ودفع الامدادات نحو وجدة (فقد كان موجودا بها منذ 26 يونيو)، وبعث المخزن إلى هذه الجهة ب 1500 جندي من طنجة، بقيادة الحاجب سي احمد الركينة، الذي كان عليه الوصول إلى وجدة عبر أراضي وهران للدفاع عن المدينة. ولعل هذا ما يفسر غياب الحاجب الملكي عن السلطان. (كان انطلاق هذه الأعداد من طنجة يوم 8 يوليوز) وأخيرا، فلما رغبة في الإنتقام أو بإيعاز من

الروكي، فقد حاصر غياثة تازة، وأصبحت الأوضاع في هذه المدينة المفتوحة غير قارة من جديد.

وقد علمنا أن شرفاء تازة الذين يبدون معزولين ومحاصرين قد بدأ اليأس يتسرب إلى نفوسهم، ونسبة الإنسحابات قد كثرت في صفوفهم، لأنهم لم يتوصلوا بأجورهم. مما جعل العلاف، وبموافقة من السلطان يبعث إليهم بقافلة من المؤن بقيادة سي المدني الكلاوي تحت حراسة 400 فارس وراجل. فانطلقت مبكرا من بوعبان نحو تازة، حيث أخذت كل التدابير والإجراءات بسرية تامة. لكن جميع الطرق المؤدية إلى المعسكر كانت محروسة، ولم يكن من الممكن الوصول دون مشاكل. فانطلقت هذه القافلة ليلا حيث وصلت عبر باب أبوغ (Col des Zouaves حاليا) إلى الحجرة الكحلة (واد امليل) مع وحدات التقوية الراجعة إلى أوطابوعبان. وعند طلوع النهار غادرنا الحجرة الكحلة إلى تازة. وكانت تلاحقنا النيران على طول واد الهدار، لكن لم تكن تؤثر على السير العادي للقافلة وكنا نترك الجرحى الذين لا يستطيعون مواصلة الطريق، لأنه كان لابد من الوصول قبل هبوط الليل. وقد سرقت بغلطان أو ثلاثة في الطريق محملة بالنقود، وقد جرح القائد سي المدني في هذا الرحلة ثلاث مرات.

ورغم هذه الظروف، وفي الوقت الذي دخلت فيه الأفواج لحراسة المعسكر، نظم المنهي، وكان على صواب في ذلك، صوكة في اتجاه قصبة أولاد حامد لشغل اتسول عن مهاجمة القافلة. ورغم كل هذه المشاكل والمصاعب فقد وصلت تازة قبل «الظلام». وقد خلف هذا الوصول ارتياحا كبيرا في نفوس المحاصرين. ولم يعودوا يجهلون أن الطرق مقطوعة خاصة أن السلطان لم يأت إليهم، وأن هؤلاء الرجال واجهوا مشاكل كثيرة في الوصول إليهم.

لكن رغم هذا كله، لم تكن عملية اوطابوعبان مشجعة. لأنه كانت الأفواج السلطانية تقود بنفس السرعة التي انطلقت بها مطاردة من قبل اتسول والبرانس، ولم يكن يبدو في الأفق أي أمل في خضوعهم رغم تدخلات الشرفاء. كما يبدو من المستحيل إجلاء حامية تازة وكان السلطان قد حل هذه الوضعية الصعبة والرتيبة. فشرع الوزراء من جديد في انتقاد المنهي، ويقولون للسلطان :

— إنه، وبفضل ذهبك، وليس ببناذقه استطاع المنهي دخول تازة. ومن حسن حظه أنه غير موجود بها الآن.

فأخبر المعني بالأمر، الذي قال يوما للوزراء أمام السلطان :

— لقد علمت أنني ألام وأعاتب كثيرا من جديد : ويقال بأنني دخلت تازة دون حرب أو مقاومة. وأعتقد أنه من السهل أن نقف على القدرات العسكرية لكل واحد منا. فما على السلطان إلا أن يبعث بكل وزير على رأس صوكة ما.

وهذا ماتم بالفعل. وقد كان يلاحظ أنه في الأيام التي كان فيها المنهبي يقود جنوده كانت صوكتة ترجع بكل حرية وفي الوقت المحدد. لكن حينما كان ينطلق الوزراء أو قائد المشور في صوكة ما، فإنهم يرجعون دائما إلى خيامهم مهزومين متعبين.

وتوالت الأيام دون تغيير الوضعية، وبعد مرور أيام عن وصول قافلة المدني كنا نرى قدوم مختلف قواد القبائل المحاصرين في تازة إلى اوطابوعبان، فقد استدعاهم السلطان، ولا أعلم لماذا؟ عقم النظام، أخير السلطان بكل مشاكل وسلبات ترك الوحدات دون قائد حتى إن أخبارا حملها رقااص تقول بأن الإضطرابات والفوضى قد عمت في الصفوف، لكن القواد تجاهلوا النبا وغادروا تازة. وفي طريقهم هاجمهم الأعداء التقليديون : البرانس واتسول وغياثة، الذين ظنوا بعد مرور المدني أن تسيقا ما تم من المحلتين وعملوا على حراسة كل المنافذ الطرقية، فتسببوا بذلك في عدة قتلى وجرحى وأسرى في صفوفنا، حيث قطع في هذه المواجهة رأس قائد الشاوية : برشيد وحمل وسط احتفالات التبريدة إلى مناطق اتسول. ورغم ذلك فقد كانوا مسرورين بهذا الهرب من مصيدة تازة، والرجوع إلى بلدانهم ورؤية عائلاتهم وإشباع بطونهم، وممارسة مهامهم المكلفين بها، وألا يمكن القول إنها قبائل الحوز التي قد حاربت التمرد؟ خاصة أنه كان هناك كل القواد : سي عيسى بن عمر، وبرشيد الذي قتل كما قلت من قبل قليل وبن خدة من لالة إيطو، والكنداري من بني حسن.

وعلى العموم فإنه لم يبق في تازة المحاصرة سوى سي المدني الكلاوي وأمينه وكتابه سي أحمد الجاي الذي كان وزير الأحباس في عهد مولاي يوسف⁽¹⁴⁾. وعمر اليوسي، وقاد الرحي والأفواج النظامية، حيث ذهب مختلف قواد القبائل ووحدات النوايب إلى وطابوعبان، واستقبلوا استقبالا باردا بعد وصولهم في حالة سيئة، حجتهم في ذلك أنهم كانوا مدافعين في نظام، وأضافوا بأنهم مسرورون بمرورهم ومجيئهم، خاصة أنه، وقبل قليل (22 غشت) كانت حركة قوية من الفرسان قد حاولت العبور إلى محلة السلطان عبر واد الهدار لكنها لم تتمكن من ذلك.

وقد كان اتسول يحاصرون المحلة دائما، وكنا لا نعرف الكيفية التي تستطيع بها حامية تازة التحرر والتحرك وحدها، بعد أن فقدت نصف عدد أفرادها. ثم إن الشتاء كان على الأبواب، حتى إن حاشية مولاي عبد العزيز كانت ترى أن الأوضاع بوطابوعبان أخطر مما كانت عليه بتازة. خاصة ان الرحلة دامت ثلاثة اشهر (دون طائلة) أليس الرجوع إلى فاس أفضل؟ ثم العودة إلى هنا في ظروف أكثر ملاءمة وأحسن. وكتب السلطان إلى محلة تازة أن تلتحق بوجدة لسحق الروكي، أما هو فسيذهب إلى فاس نظرا لسوء أحوال الطقس فرجعنا دون أدنى تقطعات باستثناء مناقشات من قطاع الذين تبعونا حتى واد سبو (30 أكتوبر 1903).

هكذا انتهت محلة المنبهي الكبرى. التي لم تقدم للمخزن شيئا سوى استرجاع تازة. أما الجنود الذين بقوا بها فأصبحوا أسرى للقبائل المجاورة ومن الواضح أنه منذ انطلاقنا من لوطا كانت كل الإجراءات قد اتخذت في ذلك الإتجاه. وقد كانت كل هذه الخسائر تنسب إلى المنبهي الذي بدأت مكاتته قرب السلطان تتقلص بشكل واضح. ولم يعد الوزراء يتخرجون من أن يقولوا لمولاي عبد العزيز، الذين يروا قواته قد انهكت وأمواله قد تبددت « إن المسؤول عن هذه القوضى هو المنبهي، فلا تعطه أموال المخزن ليبددها ويضيعها من جديد». لكن الوزير لازال محتفظا ببعض الأصدقاء الذين يحمونه ويخبرونه لكل المستجدات، وفهم أنه إذا وصل إلى فاس، لابد أن يركب أخطارا كثيرة للإفلات من السجن، وتشتت أسرته ومصادرة أملاكه، فطلب من السلطان الإذن له بالذهاب إلى الحج مرة أخرى.

وقد كان لقاءه مع السلطان سهلا، حيث دخل إليه وجها لوجه وبعد أن قبل المصحف ووضعه بين يدي السلطان وقال له :

— اسمح لي سيدنا أن أقول لكم شيئين : الأول : هو أنني لست خائفا ومسيئا. . .
وأنتي تفانيت دائما في خدمة المخزن وسيدنا. والثاني وهو ما أطلبه منك الآن وهو أن تسمح لي بالذهاب إلى الحج، وزيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم).

فأجاب مولاي عبد العزيز.

— نعم، جيد، إن فراقك ليؤسفني؟ لكن هل ستتخلي عني؟

فأجاب الآخر :

— لا فعندما أرجع سأعود إلى منصبي ومهامي إذا أردتم، لكنني أظن أنه من الأفضل أن أذهب الآن، فلا شك أن سيدي يدرك الآن الفرق بيني وبين الآخرين.

فأخذ السلطان طلب المنبهي وعرضه على الوزراء الذين قبلوه خاصة أنهم كانوا لا يبحثون إلا عن إجلاته.

فقال السلطان :

— يمكنك الذهاب إلى الحج، لكن من تقترح علينا أن يكون بذلك؟

— فإذا رغبتهم، فيكون خليفتي هو سي : محمد بن كبور.

— جيد، فقد قبلت.

فبدأ المنبهي استعداداته للسفر، ولما كان ذكيا، فإنه أبحم 50 إلى 60 فرس كانت عنده في إصطبله، واقتادها مع بعض الجمال والبالغ إلى القصر لترجع إلى السلطان، فلما سأل مولاي عبد العزيز عن هذه الهدايا، قال بأنه يفضل أن يتركها لسيدنا من أن يتركها عنده في منزله في تناول الآخرين، فودع السلطان من جديد، وأعطاه مبلغا هاما من النقود.

ولم يهتم في سفره هذا، بأخذ إذن بالعطلة من اعدائه الوزراء الذين كانوا يقولون له
متظاهرين بالحنان والشفقة :

— متى ستذهب إذن؟ . . . أبهذه السرعة إن هذا الفراق يؤلمنا فالخزن كله سيفتقدك أو
لسنا كلنا إخوة؟

— نعم فأنا اشكركم على مشاعركم، وسأذهب غدا إلى طنجة عبر باب السكمة.

— آه ! وهل سترجع إلى فاس؟

— أجل، بالتأكيد، فسأتي لزيارتكم أنتم والآخرين، ثم أنه لازالت عندي بعض
المشاغل هنا.

وبعد مراسيم الوداع هذه تجمع الوزراء فيما بينهم وهنأوا أنفسهم على رحيله.

— نتمنى من الله لو أنه نهب قبل وصوله إلى طنجة. فالطريق طويلة.

— فقال ادريس بن يعيش الذي يدرك جيدا خططهم ومشروعهم :

— لا تفعلوا هذا، فهو لم يسيء إليكم، ثم إن السلطان لازال يحبه.

فقال أحدهم :

— لأظن ذلك. فهو لم يفعل شيئا لكي يحتفظ به فهو غاضب منه لأنه لم يستطع
الدخول إلى تازة.

— لكن لا يجب أن ننسى أفضاله علينا، فبفضله وصلنا كلنا إلى الخزن وإلى المناصب
التي نشغلها حاليا، فاحذروا من رجوع الأوضاع إلى نصابها ومن تقلبات الدهر وانتقام
القدر.

— هذا مؤكدا ! لكن لا سي فضول غرنيط ولا بن سليمان ولا بن يعيش يحبرونه.
فالكل هنا في الخزن والمدينة ضده. إنه رجل أصبح ضعيفا، ولن نراه أبدا.

— ويمكن أن نقبض عليه قبل أن يهرب. إنها ليست عملية كبيرة؟

فقال قائد المشور :

— إذا أردتم، فسأتكلف أنا بهذه السخرة !

— نعم. لكن كيف ستفعل؟

— الأمر بسيط، سأستدعيه لوجبة الغداء وسأقبض عليه حين الوداع.

— إذن، فأظهر لنا أنك في مستوى مسؤوليتك؟ (حنة يديك).

وحاولوا أخذ معلومات حول سفره من عبد الكريم ولد با محمد الشرقي، باشا
شراكة، لأن أخته هي زوج المنهبي. لكن عبد الكريم نفى أن يعرف شيئا بهذا الخصوص.

— لا تريد أن تقول شيئا لأنه صهرك.

فقال الآخر :

— كلا ! فليست بيني وبينه أية علاقة. ثم إنني لست أنا من زوج أختي للمنبهي، بل المخزن. لأنها كانت بقصر مولاي الحسن وكان يريد لها مولاي عبد العزيز. لكن عبد الكريم، في الواقع، كان يحب صهره كثيرا، ولم يتردد في اخباره بالمكيدة التي تدبر ضده. وكما كان متفقا عليه، فقد جاء في المساء استدعاء من قائد المشور للمنبهي لوجبة غداء في اليوم، فكتب إليه الجواب التالي « . نعم لقد قبلت، وأنا سعيد بأن أحضى بشرف ضيافتكم ».

لكن بادر، وبسرعة إلى إعطاء تعليماته بجمع الأمتعة، وتهيئ كل شيء ليلا. وعند الفجر عندما فتحت بوابتي باب محروق. كانت قافلة بالقرب منه تنتظر الخروج، فانطلقت إنها دار المنبهي. حيث اتجهت شمالا نحو الشراردة. وفي نزالة بني عمار اتجهت نحو طنجة عبر ممر سكوطية. ثم ارتاح المنبهي بعض الوقت بطنجة عند الوزير البريطاني حيث يحس في أمان أكثر. ثم ذهب بعد ذلك إلى الحج عبر جبل طارق، ومرسيليا والإسكندرية والبحر الأحمر. وقد رافقته في سفره إلى البقاع المقدسة الذي دام أربعة أو خمسة أشهر. وقبل مغادرته طنجة كان قد كلف صديقه بنيس بالشروع في بناء منزل له على بقعة كان قد اشتراها. لأنه لا يفكر في العودة إلى القصر⁽¹⁵⁾ وفي فاس، كان قد ناب عنه بعض الوقت خليفته بن كبور، لكن السلطان قد عين محله سي محمد الكياص الذي جاء من الجزائر بعد أن كان عاملا للسلطان بها، تنفيذا للإتفاقات بين فرنسا والمغرب⁽¹⁶⁾.

ماذا أصبح بوحمارة؟ مطارد، متابع. إنها أيام قد زالت وانمحت

لقد تركت الحملة بتازة تحت قيادة سي المدني الكلاوي. حيث إن كل القبائل المجاورة قد هاجمت تازة وحاصرتها من جديد. ذلك أن غياثة ومكناسة واتسول والبرانس، يحتلون دائما منافذ العبور إلى المدينة. حتى إن الأفواج المخزنية كانت مضطرة إلى أن تقصف النيران من فوق الأسوار، ثم إن الحياة بها أصبحت أكثر صعوبة. خاصة أن المؤن والإمدادات لم تعد تدخل إلى المدينة.

فضلا عن هذا، فإن بوحمارة - الموجود بناحية وجدة، كانت تقدم إليه وإلى رجاله المؤن والأطعمة من قبل قبائل المنطقة : أنكاد « بني بوياحي، امهاية، بني بوزكو، مسارة بني خالد. ويتطلع لأخذ محلة سي أحمد الركينة الذي استرجع وجدة (11 غشت) بعد أن وصلها بحرا بواسطة الفرقاطة الشريفة سيد التركي - وقد علم أن السلطان قد غادر أوطابوعبان، وأن أتباعه يحاصرون أفواج تازة المقطوعين في فاس، فبعث ببعض الرجال، وكتب إلى غياثة :

... فلتهشوا ولترتاحوا، فستمتعون، وتنعمون بالراحة بعد أيام كيف شئتم⁽¹⁷⁾. وقد دام حصار تازة إلى حدود نونبر، وكان عدد الفارين من الجنود يتزايد، والمدني الكلاوي لا يعمل سوى على تضييد جروحه المتوالية، وكان يعاني كثيرا من أجل حفظ النظام، وكان يخشى أن يتجه بوحماره شرقا نحو تازة، بعد أن تكون قد طاردته وزاحمته محلة الركينة. وحتى يضمن سلامة الحامية فإنه عمل على تقوية الحراسة في جهة وجدة (أي الباب الذي ينطلق منه نحو وجدة)، فأرسل إلى عين المكان عدة طوابير نظامية: حيث كان هناك أربعة طوابير من الرحامنة وواحد من الشراودة وواحد من زمران. وقد استطاعت هذه القوة أو الدرع الأمامي المتحرك دفعة واحدة، أن تمر دون مشاكل كبرى لتصل إلى قصبة مسون نهارا، ولتحتلها دون مقاومة.

وبعد هذا كله، كان حصار تازة يزداد اتساعا وقد لوحظ ذلك أنه عندما حاولنا في إحدى الليالي استرجاع القطيع كانت الوضعية أكثر صعوبة مما كنا نظن. حيث كان الأعداء يتحركون بسرعة كبيرة ويقتلون الجرحى المتبقين في الخلف. وحدهم الرجال الذين كانوا يحسنون الركوب هم من استطاع العودة إلى الساحة / القاعدة، بنفس السرعة التي انطلقوا بها. وها هو بوحماره المخبر بكل المستجدات قد جمع كل وحداته، وقرر الذهاب إلى تازة من أجل مد يد العون إلى كل القبائل التي تحاصرها.

وعندما وصل إلى قصبة مسون اصطدم بوحداث المدني الأمامية، ودام تبادل النار اليوم كله. واستغل هبوط الظلام ليرسل «رقاصة»/ رسل إلى تازة للإخبار بالوضعية أو الحالة الجديدة وطلب التقوية، فأرسل سي المدني على التو الجنود اللازمين بزيادة عمر اليوسي، حيث كان هناك: النظاميون من طابور الحراية، وبعض رجال القبائل معززين بمدفع 75 (سديرة). وبوصول هذه الإمدادات عم الأمان ورجع أتباع بوحماره إلى وجدة. وعلمنا أن الروكي مصاب إصابة بالغة، وأنه مختبئ في جبال أولاد زمور شمال مسون وقد كان حراس القصبة يعيشون من إمدادات السكان رغم أنهم غير مرغوب فيهم، لكنهم بقوا تمه وقرر المدني مدهم بالمؤن وإبقاءهم في نفس المكان. ورجع عمر اليوسي مع مجموعة إلى تازة. وبعد شهر اتجهت الحملة كلها نحو وجدة، حيث اتضح أن الروكي موجود بضواحي هذه المدينة.

لقد كان الخروج من تازة سهلا، لكن منذ الإنطلاق من تازة كان السكان وغيثة ينتقمون من «أولاد كرونيل» الذين لم يستطيعوا اللحاق بالحملة، وقد كان جنود الحزن يسمون هكذا تذكيرا بتأثير الكرونيل ماك لان - حيث عنفوهم بكل الطرق وشوهوا جثثهم. وصلت الأفواج الأولى من الحملة إلى مسون، حيث لحقنا بالطوابير المعسكرة في القصبة. وقد كان مقامنا هنا طويلا، خلاله جاء بني وارين وغيثة كعادتهم لإزعاج الحملة من

المرتفعات المجاورة لكنه لم تكن هناك أي مواجهات تذكر، ولكي يبرز المدني قوتنا ويظهر أهالي الجبال، فإنه عمد إلى تصفيف المحلة على شكل دائرة فوق منبسط مسون بكل فرسانها ومشاتها ومدفعتها وبغالها.

ومن هنا انطلقنا للعسكر على ضفاف واد مسون عند أولاد مسعود، ثم إلى ملوية قبلة ثم إلى تاويريرت على ضفاف واد زا. حيث كان تحرك المحلة معرقلا من قبل بني بوياحي وبني قولل الذين كانوا يرغبون في نهب مؤخرة المحلة وسرقة البغال لكنها ظلت متماسكة حتى اختفى الأعداء، وعند مرورنا بتاويريرت كنا نجد كل دكاكين الملاح مقفلة - فقد فر اليهود بدون شك إما إلى دبدو أو إلى الحدود الجزائرية - وقد كان النهب كثيرا عند مرورنا، وفي اليوم الموالي شرع المدني في إطلاق نيران المدفعية يمينا ويسارا على بعض التلال التي تجمع فيها بعض أفواج الانفصاليين.

ثم وصلنا بعد ذلك إلى مستيكمار عند بني بوزكو، الذين كانوا يستعدون للقيام بعمليات حربية في الجبل، لأنهم لو نزلوا إلى السفح فسيهزمون، لكن لم يكونوا هم من نقصد، ثم وصلنا إلى عيون سيدي ملوك حيث أقمنا قرابة أكثر من شهر جاءت خلالها قبيلتي بني يزناسن وأتكاك معلنتين الخضوع. لكن أغارا علينا ليلا، رغم ذلك، لأنهما كانتا غاضبتين من قوادها الذين استغلوا وجود المخزن لاستنزافهما أكثر، وبعد مرحلة العيون القوية هذه، وصلنا إلى واد إسلي قرب سيدي عيسى. حيث قضينا الليل. وفي اليوم الموالي عسكرنا بوجدة (يوجد سيدي عيسى على بعد كيلومترين جنوب غرب المدينة).

لم نلتق ببوحمارة عندما كنا في اتجاه وجدة، ظانين أننا سنجد أمام المدينة بضواحي واد إسلي، لكن هذا المحتال، رجع عبر أغبال إلى عاصمته القديمة تازة، حيث تابع تضييد جرحه الذي كان يتعبه أكثر. وفرض ذعائر جديدة، وضم الوحدات وإعداد الهجمات المقبلة.

وكان الهدوء والأمان يسود أطراف ونواحي وجدة. فقد كانت المنطقة منهكة من مرور وإقامة هذه الأفواج. وأذن بجلب المؤن الضرورية من الجزائر. أما الذخائر والعتاد، فقد كانت تأتي بواسطة القوافل من لالة مغنية أو عبر البحر إلى ميناء ساي Port-Say. حيث تحملها السفينة الشريفة التركي (على امتداد الحدود مع الجزائر). حيث نأخذها من قرب «زوج بغال». فكل هذه القوافل والحدود والبحر، القرية قد ساعدت كثيرا من المغاربة للفرار، منهم من رغب في حياة أرغد بالجزائر، ومنهم من يود الهروب إلى مينائها، يمكن أن يصل منه إلى غرب المغرب، ولقاء أسرهم الذين غادروا هم منذ مدة.

وانتهى كل شيء، حيث فصل الشتاء الذي يصعب فيه التحرك العمليات (وقد كنا نهاية نونبر بالعيون، وفي نهاية دجنبر بوجدة). وترك بعض المحاربين سلاحهم واتجهوا إلى

قبائلهم للحرث. ولم يبق هناك سوى بعض النظاميين المخزنين بوجدة ولازال أتباع بوحمارة بناتة كالسابق، واتضح للجميع أن الروكي استطاع أن يقاوم المخزن رغم ما أنفقه هذا الأخير من أموال دون القبض عليه. فهو الآن يحتل تازة وينتظر ظروفًا أحسن للهجوم، لكن يبدو أن خزينة بدورها غير قادرة على إتمام المواجهة.

وقد مضت سنة، كان المخزن موجهًا فيها عنايته واهتماماته إلى الخارج، خاصة أن متمردًا آخر قد بدأ نجمه يظهر بناحية طنجة. إنه الريسولي الذي استغل هذه الاضطرابات ليحصل على امتيازات أكثر. وسأحكي لك قصته بعد قليل، وما دمنّا نتحدث عن بوحمارة، فلنبي سآحدثك عن آخر محاولاته.

في فبراير 1904، نودي من المحلة بوجدة على الملازم سديرة ومدفعه 75 الذي طالما حسم في المواجهات. وقد كانت ثقة المخزن كبيرة في المدفع 75. فطلب أعدادًا أخرى منه بالإضافة إلى 500 قذيفة مدفعية. وأثناء حصار تازة، كان غيائة قد أعطوا 800 دورو لمن يجيئ برأس سديرة. فالتحق هذا اللضابط إذن بالرباط بحرا، ثم إلى فاس حيث بعثه قائد البعثة العسكرية الفرنسية Fariau (الذي عوض الكولونيل Saint-Julien في أبريل 1903) إلى طنجة مدربًا للمدفعية⁽¹⁸⁾. لكن استدعي من جديد في نهاية دجنبر 1904 من وجدة، خاصة عندما شاع خبر وصول بوحمارة.

وبالفعل، فقد غادر الروكي بمحلة قوية تازة، بعد أن أخذ ما يكفيه من العتاد والمؤن وتحرك عبر الطريق التي جئنا منها خلال فصل الشتاء لتصل إلى مشارف المدينة.

وعندما علم المخزن بهذا الهجوم استقدم المدفعية وسديرة مع مدفعه 75 من طنجة حيث وصلوا بحرا، ولم يبق بوجدة سوى بعض الوحدات النظامية. وقد كان طول وقت العمليات، والشك فيما سيؤول إليه الأمر غدا، وانقطاع اتصالات المغرب بالخارج، والحياة المضطربة في القبائل، قد دفعت بالكثير من غير النظاميين إلى مغادرة المحلة تحت ذرائع مختلفة. حيث غادر بعضهم المحلة بحرا، لكن أغلبهم اتجه نحو الجنوب الجزائري أو الجنوب المغربي، وهكذا عبر المدني مع بعض القواد ووحداتهم أيضا وبشكل متتابع إلى الجزائر. ولم يبق سوى جنود الطواير مع قواد الرحي، وأرسل بعض القواد الجدد من فاس بحرا وهم : مولاي مصطفى بن مولاي عبد الرحمان بن سليمان قائدا عاما، تحت إشراف سيدي بوشتي البغداداي وسيدي عبد الرحمان بن عبد الصديق.

ستحاصر إذن أفواج الروكي المدينة قريبا. حيث وجدوا شريكا ثمينًا. بوحمارة الشهير، والمتمرد الجزائري مع وحداته من اولاد سيد الشيخ والشعامية أعتقد أن بوحمارة عندما رجع إلى وجدة لا إلى فاس، كان لا يريد أن يدخل على أهل فاس إلا وهو شريف، معتمدا في ذلك على خليفته بوعمامة. ثم وضع مدافعه على تل يشبه قالب سكر، يشرفه على كل

وحدة يسمى السمارة الصغيرة، وقصف من هناك المحلة الشريفة المعسكرة بسيدي موسى، كما كان يساعد حلفاءه بصوكات اسبوعيا ضد وجدة.

كما كانت المحلة تقوم مرارا بخرجات من وجدة. فقد تقدمت مرة بشكل غير مبال نحو معسكر بوحمارة مسيئين تقدير قوة بوحمارة، وبوعمامة الموجودة بجانب المدينة. وقد كادت أن يقبض عليها ورجعت مهزومة إلى وجدة. مخلفة خسائر كبيرة وعدة قتلى وجرحى (3 يناير 1905).

وبعد هذا، سوف يأتي دور أعدائنا ليتابعهم ويعنفهم أتباعنا بقيادة أحمد بن كروم (23 يناير). فمرت شهور دون أن يكون هناك شيء يذكر، وعلمنا في أحد الأيام، أن المتمردين كانوا يحاولون دائما نهب المدينة (وقد كان مع بوحمارة، ليس فقط بوعمامة الذي جاء من بني مظهر جنوب وجدة، لكن أيضا عبد المالك الذي جاء مع أتباعه من شمال تازة) فبعثوا بمخبرين لهم إلى معسكرنا ليجعلوا جنودنا يفرون « إنكم لستم مسلمين حقاً، مادمتم تحاربون مع المسيحيين، إنكم دائماً أولاد كرونيل، فتعالوا معنا وانطقوا بالشهادة « فقاموا بعمليتهم (مساء يوم 8 و 9 أبريل)، وقد كان بوحمارة ونظاميوه ومدفعيته متمركزين في أعالي جبل السمارة الذي حدثك عنه. وقد كانت الجهة اليمنى مكونة من وحدات بوعمامة وأولاد سيدي الشيخ والشعامية المعززين بزكارة وبني يعلى، وكانت الجهة اليسرى الأكثر حركية مكونة من فرسان السدجة وانكاد وامهاية، وبني محيو، وبني بوزككو، وكانت المواجهة / الحرب شديدة وعنيفة، حتى إن رجال بوعمامة كانوا يصلون إلى حدود خيامنا. لكن الجهة اليسرى كانت لا تحارب إلا متراجعة، وفي نفس الوقت كانت مدفعيتنا تقصف نحو سمارة بفعالية لا بأس بها، لإجبار بوحمارة على التراجع (9 أبريل 1905).

كما كانت هناك هجمة موازية تغلبنا عليها بدورها (30 ماي)، وفي الأخير واجهنا محاولة أكثر شراسة، حيث انتظمت أفواج الهجوم في ثلاثة حملات وصلت إلى حدود خيامنا، ولولا تدخل مدفعية البعثة العسكرية الفرنسية لا نهزم أتباعنا، وعند نزول الظلام طاردتهم المخزن إلى ما بعد (1 يوليو).

وظل السلطان دائما في فاس. مهتما شيئا ما بأفواجه الحاربة بوجدة. وقد كانت الاتصالات بين العاصمة ومحلثنا تتم دائما إما من الجنوب أو عبر البحر. ولإنهاء هذه العملية الأخيرة، ترك السلطة المطلقة وفوض الأمر لنائبه بطنجة : سي محمد الطريس.

وقد كان لتدخل الحكومة والأموال الفرنسية بدون شك أثر واضح في إخضاع المخزن لعبد المالك وبوعمامة، وبالنسبة لهذا الأخير، فإن ابنه سي الطيب قد سلم نفسه للسلطان الذي سجنه بموكادور. وقد كان الجزائري الذي كان متمردا دائما على الحدود الجزائرية المغربية يطالب الحماية / باللاجئ السياسي في فرنسا، أما المخزن فقد كان يريد الاحتفاظ به

رهينة لتفريق بوعمامة (أبوه) عن الروكي بوحمارة ووصل هذا الرجل إلى طنجة ليركب سفينة Galilée ، والذهاب إلى الجزائر حيث بقي بها إلى حدود 32 يونه 1906 .

وبعد هذا التشتيت للقواد المتمردين ، بدأ نفوذ بوحمارة يتقلص بشكل واضح وبدأ عدد أتباعه يتناقص ، بعد أن وجدوا أن سمعته وبركته لأساس لهما من الصحة ، خاصة أن وجدة بقت صامدة أمامه خلال شهور . وذات صباح من شهر أكتوبر ، أصبحنا ندخل ونخرج من وإلى المدينة بحرية دون وجود أي عدو . فقد التحق الروكي بجباله .

فقد ذهب عند سلوان قرب البحر مع مخزنه الصغير ، حيث كان يزود وبسهولة بالأسلحة والمؤن بل والأطعمة أيضا ، و ينتظر ظروفًا أحسن للدخول من جديد في المواجهات وكان قد فقد كثيرا من ولاء القبائل له ، خاصة بعدما علمت بعلاقاته أيضا مع الإسبان والفرنسيين .

ولم نعد نتحدث عنه كثيرا بل توجه الإهتمام كله إلى رجل قوي ، شريف حقيقي تتنامى قوته نحو جهة فحوص : المسمى الريسولي ، الذي سأحدثك عنه . وإلى أخ مولاي عبد العزيز وخليفته على الحوز وسوس منذ نونبر 1901 وأعني مولاي عبد الحفيظ .

لقد كان المخزن « مريضا » بالفعل ، ففي الشمال كان بوحمارة يلعب دائما لعبة السلطان خاصة أنه شريف . وفي الجنوب كان أخ مولاي عبد العزيز يستعد للإنتقال ضد أخيه الذي لم يعد يستطيع ضبط أمور « منزله » ، وينتقده كثيرا على إضاعته الأموال والترفيه واقتراض النقود ، وعن تراخيه في مواجهة المتمردين المحيطين به . أما وزراؤه الذين ينتظرهم مؤازرة المخزن ، فكانوا في صراع دائم فيما بينهم ولا يفكرون سوى في جمع الأموال ، وتصرفوا مثل وحداث القبائل التي شرعت في نهب أمتعة المحلة المهزومة قبل الهروب إلى دواويرهم ، كفتران أمام كيس قمح ميعوج .

الهوامش

- 1- يتعلق الأمر بمبشر أنجليزي إنجليزي يدعى M. Cooper (أكتوبر 1902).
 - 2- التحق عمر التازي بسفارة المنبهي ككاتب (1903). وقد كان «أمين المستفاد» أي واجبات وضرائب أسواق فاس.
 - 3- الطلبة المهندسين : فوج أحدثته مولاي الحسن، ليحصل على مهندسين معماريين ومهندسين في الطرق أو غيرها. وقد بعث بعضهم إلى فرنسا لمتابعة دروسهم. لكن نتائج هذا المعهد لم تكن في المستوى المطلوب.
 - 4- قطعة أرض صغيرة مسيجة بالأشواك، لحماية المزروعات والسكن.
 - 5- نشير هنا إلى بداية نمو ثروة بوحمارة الغريبة، المستند أساسا على الشعودة، وخدعة الرسائل التي حررها بيده لتشجيع انتصاراته، واستغلال سداجة أتباعه. فلا يلزم لخلق سلطان ما سوى خلق تيار معارض. وتاريخ وأصول ابن ياسين أو ابن تومرت أو المرابطين والموحدين شبيه بهذا الوضع الحالي، فلا يلزمه سوى بعض النقود وتسقط فاس بيده.
 - 6- كان أول يوم في رمضان 1902 هو ليلة 2 أو 3 دجنبر، عيد الفطر كان في فاتح يناير. ومن الممكن أن تكون هناك هدنة بين الحاربيين بين 15 دجنبر حيث بدأت الصوكانات و23 من الشهر نفسه الذي وقعت فيه الإضطرابات بين صفوف الأفواج الحزنية، لكن ليس بسبب رمضان، لأنها بدأت قبل ذلك بكثير، ولايتذكر راوينا إلى أن هذه الأحداث كانت في رمضان، وهذا صحيح.
 - 7- لقد خصص فصلا مهما عن بوحمارة
- Le Maroc d'aujourd'hui, chap. viii, p 108 A. Colin 8e edition.
- 8- كان لقب الروكي قد أعطي لذلك الشخص الذي حاول الاستيلاء على الملك دون أن يكون أهلا له، كما وقع في عهد سيدي محمد بن عبد (الرحمان) كان يسمى الجليلي الروكي الرواكة (سفيان الغرب)، لكن قضي عليه في بداياته.
 - 9- اقترض السلطان ما بين فبراير ومارس 1903 مبلغ 7500000 فرنك من باريس ومبلغا مماثلا أيضا من لندن ومدريد.
 - 10- بداية فبراير 1903.
 - 11- بالنسبة لهذه الفقرة من هذه التذكرات. فإن مصدرها مزدوج، شق منها لسي عبد الرحمان بن سدبرة، والآخر للخليفة الحاج سالم العبيدي، اللذان شاركوا معا في هذه الحملات. فعندما كان الحاج سالم العبيدي في الحج مع المنبهي. كانت تلك الخمسة الأشهر من الأحداث بحكاية عبد الرحمان بن سدبرة.
 - 12- مسكن أو تخيم فصل الشتاء في بلاد البرابر، حيث تخصص المساحة الكبرى للقطيع، وتختلف مساحة هذه الأراضي من شخص لآخر. وغالبا ما يستقرون في الأرض الخصبة والصالحة للزراعة.
 - 13- في الواقع إن بوحمارة كان منذ شهر ابريل بمنطقة واد كرت قرب قصبة سلوان، التي بدت له أكثر صلاحية لمشاريعة المستقبلية بتازة. وليست محلة المنبهي هي التي طارده إلى هذا المكان.
 - 14- توفي سي احمد الجاي بفاس يوم 19 أبريل 1928. فقد ولد في فاس سنة 1860، وهو أصلا من قبيلة «الحياينة» وكان متحسب فاس في عهد مولاي عبد الحفيظ، وأميناً للبايات الحزنية، ثم وزيرا للشكايات، وأصبح سنة 1912 وزيرا للأحياس في عهد مولاي يوسف. وقد توقف عن مزاوله مهامه في بداية عهد سيدي محمد بن يوسف (1927).

15 - وهكذا غادر الحاج المنيهي إلى طنجة، وتوفي بها ليلة 26 أو 27 يناير 1941.

16 - يتعلق الأمر باتفاقيات يوليو 1901، التي حسمت في الحدود الجزائرية، المغربية، والإعتراف باحتلال فرنسا لولايات (كواردة، وتوات، وتيدكلت). وكان لابد من اتفاق بين الحكومتين حول إرساء مراكز الحراسة بفكيك. وتحديد أراضي دوي منية وأولاد الجرير الموجودة تحت النفوذ الفرنسي، وقد كلف بهذه المهمة من جهة المغرب : سي محمد الكباص الذي كان خليفة لوزير الحرب، عند رجوعه من السفارة بفرنسا بتكليف من سي عبد الكريم بن سليمان الذي كان يرافقه.

17 - لقد ظلت وجدة تحت قبضة الروكي ما بين بونيه وغشت 1903، وعين بها الحاج محمد الوديعي باشا، وكان السكان في هذه المدة يطلبون تدخل الوحدات الفرنسية من مرنية، أفضل من أفواج بوحمارة، لكنه لم يتحمس لهذا الطلب من قبل الركينة وسي محمد الطريس ممثل السلطان بطنجة، فقد كان الخزن يخشى من تدني سمعته وكرامته من جديد.

18 - وقد كان من ضمن البعثة الفرنسية سنة 1903. الكولونيل سان جوليان Saint-Julien والقبطان فورنيي Fournier، والملازم شنايدر Schneider والأطباء فورنيال Fournial وجافاري Jalfary، وكان هذا الأخير محبوبا عند مولاي عبد العزيز، وعندما التحق سديرة بمركز طنجة، مر بالمراثش حيث مده المهندس Greusat بمذفع 75 آخر طراز والمون، وعلمه كيف يستخدم هذا السلاح.

الريسولي : «أحد ملوك الجبال»

فلنرجع شيئا ما إلى الورا لنعرف ماذا يجري في هذه الأثناء داخل المخزن وخارجه فبينما ظل بوحماره مستريحا بتازة، بعد رجوع الحملة إلى أوطابوعبان، واحتلال الأفواج الشريفة لوجدة، رجع المخزن إلى فاس مستعدا لمزيد من المشاكل المرتقبة (سنة 1904)، كان أولها وأخطرها، نقص الموارد النقدية، لأن مصاريف القصر استمرت في تصاعدها، بالإضافة إلى مصاريف مواجهة بوحماره، ناهيك عن تكاليف المؤن والبنادق التي ترسل بالآلاف إلى وجدة. وصيانة وترميم صفوف الأفواج العسكرية.

ولكي يقوي السلطان مداخيل خزنته، فقد قرر فرض ضريبة جديدة تسمى : «الترتيب» وكانت قد قررت قبل (غشت - شتنبر 1901) لكنها لم تستخلص بعد. والضرائب كما تعلم، قد حدد القرآن مقدارها، ولا أدري لماذا يراد أن يغير النظام الذي سار عليه أجدادنا وأقره الرسول (صلعم)، وجاءت هذه الضرائب أخيرا لتعوض : الزكاة والعشور (العشر)⁽¹⁾. ويأمر من المخزن فرضت رسوم، استوحاها السلطان من الأنجليز، على الجميع، وعلى كل شيء : الأغنام، والحمير، والخيول، والبغال، والجمال، والزياتين، والثمور وكل الأشجار المثمرة وغير المثمرة، والأراضي والأحجار، حيث كانت تدفع عنها مبالغ مقدما. ولم يستثن سوى هواء التنفس، وماء الشرب، ولم يفكر في الدجاج والبيض أيضا ! وقد تساوى في الأداء الغني الذي يملك قطعان الجمال، والفقير الذي لا يملك سوى حمار وبعض الخرفان، كما تساوى فيها أيضا الباشوات والشرفاء والأولياء وذوي البركات وغيرهم، لقد خضع لها وأداها الجميع. لكن، وفي واقع الأمر، فإن هؤلاء القواد والشرفاء والأولياء، قد ظلوا على مر الزمن، معفين من أداء الضرائب، ووجدوا هذا الإجراء والقرار الجديد غير عادل وغير شرعي وملزم. فرفض الأقوياء منهم الخضوع وأمروا قبائلهم بالتمرد ضد ضريبة الترتيب، وحمل السلاح إذا اقتضى الأمر على «القاعدة» العادة. مما جعل العدول والأمناء المكلفين بالاستخلاص يتراجعون عن مطالبتهم بالأداء.

وقد كان هذا الإجراء، ورد الفعل مضطرا آخر من مظاهر ضعف السلطة وعدم التحكم في الأمور، فتوالت الإضرابات والتمردات من كل القبائل. وكان أول أعداء المخزن في هذه الفترة : القواد الذين عينهم، لأنهم لم يعودوا يتقاضون رواتبهم. وكان من عادتهم

حينما يعطون مستحقات الترتيب إلى المخزن يأخذون « دوروان » (دورو) لكل فرد.
فنبض بالتالي مصدر ثروتهم.

ولم يعد يحصل الشيخ التازي، وزير المالية، على أي شيء من القبائل، ولم يعد يرى من حل سوى الإقراض من الأجانب، فافترض المخزن هذه السنة أيضا مبالغ هامة من النقود/ الملايين من فرنسا⁽²⁾. واستدعي ماك لان - الذي كان قد بقي في طنجة منذ الأيام العصيبة التي مر منها صديقه المنهبي - إلى فاس، وعادت له حيويته كما كان من قبل.

وكان الناس كلهم متمدرون، فالوزراء لازالوا هم نفس الوجوه (سي فضول غرنيط وسي عبد الكريم بن سليمان وسي عبد السلام التازي) وزير المالية يوليوز 1904، وسي محمد الكبّاص، لا يقومون بأي شيء، أو بالأحرى لا يستطيعون القيام بأي شيء، من أجل أن يرجع هذا الشعب إلى قبضة السلطان الذي استمر في الإنغماس في ملذاته، وكان لابد من مولاي حسن جديد في العرش، لكن ابنه لا يشبهه. فلا فائدة من الكلام ! فالمقدر مقدر ولا هروب منه.

واستمر بوحمارة في تهيج وشحذ كل راغب في المغامرة والعصيان والتمرد، خاصة أنهم كانوا يقولون : المخزن ضعيف جدا كطفل صغير، فلا بد من مدافع، ثم إن بوحمارة لازال يفرض قانونه وسلطته في تازة، فلم لانفعل مثله؟ فتحركت القبائل في تمرد تحت قيادة بعض الفوضويين الراغبين في تكوين ثرواتهم مستغلين هذه التمردات والإضطرابات. فكانت القصبات تسقط في أيديهم هنا وهناك، والمزارع تحتاج، وكان القواد الذين حدثتك عنهم يرجعون إلى أراضيهم بعد أن فروا من البرانس واتسول، ليجدوها قد اجتاحتها عصابات النهايين واللصوص الذين يتحركون ناهبين بين القصبات، عندما علموا بأن حماة وقواد هذه القصبات قد التحقوا بمحلة السلطان، فكانوا يعبرون كل الشاوية ودكالة والرحامنة وكل الحوز، فأصبحت الأسواق خالية تماما ولم يعد أحد يستطيع أن يؤمن غداء يومه أو غده.

وبعد مرور أشهر من دخول السلطان إلى فاس، كان مضطرا لبعث محلة إلى الشاوية من 3000 فارس، من الوداية والشراردة تحت قيادة عمه عبد المالك. الذي أرجع الأمور إلى نصابها في المنطقة، وعسكر قرب الدار البيضاء بعين مازي.

لكن كان يوجد بناحية الفحص (ضواحي طنجة)، والعنجرة، رجل أكثر ذكاء وقوة من باقي اللصوص والمتمردين، بدأ يثير اهتمام ليس فقط المخزن، بل المسيحيين أيضا ويسمى مولاي أحمد الريسوني أي من ريسانة (بترقيق الراء أو تفخيمها)، وهي قبيلة صغيرة من بداوة بين طنجة والقصر الكبير، فقد كان هذا الريسوني أو الريسولي كما يحلو لك، ولازال حيا ورغم كبر سنه لازال يقلق الإسيان⁽³⁾ متعلما، شريفا من زاوية تازروت،

إزداد بزينات عند بني عروس، وكان أخواله من بني مساور، فهو رجل جبلي فعلا قوي وعنيف وصارم في مقاومته، إنه فعلا جبلي حقيقي لم يستطع المخزن إخضاعه قط. فقد كان يرغب منذ صغره في المعارضة، وحكم الآخرين، وتجميع كل جبالة حوله. وبما أنه كان فقيرا فإنه كان يحصل على النقود من هجوماته وإغاراته على كل من يمر عبر الطريق الواقعة تحت نفوذه، أي القوافل الذاهبة إلى طنجة، أو القطعان المتجهة نحو القصر الكبير. فتنامت قوته بهذه المنطقة مما جعل مولاي الحسن يبعث ضده بعدة محلات. وكان دائما مايرده إلى الصواب، وأعتقد أن باحماد كان متبها إليه، ومحتاطا منه كثيرا، خاصة أنه يظل دائما طليقا حرا، يتمرد كل مرة رأى فيها أن المحلة لم تعد تهدده. لكن في أحد الأيام رأى السلطان أن قاطع الطريق هذا قد أصبحت قوته مهددة للعرش وخطيرة، فقبض عليه صدفة في سوق طنجة واقتاده إلى سجن جزيرة الصويرة، حيث يسجن معارضو الدولة. وفي الوقت الذي كانت فيه كل أنظار المغرب متجهة نحو بوحمار، أصبح الريسولي حرا طليقا، بعد أن أدى دون شك الغرامة، وخلع عنه قيود السجن⁽⁴⁾، ورجع نحو الفحص ليستأنف تحركاته ونشاطه من جديد، فكان من أتباعه حوالي مائة رجل من العنجرة مكوّنين حرسه الخاص : طويلي القامة. أقوياء، أصلاب، حذرين، متيقضين، شديدي وسريعي رد الفعل، يستجيبون بكل طواعية ودون مناقشة لأوامره. يرتدون جلاليب سود داكنة مسلحين بطريقة جيدة. كما كان له عدة جواسيس في كل مكان تقريبا يحملون إليه أخبار العائلات والأسر التي فيها معارضين له، أو من يريد أن يكون من معارضيه. وبمجرد عودته إلى الجبل التف الأهالي بقوة حول هذا القائد العائد من سجن المخزن، والذي يريهم آثار القيود على قدميه. وقد كان يراقب كل شيء من موقعه المرتفع بتازروت. حيث يعلم وقت وقوع الأحداث، أو أن هذه القافلة، أو ذلك الشريف، أو غريبا ما يتنقل نحو فاس في هذه المهمة يوم كذا ومن أجل كذا بكل دقة. فهو متحكم إذن في كل تحركاتهم ويظن أنهم في قبضته. فلم يعد المخزن يخفيه، وليس من السهل قطع جناحيه كما يقال، فهو صلب قوي كالجدار، فقد كان يتحرك على جواده بقوة وسرعة حتى إنه لا يعلم أين يوجد هل هو في تزنيّت أم في تازروت مقرا إقامته المفضلين، وكانت لحيته كتة تغطي وجهه، ونظراته حادة تجعلك تنجز ما يطلبه منك وبانحناء. وكان قائد حرسه هو خليفته ابن منصور.

هذا هو الرجل الذي يشير اهتمام المخزن في الغرب، والذي يريد أن يلعب دورا أهم من دور بوحمار مادام أن الفوضى والضعف هما السائدين بفاس، وكانت هناك محلة شريفة بقيادة مولاي عبد السلام الأمراني معسكرة على مشارف طنجة، لكنها غير مخيفة وقوية بالشكل الكافي، خاصة قد تأثرت بكثرة فرار الجنود وانتشار النهب والسرقة في صفوفها.

ورغم ذلك فقد هاجمت الأفواج الشريفة زينات، وأحرقتها (16 يونيو 1903) وكان قد اعتقل في هذه المواجهة صحفي إنجليزي Harris، جاء للإطلاع على الأوضاع بالمنطقة

وحبسه رجال الريسولي عدة ايام بزينات : لأن القبائل كانت حاقدة جدا على نفوذ الأنجليز بالقصر السلطاني. وفي الوقت الذي كان فيه القنصل الأنجليزي السيد آرثر نيكلسون Arthur Nicholson، والشريف مولاي أحمد الوزاني يتفاوضان لإطلاق سراحه، جاء أهالي العنجرة ليختطفوه من الريسولي، ويفروا به إلى أعالي الجبل، واتفق أخيرا على إطلاق سراح أسرى هذه القبائل في سجن المخزن مقابل Harris وحده (4 غشت 1903).

وفي السنة الموالية علم في فاس أن الريسولي قد اعتقل في مقر سكنه، بعيدا عن طنجة. مسؤولا أمريكيا يدعى Perdicas⁽⁵⁾، وذهب به إلى الجبل، وأنه لن يطلق سراحه إلا مقابل فدية كبيرة، وقبول عدة شروط، من ضمنها استبدال باشا طنجة الذي لا يروقه، وإرجاع المحلة التي تعيق تحركاته، فتسرب الخوف إلى العديد من الأوروبيين الموجودين بكثرة في طنجة، وطلبوا الحماية من قناصلهم، خاصة الأنجليز منهم، اللذين ينظر إليهم نظرة حقد والمتهمين بإفساد الأوضاع وتأثيرهم في اتخاذ القرار بالقصر. وذهب الفرنسيون إلى شرفاء وزان المشهورين بحسن وساطتهم في المنازعات، لكن الريسولي لم يطلق سراح Perdicas، رغم رسو بارجة أمريكية (6 طرادات حربية آخر شهر ماي 1904) بميناء طنجة. فقد كان يريد من المخزن أن يأخذ مقابل ذلك، حكم المنطقة الموجودة بين طنجة والعرائش، فاستجاب المخزن الحائف لجميع شروط هذا الرجل القوي والتحق Perdicas بطنجة يوم 25 يونيو 1904. وغادرت البارجة الأمريكية ميناء طنجة.

وفي هذه الظروف - ومن أجل تقوية صفوف الشرطة وفوج طنجة، أرسل السلطان النقيب Fournié، والملازم بن اسديرة من أجل تكوين رماة المدفعية، لكن لم يرحم الفرنسيون القلقون من مجريات الأوضاع إلا بعد رسو باخرتين حربييتين بالميناء (Kleber et Galilée). وقد كان هناك سوق كبير كل يوم خميس وأحد قرب ملتقيات طرق المدينة، حيث يتشاجر الناس فيما بينهم، والبنادق موجودة في كل مكان، وكان الأجانب يحتمون بسفنهم ويدافعون بالمدافع. لكن المتمردين لم يكونوا موجودين بالمدينة، بل في الجبال⁽⁶⁾.

وقد أظهر المخزن على نضج أكبر لتهدة هذا الرجل عندما قرر تعيينه باشا على الفحص، وجعل إقامته بأصيلا⁽⁷⁾. وقد وقع هذا في الوقت الذي قام فيه الإمبراطور الألماني كيوم الثاني بزيارة إلى طنجة، حيث استقبله مولاي عبد المالك عم السلطان، كما كان ماك لان، من ضمن الحضور⁽⁸⁾، فقبل الريسولي ذلك، وعين أخاه خليفة له (فاتح أبريل 1905).

وفي الوقت الذي كان فيه وزراء السلطان يناورون (يمارسون السياسة) : يقولون نعم اليوم، ولا، غدا للإقتراحات الفرنسية من أجل تنظيم جديد لطوابع الشرطة، قرر السلطان جمع كل القوى الفرنسية من أجل التقرير في الإصلاح الأحسن، مما سيفضي إلى مؤتمر الجزيرة الخضراء، بإيعاز من الألمان. ويبدو أن الريسولي الموالي للمخزن قد استغل هذه

الظروف وبدأ في استخلاص الضرائب باسم الخزن بشكل مبالغ فيه ويحتفظ بكل شيء لنفسه، ولما نبه أحد الأشخاص إلى سوء تصرفه هذا، وأنه سيؤدي الشمن غالبا (قطع رأسه)، أجابه بقوله :

__ لا يموت أحد إلا بأجله. أما ما تقول عنه. فلا تنسى أنه عندما أنفاني في خدمة الخزن فإنني لأنال أي جزء. فما علي سوى الاستفادة لنفسي فقط. فقد بدأوا يعرفون في فاس أنني رجل متمرّد عاص. إذن يجب أن أبقي كما أنا هو معروف.

هذا في وقت عجز فيه بوحمارة عن الإستيلاء على وجدة، بعد أن غادره حليفاه عبد المالك وبوعمامة. فاتجه نحو سلوان، حيث أمدّه الريسولي القوي بجنوده وقبائله الوفية قرب تطوان بالمساعدة، ولم لا يكون هو أيضا مطالب تاجح بالحكم؟ ثم إنهم سيكونان معا قوة ضد الوجود الأجنبي المتزايد بالمغرب، والذي يهدف إلى حكم المغرب، بعد أن جروا الأمير الصغير مولاي عبد العزيز إلى القيام بتعديلات سيئة، فاستغل الريسولي هذه الأوضاع وسخرها ضد السلطان بأن ألب الناس ضد الروميين (الأجانب).

ولم تفتأ النتائج أن ظهرت، فقد أعلن، الشيخ ماء العينين في الجنوب، الساكن في الساقية الحمراء، « الحرب المقدسة » ضد الفرنسيين حيث بدأ يجمع الرجال والأسلحة من أجل هذا الغرض واغتال العنجرة أتباع الريسولي فرنسيا على شاطيء طنجة⁽¹⁰⁾، فظهرت، وكالعالدة فرقاطتان فرنسيتان في ميناء طنجة، مما أجبر الخزن، ومن جديد على أداء غرامة حماية لباشا مدينته، فرجعنا إلى أيام قضية Pérdicaris، وسمع البارود وبمجرد الخروج من وسط طنجة، وفي الوقت الذي كان فيه بلغازي باشا طنجة قد دخل إلى المدينة لأخذ منصبه، كان عليه مواجهة رجال الريسولي، معززا بمحلة كبيرة من 3000 رجل معسكرة بعين الدالية (على بعد 15 كيلومتر من طنجة).

وعلى العموم، فإن الإضطرابات والتمردات قد عمت في هذه الفترة كل الجهات. وانشرح الشرفاء فرحا بعدما علموا ان مولاي عبد الحفيظ بمراكش، قد أعلن معارضته لأخيه. وحرص ابن مولاي رشيد فيلاله، الذين استقدموا وحدات من تودرة، وانتخبوا قائد للحرب «المقدسة» يسمى : اسعيد البخاري⁽¹¹⁾، كما دفع شريف آخر سيدي محمد البعزاوي الموجود بأولاد اسعيد، الشاوية ودكالة إلى التمرد، كما استقبل الشيخ ماء العينين في فاس مع حرسه (الرجال الزرق). (لون لباسهم)، وأغدق عليه السلطان الهدايا والأسلحة والمؤن⁽¹²⁾. وتحرك أيضا الشريف الريسولي ببعثه لعدة من أتباعه لد العون وساعده جنوده بأصيلا⁽¹³⁾

وقعت هذه الأحداث كلها والسلطان دائما في فاس، في وقت كان عليه أخذ احتياطات وإجراءات وقائية، ونهيء مشروع اتفاق الجزيرة الخضراء المنتظر، ولم يعد يعرف ما الذي

سيفعله. فالوزراء الأوروبيون بطنجة يطالبون باتخاذ أعجل التدابير ضد الريسولي، والمحلة العسكرية بعين الدالية غير كافية، لأن جنودها فروا منها جماعات بعدما لم يتوصلوا برواتبهم ويعد أن باعوا بنادقهم لأعدائهم.

وصباح ذات يوم وصلت بارجة من فرقاطات كبيرة إلى نواحي طنجة (14) وحتى يتفادى المخزن نزول أعداد الجنود «الرومين» للسهر على النظام بأنفسهم، فقد بعث بمحلة كبيرة إلى طنجة بقيادة سي محمد الكباص وزير الحرب، كما كان هناك أيضا سي بوشتي البغدادي، والقائد ماك لان بفيلقه، وضابط صف أنجليزي، وطبيب فرنسي، بالإضافة إلى المدفعية والنظاميين فوصل العدد إلى 4000 رجل. وترك الكباص في الطريق وحدات بالقصر الكبير وعين الدالية، ولم تقع أي مواجهات حيث فر أتباع الريسولي إلى زينات.

وبمجرد وصول وزير الحرب إلى طنجة، قرر مصادرة أملاك المتمردين الريسولي، فانتزع السلطان منه قيادة المحلة وأعطاه لباشا طنجة بلغازي، الذي كان قائد للمشور ثم باشا تطوان (1901)، فاستسلم أهالي الفحص، ثم العنجرة وبنى مسورة (27-31 دجنبر 1906)، ثم جهزت فرقة كبيرة من المحلة واتجهت نحو زينات عبر طريق طنجة إلى تطوان. فقصفت المدافع الثلاثة منزل المتمردين، فكان هناك عدة قتلى وجرحى من الطرفين، وأصيب بوشتي البغدادي (15) في كتفه، واستدعي طبيب المحلة Dr.Fourniel. فحل الظلام دون نتيجة حاسمة (6 يناير 1907). واستغل الشريف هذا الظرف ليفر إلى الجبال بأمتهته وأتباعه المعدودين بالمئات. وفي اليوم الموالي، استدعي الملازم بن اسديرة ليركز مدفعيته بدار الريسولي، أما الأفواج فقد هجمت على زينات، لكن كانت فارغة لم يبق بها أي أحد. وقد كان علينا إتمام العملية ليلا حتى نمنع خروج المتمردين لكن البغدادي المصاب قرر أن نعسكر على بعد كيلومترات من قمة حتى يتمكن كل أهالي زينات في تحويل أمتعتهم وقطعائهم (6 يناير) فجاء باشا طنجة بلغازي ليقود المحلة العسكرية دائما بكورات، في وقت اختفى فيه الريسولي عند أهل واد الراس، ثم بني مساور، وبني عروس وبني إدر، فتعقبته المحلة، وكانت تحرق وتنهب الدواوير التي حمت هذا المتمردين - فجاء الشيخ زلال من بني مساور، والشيخ الحاج العربي من ودراسة، ليعلنا استسلام قبيلتهما. لقد كنا في شهر مارس عندما وصلنا إلى بني عروس، لكن لم نستطع هزمهم. وقد يكون الريسولي موجودا بالقرب من شفشاون أو عند بني احسن.

ومادام أن تموين المحلة بالجبل شيء صعب، والمنطقة غير آمنة بالنسبة للمخزن حيث كنا نخاف أن نتفرق في المضائق، وأهالي الجبال قد اختفوا تماما من طريق هذه الحملة، ينهبون بعض الوحدات المنعزلة. ومادام أنه لم تخضع أي جهة في هذه الجبال، فإنه تقرر الرجوع في اليوم الموالي إلى طنجة معتبرين أن المنطقة آمنة، وتم العدول عن مطاردة

الريسولي الذي ساعده في نجاحه ذكاء أهالي الجبل. وفي طنجة تفككت أفواج المحلة، وعاد بوشتي البغدادي ابن باشا فاس إلى العاصمة.

أما بلغازي فقد عين باشا على مراكش (15 أبريل) حيث سافر بحرا ليلتحق بمنصبه الجديد، عبر أسفي رفقة 300 جندي.

كما وقعت أيضا أحداث خطيرة، حيث اغتيل الدكتور (Mouchamp) (11 مارس 1907)، مدير مستشفى المسلمين. وكان مولاي عبد الحفيظ على علاقة وطيدة مع الباشا الفعلي عبد السلام الورزازي، وهكذا لم يكن بإمكان بلغازي الإلتحاق بمراكش دون حراس اختفى أكثرهم في الطريق من كثرة الإنسحابات والفرار.

لكن قصة الريسولي لم تنته هنا : فلم يكن للقوة والسلاح أي نتيجة ويمكن أن تنجح بالمقابل المفاوضات وقد كان الدبلوماسي غير المنتظر لهذه المهمة، والذي سيدخل الريسولي إلى أحضان المخزن هو القائد ماكلان.

وقد كان الأنجليز يلامون ويعاتبون كثيرا، حتى إن السلطان كان قد حاول إجلاء كل البعثات الأجنبية الموجودة بفاس. وكان ماك لان يحاول أن يسترجع مكانته عند المخزن، خاصة بعد إقالة المنبهي. وفكر في إخضاع الريسولي، وأخذ بهذه الطريقة، فدخل معه في علاقات ودية، حيث استضافه بطنجة وقال له بأن الشريف لا يليق به احترام قطع الطرق، وأن السلطان سيغفر له إن هو ذهب إليه وأن الأمن والأمان سيعمان كل الأرجاء بدل هذه التمردات والاضطرابات، والفوضى، وأن من واجب المسلمين تعميم الأمان والسكينة والنظام من أجل تفادي تدخل الأوروبيين في شؤونهم، إلى غير ذلك من الكلام الذي يقال في مثل هذه المناسبات والذي لا أعرفه. فأجابه هذا المتمرّد بأنه مستعد لتلبية رغبة ماك لان لكن بشروط سيضعها ويجب الإلتزام به.

فرجع ماك لان فورا فرحا إلى فاس حيث أطلع مولاي عبد العزيز على الشروط التي حددها الريسولي وهي كالتالي : استرجاع كل ممتلكاته، واسترداد مهامه حاكما على الفحص وعاصمته أصيلا فاعتذر هذا المتمرّد عن عدم مجيئه إلى فاس، فعين أخاه ليمثله، لكن هذا الأخير رفض الذهاب إلا بعد أن يعطي الريسولي رهينة أوروبية من مستوى عال ومن نفس الأهمية.

فقال السلطان لماك لان :

__ لقد اخطأ الريسولي، عندما لم يأت هو بنفسه للوصول إلى نتيجة، فكان لابد من التفاوض معه.

__ فأنا مستعد لأن أنقل له هذا الكلام إن أمرتم بذلك.

— نعم، لكن ليست لي فيه ثقة كبيرة، فإذا ذهبت إلى هناك، فتحمل كامل مسؤولياتك، ومخاطر ذلك.

قال ماك لان :

— لست خائفا.

— وهكذا أكون قد تخلصت من كل مسؤولية لما قد يلحقك.

فذهب ماك لان عند الريسولي، واستقبل استقبالا حارا، حتى ظن أن مهمته في طريق إنجاز أحسن. وعند نصف الليل، دخل عليه حراس واقتادوه إلى غرفة صغيرة ثم اغلقوا عليه الباب، مفهمينه أنه أسير الريسولي (3 يوليو 1907).

وطلب في اليوم الموالي، من الشريف توضيحات بهذا الشأن. فقال له الريسولي :

— لا تقلق فأنت سجينني ظاهريا، دون أن تكون كذلك فعلا، فأنت الآن هنا كما لو كنت في منزلك فيمكنك أن تأكل وتشرب كما تريد. ويمكنك الخروج إلى القنص تحت حراسة رجالي طبعاً، ولكنني مضطر لأن أحتفظ بك حتى أنال العفو والرضى، فأنا لأطلب كبير شيء، فلا بد أن أحصل على فدية لك، وظهير من حكومتك يعترف فيه بي محميا أنجليزيا، وهذه هي الشروط التي تهتمك دون أن أتحدث عن تلك التي ستكون لي مع المخزن.

حدث هذا في جبال الخماس، على بعد أيام مشيا من طنجة، لكن في منطقة محصنة يمكن أن تساعد في التفكير على جمع أفواج من الرجال المحاربين.

فقد عانى ماك لان في هذه المغامرة، حيث كان رجال للريسولي مكلفين خاصة بمنعه من الانتحار وقد كان مبلغ الفدية 20000 جنيه استرليني مرتفع جدا. ونقصت شعبية وسمعة ماك لان كثيرا. فقد أصبح شخصا مفقودا لا بالنسبة للأجانب ولا بالنسبة للمغاربة، ولم يكن متيقنا بأنه ستدفع فدية لاطلاق سراحه.

فقال له الريسولي.

— لا تقلق كثيرا، فكل ما أريد بالضبط هو أن أصبح محميا أنجليزيا.

أما فيما يتعلق بمبلغ الفدية فلست متيقنا هل أعطته المجلثا لماك لان، أو هل تنازل عنها له الريسولي وأطلق سراحه؟ فليس هناك قطع في الأمر⁽¹⁶⁾.

وبعدما أطلق سراحه رجع ماك لان إلى الرباط للقاء السلطان، لكن وقعت في هذه الظروف أحداث أكثر أهمية في المغرب : تقدم حركة مولاي عبد الحفيظ، ورسو الفرنسيين بميناء الدار البيضاء. . . فرجع ماك لان إلى طنجة لقضاء مدة تقاعده.

نسيت أن أقول لك أنه عندما ألقى القبض على مالك لأن أعطى المخزن الأوامر إلى محلة بوشتي البغدادي للرجوع إلى البادية. فانطلقت هذه المحلة إلى الخماس (2 غشت)، لكنها انهزمت عقب خيانة الوحدات التي جمعتها من قبائل بني مساور وبني عروس وغيرهم. ويمكن أن لم يكن تقديم تلك الوحدات إلى شريف المحلة الأمراني، إلا لأخذ السلاح والمؤن، وضربنا في الظهر فيما بعد. وفي هذه الأثناء كان مالك لأن الذي لم يطلق سراحه فيما بعد. قد وضع في مكان يصعب الوصول إليه، ولا يمكن العثور عليه فيه أبدا.

فرجعت محلة الأمراني إذن إلى طنجة، وعاد قائدها إلى فاس، تاركا آلاف الرجال في عين الدالية. وحامية صغيرة بزينات الموجود بها المخزن دائما و 500 رجل بأصيلا وبمجرد انطلاقه (الأمراني) تقدم الريسولي حتى حدود بني عروس، ينتظر مستجدات الأمور (بيعة مولاي عبد الحفيظ). وفي هذا المكان قدمت له الفدية وأطلق سراح الرهينة (شتبر 1907).

وعندما بويع « السلطان الجديد » في المغرب كله، أعطيته صلاحيات كبيرة ومهمة، فأصبح قائدا على كل جباله التي تضم العنجرة، ودراسة وبني عروس، وبني إدر، وبني مساور، وكلهم أصدقاء الشريف، وأصبح مقر إقامته أصيلا كما طلب من قبل. أما الفحص مسرح انجازاته السابقة فكانت تحت سيادة قائد آخر.

ووجد الشريف فيما بعد، صعوبات كبيرة في استخلاص الضرائب (الزكاة والعشر) التي يطالبه بها المخزن، وكان العنجرة بصفة خاصة، في تمرد دائم ضده، لأنه كان يطلب عنهم ضرائب كثيرة.

واضطر ليقول لمولاي عبد الحفيظ أنه يريد الإستقالة وترك المخزن لأنه لا يمكن أن يستمر هكذا. فأجيب من فاس بإعطائه منصب باشا القصر الكبير. فالتحق بمنصبه الجديد واستمر في إبتزازه لجباله مما أرغم المخزن على نزاع السلطة من يده.

ومنذ هذا الإجراء، مرض الريسولي، وظهر عليه العياء والتعب، وأصبح هادئا، بل إن بني حسن ثاروا ولم يقيم بأي إجراء ضدهم، فكان يرى ويسمع كل الأشياء ولا يتحرك، وعندما سمع تقدم الفرنسيين نحو فاس (ماي 1911) بطلب من السلطان، غادر القصر الكبير مع أتباعه ليرجع إلى جباله، وليعيش بعد ذلك مدة، تارة صديقا، وتارة محاربا للإسبان. لكن ماذا كان يفعل بالضبط فلا يمكن أن أقول لك، لأنني لا أعرف أي شيء. (17)

تقدم تحركات مطالب حقيقي بالعرش : مولاي عبد الحفيظ

لقد نقصت شعبية مولاي عبد العزيز كما قلت لك، لأسباب عديدة منها : الضعف في السلطة والتسيير، والإقتراضات من الأجانب، والإصلاحات في ميادين المال والضرائب، الشيء الذي أضربا لمسلمين المثبتين بالنظام القديم (القاعدة)، إضافة إلى أنه لم يستطع

القضاء على بوحمارة الذي لازال دائما بسلوان بقصره ومخزن كسلطان فعلي : وكانت جهة كبيرة من الشرق موالية له بشكل تناوبي. ثم أن الريسولي الذي دخل معه في صراع. حيث كان يرفض وجود الأوروبيين في المغرب - يوجد دائما عند جباله كملك صغير مستغل بدوره. ثم هاهو خليفته وأخوه في الجنوب الذي كان يشجب تصرفاته، قد شرع في الدخول ضده في مواجهة مفتوحة.

أضف إلى كل هذا، تلك التمردات المعتادة يمينا ويسارا، تارة بالشاوية، وتارة بالغرب، وتارة في سوس بل حتى في ضواحي فاس، وبهذا ستفهم تلك المشاكل والمصاعب التي أصبح مولاي عبد العزيز المسكين يتخبط فيها.

وقد كان مولاي عبد الحفيظ الأكبر سنا من مولاي عبد العزيز قويا، سميينا كما شأن أغلب أبناء مولاي الحسن، يعارض بكل قواه الإصلاحات التي كان يقوم بها أخوه السلطان. وتعلم أن خليفة السلطان على الحوز وسوس بمراكش مسؤولية كبيرة، فهو بمثابة سلطان صغير ييئ في قضايا كثيرة دون استشارة القصر بفاس، ثم إن المسافة طويلة بين مراكش وفاس، خاصة أنه يجب المرور من مكناس ثم الرباط، ثم الشاوية. وكل هذا على ظهر الجواد، حيث يدوم السفر خمسة عشر إلى عشرين يوما. وقد كان للخليفة قصر صغير حقيقي أو حاجبه، وكتابه «ومشاورية» يقومون بمهمة قائد المشور، ثم مخازنيته الذين يكونون حرسه الخاص، ثم نسائه وعبيده واصطبلاته ! لقد كان فعلا سلطانا صغيرا. ووجود رجل طموح في مثل هذا المنصب لا يمكن إلا أن يدفع به إلى التطلع والإرتقاء نحو مرتبة السلطان في فاس. خاصة عندما يحس أنه مؤازر بعدة طموحين مثله، وبعدة معارضين للسلطان، ويصدق هذا الكلام وهذه الأوصاف على مولاي عبد الحفيظ. فقد وجد في شخص سي المدني الكلاوي، أهم وأغنى قائد في المغرب دعما غير منتظر، وتذكر أن المدني الذي كان محاربا جيدا، كان قد قاد الحملة الشريفة إلى تازة، ثم إلى وجدة أثناء أحداث بوحمارة، ولما طالبت مدة إنجاز العمليات بوجدة طلب الرجوع إلى قبيلته التي غاب عنها أكثر من سنة، فاستجيب لطلبه، لكن الحاج عمر التازي طالبه بغرامة قدرها 70000 دورو، أي حوالي (350000 فرنك)، ورغم الجروح التي أصابته خلال خدمته للمخزن، فإنه لم يكن محط رضاه، فقد كان يرى فيه قريب وزير الحرب السابق سي المهدي المتبهي، الذي يعاني من وطأة المصاعب والمشاكل الحالية.

فأصبح المدني، الغني والمحترم في مراكش، معارضا لمولاي عبد العزيز ولم يبق امامه سوى الانضمام إلى خليفة الحوز وسوس، الذي يقر ويؤكد ضعف حكم أخيه، ويسمع انتقاد الناس له، فاتفق مع الكلاوي على المواجهة، وهو إجراء رآه مناسبا لمطالب بالعرش مثله، وقد بدا له أن المعارضة الواضحة لوجود الأوروبيين هو الشعار الأنسب لالتفاف أكبر عدد ممكن من الأتباع حوله، وهكذا قرر دخول الأوروبيين تماما إلى دار المخزن تحت أي

سبب كان. واستقبل ماء العينين المعروف بسياسته المناوئة للفرنسيين استقبالا حارا. ويبدو أن شريف السمارة يحس براحة أكثر مع مولاي الحفيظ من مع مولاي عبد العزيز : لقد كان حليفا مناسباً خاصة انه معزز بموالاة كبيرة من أهل سوس، وكان يتبع أيضا مواقف المدني الكلاوي التي كلها انتقاد وعدم رضى بالأوضاع، ويبحث عن الطريق الصحيحة لإنقاذ المغرب والحسم في أمر العرش بفاس.

ولم تكن هذه الطريق أو الوسيلة سوى الحملة القوية ضد الأجانب وإعلان الحرب المقدسة الكفيلة وحدها بالتفاف أكبر عدد من الناس حوله.

ويبدو ان مولاي عبد العزيز كان على علم بمؤامرات أخيه، فقد كانت تصله الأخبار بواسطة باشا مراكش بن كبور حيث كان المخبرون يتبعون تحركاته ذهابا وإيابا إلى دار الخزن المجاورة للقصة، بل كانت تصله أيضا المحادثات السرية بين المدني والخليفة، وقد حاول دون شك إلقاء القبض على مولاي عبد الحفيظ في محاولة للحد من خطورته. لكن سياسته في هذا الاتجاه كانت متسمة بالتردد، خاصة أن أتباعه الأوفياء أصبحوا قلّة، وعدد جنوده يتناقص بشكل ملحوظ، كما كانت له محلة بالسعيدية لمراقبة تحركات بوحمارة : وثانية بعين الدالية لمراقبة الريسولي، وثالثة بالشاوية بقيادة مولاي الأمين، فكان عليه إذن الاحتفاظ بوحدات في فاس ومكناس، بالإضافة إلى أن عدة قبائل أخرى معارضة له لم تعد تؤدي الضرائب المفروضة عليها، وأمدت الخزن بوحدات شكلية إذا أريد تسخيرها ضد مولاي عبد الحفيظ. وفي الوقت الذي كان فيه هذا الأخير يعتمد على قوة قبيلة كلاًوة وبعد مرور بعض الوقت على متوكة والرحامنة الأقوياء دائما في الحروب، فإن مولاي عبد العزيز كان شبه متخلى عنه. وكان أكبر الأخطار هو الذي يأتي من الجنوب، مما أرغمه على مغادرة فاس بسرعة، والمناداة على الأفواج التي حكيت لك عنها للإلتحاق بالحوز أو أمام مراكش بشكل مكثف وقوي في وقت كان من الممكن حل المشاكل بالمفاوضات، وقال رجل : « لو كان مولاي الحسن حيا لصفى جميع المشاكل وحده، وقضى على بوحمارة والريسولي وجاء بهما أسيران إلى فاس »، وكان مولاي عبد العزيز قد استمع لنصح مجموعة من الشيوخ الورعين سي فضول غرنيط والكبابص، بالقيام بمحاولات لإجهاض هذا المد.

فبعث على التوإلي أعمامه، مولاي عرفة في الحوز (1905)، ثم مولاي عمر بمسفيوة، من أجل الوصول إلى مراكش والقاء القبض على الخليفة، لكن كان عليهم مواجهة قوات الكلاوي الكبرى المتمركزة بالمدينة، فخافوا من هزيمة نكراء إن هم عمدوا إلى الهجوم.

وحاول مولاي عبد العزيز استمالة القائد سي الطيب الكندافي والمتوكي، لكن هذا الأخير استغل غياب الكندافي في فاس قرب السلطان، لينهب قصبة أكركور غير بعيد عن أمزميز، ولما رجع الكندافي إلى قبيلة في ظروف صعبة اضطر ليبقى محاصرا بعض الأيام.

وانضم الرحامنة بقيادة القائد العيادي في السنة الموالية إلى مولاي عبد الحفيظ واتضح موقفهم المعارض للمخزن بشكل أكثر جلاء.

وقد حاول مولاي عبد العزيز مرة أخرى، بعد أن صالح المتوكني والكندافي، أن يستغل قواده الأوفياء بالمنطقة لتحقيق هدفه، وأعني بالقواد هنا : سي عيسى بن عمر العبدى، وسي السعيد بن الضاوية الدكالي، والحاج عبد السلام الوزرازي باشا مراكش المدينة، بالإضافة إلى عدة أفراد آخرين في سرية تامة. وكان مولاي عبد الحفيظ قد متن صفوف حرسه بعدما أخبره هذا أو ذاك فأجهض الهجوم المرتقب (1906).

وهكذا فكر السلطان في مواجهة أكبر دعامة للخليفة : سي المدني، وسجنه لأنه غني جدا، وليبحث على الإستقلال بنفسه، وهذا صحيح لأنه منذ أحداث وجدة قطع كل علاقاته مع المخزن، فقد كان قويا، وكانت تشكل أموال الكلاوي دعامة أساس لبيت المال، لكن الكلاوي أخبر حالا، ولما وصلت الأفواج المخزنية، كان قد احتفى بقصبته بتلوات حيث يصعب الهجوم عليه فيها، فلم تعمل هذه الأفواج سوى أن أغارت ونهبت بعض دواوير الجبل، ولم يكن من نتائج هذا الإجراء سوى تعجيل تحرك سي المدني الكلاوي ومولاي عبد الحفيظ، فالمخزن ضعيف جدا، والقضاء عليه أمر سهل ويفضل تأثيرهما تنامت ظاهرة معاداة الأوروبيين المقيمين بمراكش بشكل كبير.

وقرر السلطان تغيير باشا مراكش عبد السلام الوزرازي، الشيخ المريض الذي لا يحسن تسيير احوال الشرطة بمراكش، لكن في الواقع، وبدون شك أن سبب هذا التغيير هو موالاته لمولاي عبد الحفيظ، وعين بدله بلغازي باشا طنجة، وفي هذه المدة اغتيل الدكتور موشامب Dr.Mauchamp بمراكش وصرح الفصل الألماني أن هذا الطبيب كان يريد أن ينصب جهاز إرسال بربقيات والاتصال بحكومته (19 مارس 1907).

وتعلم أن الفرنسيين قدموا على هذا الإجراء باحتلال وجدة حيث تخلوا دون إطلاق رصاصة واحدة (29 مارس)، وقالوا بأنهم سيقون إلى أن يحل هذا المشكل ويعاقب المتهمون.

ووصل بلغازي المعين (يوم 15 ابريل) عبر آسفي مع 250 عسكري، على متن الباخرة «السعيدى» وكان يستعد ليلتحق بمنصبه الجديد، لكن وحدته العسكرية عددها يتقلص شيئا فشيئا : حيث كان الجنود يفرون لأنه قيل لهم أن في طريقهم محلة مبعوثة من قبل مولاي عبد الحفيظ تنتظرهم بالبنادق، ثم إن كل قبائل المنطقة معارضة للمخزن، وتريد مبايعة مولاي عبد الحفيظ، فرجع بلغازي إلى طنجة (11 يناير).

وكان من ضمن هذه القبائل الأكثر تحمسا ومعارضة الرحامنة، والمتوفرين على الخيول والأسلحة، فقد اغتنوا كثيرا لأنهم لم يؤدوا الضرائب المفروضة عليهم منذ مغادرة السلطان

مراكش (1901)، ويتضح لك الآن كم كانت سياسة مولاي الحسن حكيمة جدا، حيث لم يرح قط فقد كان يجوب أطراف المملكة، ويستخلص الضرائب حتى يمنع القبائل من أن ترفع رأسها. فهؤلاء الرجال لهم كل المقومات ليهجموا على مخزن مولاي عبد العزيز الذي يطالبهم بأداء مستحقا تهم المتبقية من الضرائب. وهم الذين عارضوا وجود بلغازي بمراكش وهم من كان يراقب طريق آسفي، وهم الذين أجلوا الأوروبيين المتبقين عن مراكش وفتحوا سجون المدينة التي كان بها معتقلون كثيرون منهم، وأرسلوا مبعوثين إلى دكالة والشاوية ليمدوا لهم يد العون، ومعلوم أنه كانت لهم محاولة سابقة مع مولاي امحمد أجهبها باحماد المتوفي، والذي لم يعوضه أحد في نفس قوته في المخزن. وقد كانوا يعلمون أن الأفواج النظامية، ورغم وجود مدرّبين أجانب، لم تعد لها نفس القيمة والفاعلية في عهد مولاي الحسن، وأن المخزن لا يتوفر سوى على وحدات قليلة من النواب، والدليل على ذلك مقاومة بوحمارة والريسولي لها.

وكان يقال، بأن محلة السلطان ستخرج للذهاب إلى الرباط، ومن ثمة إلى مراكش، وكانوا المسؤولون يعملون قصارى جهدهم لتمدهم القبائل الخاضعة بوحدات جديدة التي يطلبها منهم مولاي عبد العزيز. لكن كان يسمع في صفوف تلك الوحدات :

— أتريدون الانضمام إلى أولاد كروني (الأجانب)، ماذا ستفعلون أيها الحمقى؟ هل أنتم مستعدون للعيش سنة كاملة تحت الخيام، والصبر على قصف بوحمارة والريسولي؟ ما سيكون مصير ممتلكاتكم وأنتم غائبون عنها؟ أتذكرون رجوعكم من وجدة! أو لستم مسلمين مومنين حقا؟ واعلموا أن «الحرب المقدسة» سوف تندلع، وأن كل المسلمين يجب أن يضعوا اليد في اليد، فابقوا إذن معنا «فالروميون» سوف يخسفون في كل الجهات، وسنرمي بهم في البحر، وسيكون قائد المقاومة سيدنا : مولاي عبد الحفيظ بن مولاي الحسن، مناصر الإسلام الثابت.

فلم يبعث قواد الخوز والجنوب أي وحدة إلى محلة فاس.

وهذه الفترة هي التي كان فيها ماك لان أسيرا للريسولي (3 يوليوز 1907)، والتي اتفق فيها مولاي عبد العزيز مع القوات الأوروبية على تكوين أفواج الشرطة (17 يوليوز) والتي اغتيل فيها مسيحيون كانوا يشتغلون بميناء الدار البيضاء من قبل مديونة وزناتة دون أن يستطيع لا مولاي الأمين باشا الدار البيضاء ولاسي بوبكر السلاوي أن يتدخلوا (30 يوليوز). وتعلم أيضا أنه كان من نتائج هذا الحدث ظهور فرقاطتان بالمرسى. (Le Galillé et le Duchayla)، وقصف المدينة (5 غشت 1907) ثم نزول أفواج الجنود الذين كانوا على متنيهما (7 غشت)، ولكن كل هذه الأحداث مذكورة في كتبك ولا فائدة من أن أحكيها لك بدوري.

والسلطان مولاي عبد العزيز لازال دائما بفاس . حيث أخرج الفراك (في ماي)، لكن لم يستطيع الذهاب، فالخزينة كانت فارغة، وطلب قروضا من البنوك ليدافع عن نفسه، لكن البنوك ترددت في إعطائه مبالغ كبيرة (فقد اقترض 62 مليون سنة 1904).

وكان يبدو أن الظروف كانت مساعدة لحركة مولاي عبد الحفيظ حيث زادت هذه الأحداث من هيجان وتمرد أهل الجنوب خاصة بعدما علموا (حوالي 12 غشت) أن الدار البيضاء قد سقطت في يد فرنسا، فقرروا مبايعة مولاي عبد الحفيظ يوم الجمعة المقبل (16 غشت) بمسجد القصبة.

وهكذا اجتمع كل أعيان وأشراف وعلماء المدينة بالمسجد، بحضور مولاي عبد الحفيظ وأتباعه، والقائد المدني الكلاوي وأقاربه. ومختلف موظفي الخزن وبعد كلمة وعظمية (الحديث) أخذ الكلمة مولاي بوبكر أخ السلطان وقال :

__ نعلم جميعا أن مولاي عبد العزيز قد باع بلدنا للمسيحيين لاشباع رغباته، والأدلة على هذا واضحة حتى بالنسبة لمن لا يود رؤية ما يحدث. فهم قد استولوا ومنذ شهور، على وجدة باب الشرق، ولا يبدو أنهم مستعدون لتركها، بل إنهم يجبرون إخواننا على الخضوع لقوانين وعادات بلادهم، وتعلمون الآن أنهم قد نزلوا إلى ميناء الدار البيضاء، بأعداد كبيرة مسلحين بالرشاشات والمدافع، وأنهم أغرقوا هذه المدينة «المسكينة» باب الغرب في الهموم والفوضى والإضطرابات، هاهي يدهم تمتد نحو إخواننا الشاوية «المساكين».

(وكان مولاي عبد الحفيظ في هذه الأثناء يبكي لأن أمه من هذه القبيلة، وبكى معه الحاضرون). . . وأمام هذه المصائب التي تتوالى علينا لأحد يستطيع أن يبقى دون حراك، ولا أن يخفي آلامه، فيجد إغاثة إخواننا المنهكين في قبائل الشاوية التي تواجه المستعمر الغازي، وإذا كان سلطاننا عاجزا على تجهيز كل الجنود ومواجهة العدو، وأعتقد أنه كذلك فإنه يحق للعلماء والشرفاء اختيار قائد قوي يلتف حوله المومنون الأتقياء. وقد حان الوقت لإعلان الحرب المقدسة، فهل سننتظر دون إطلاق النار حتى يصل العدو إلى مشارف الأسوار (أ سوار مدينة مراكش)؟

فقال الآخرون :

يجب أن نتحرك فوراً ونعين قائدا للمقاومة.

فقال سيدي محمد ولد مولاي رشيد : (18)

__ إن الرجل الذي يستحق أن يكون سلطانا هو العالم والعارف الخليفة الإبن الصغير للسلطان (حتى لا يلتبس مع مولاي امحمد الأكبر منه سنا) الشهم والشجاع صاحب

الأيادي البيضاء على الناس ومحط الرضى سيدنا ومولانا عبد الحفيظ ابن سيدنا الحسن بن سيدي محمد بن عبد الرحمان بن هشام نصره الله.

فنهض سي المدني الكلاوي وانحنى أمام مولاي عبد الحفيظ وقال :

— الله يبارك في عمر سيدنا، مولاي عبد الحفيظ !

فرد كل الحاضرين هذه العبارة بحرارة، ثم أتوا لتوقيع عقد البيعة.

وأصبح للمغرب سلطان ثان وفي اليوم ذاته فتح مولاي عبد الحفيظ مخازن الأسلحة والمؤن، وصناديق الخزينة، في وقت كانت المدافع تصدر طلقاتها (إعلانا للبهجة والفرح)، والبراحة يجرون في شوارع المدينة مرددين :

— الله ينصر مولاي عبد الحفيظ !

وفي اليوم الموالي بدأت تتوافد « الهدايا » إلى دار المخزن. وكان في مقدمة أهالي مراكش : عبد الحميد بن عبد السلام الورزازي ابن الباشا، وكنا نرى ضمن الهدايا المعتادة بعض الإماء والخيول المسرجة بأحسن طريقة. وجاء اليهود في مقدمتهم اسحاق كركس Isac Carcos، مرتدين ثيابهم المزينة بالحرير. وكان مولاي عبد الحفيظ يستقبل التحايا والهدايا معتليا عرش أخيه في « القبة » التي كانت مكتب السلطان، والمدني الكلاوي على يمينه والكندافي على يساره.

فأعطيت الأوامر بالهجوم ونهب دار بلعربي قائد « فرايكية » (أصحاب الفراك) مولاي عبد العزيز، حيث وجدنا ضمن أشياء أخرى كيسا مليئا « باللويز » (الذهب) بين قفاطين.

وزار مولاي عبد الحفيظ بعد ذلك ضريح سيدي بلعباس السبتي، وضريح مولاي عبد الله بن احساين الحسني شريف تامصلوحت، ثم قرر بعد ذلك تعيين مولاي بوبكر خليفة على الحوز وسوس. وعبد الحميد والورزازي باشا على مراكش، وأمر أخيرا بإخراج الفراك استعدادا للإنطلاق القادم مع محلته إلى الشاوية، فأرسلت الرسائل المعتادة إلى كل القبائل مختومة بخاتم مولاي عبد الحفيظ بن مولاي الحسن.

فبايعه الرحامنة والسراغنة وقبائل الحوز على التوالي، باستثناء القائدين انفلوس والككلولي، والشاوية ودكالة وعبدة.

لكن ماذا يحدث في فاس؟ فقد وصل إليها خبر مبايعة مولاي عبد الحفيظ دون أن يثير ذلك استغرابا لكن مصحوبا ببعض عدم المبالاة والإكثارات والاستهزاء، ليس من الذي بويج سلطانا، وله جميع الموصفات لذلك، ولكن من هؤلاء الذين بايعوه، لأنك تعلم أنه لا يوجد العلماء إلا بفاس وهم من لهم الصلاحية والشرعية في إقراربيعة السلطان.

ورجع بوشتي البغدادي من طنجة، بطلب من مولاي عبد العزيز لقيادة محلته، ويتنظر دائما الأيام والظروف المناسبة للإنطلاق، وأصبح السلطان أكثر غضبا وخفقا من تتبع تحركات أخيه ومحاولاته لإزاحته عن العرش. فكثف مجهوداته في الإستعدادات، علما بأن قبائل الجنوب لم تبعث له بأي رجل.

ولما لاحظ أن الفاسيين قد استقبلوا هذه المبايعة ببرودة، جمع العلماء بمسجد القرويين، وطلب منهم الإجابة عن هذين السؤالين :

___ هل حان وقت الحرب المقدسة؟

___ هل يحق لخليفة الحوز مولاي عبد الحفيظ أن يأخذ العرش؟

وبعدما فكر العلماء جيدا، أجابوا بما يلي :

___ لا، لم يحن الوقت لإعلان الحرب المقدسة مادام أن الأجانب لا يحتلون وجدة والدار البيضاء إلا لمدة حل مشكل اغتيال أتباعهم، ثم إن مولاي عبد الحفيظ ليس له الحق في ادعائه، لأنه لا يمكن أن يكون هناك سلطان إلا إذا كان ذا أشرعية تامة، فسلطاننا إذن هو مولاي عبد العزيز.

وعقب هذه الإجابات المناسبة غادر مولاي عبد العزيز فاس بمحلة من حوالي 3000 رجل. (12 شتنبر 1907) ووصل إلى الرباط (23 شتنبر)، وكانت الحراسة الخلفية تقصف كالعادة القبائل الموجودة في الطريق : بني مطير، وكروان، وبني احسن.

وهذا في وقت كان فيه الفرنسيون بتادرت (11 شتنبر)، واستسلم زناتة والزيائدة وأولاد زيان وفي الوقت الذي وصلت فيه محلة مولاي عبد العزيز الرباط عابرة أراضي قبائل متمردة، كان مولاي عبد الحفيظ قد تحرك بإرساله محلة من 3500 رجل وأربع مدافع، مكونة في أغلبها من الرحامنة والسراغنة، بقيادة سيدي محمد ولد مولاي رشيد إلى الشاوية، لاستمالة القبائل إليه وإعاقة تحركات الفرنسيين في المنطقة (غادرت هذه المحلة مراكش يوم 16 شتنبر)، فمرت عبر سطات لتعسكر بين قصبة مديونة وبرشيد، وجلبت حولها كلا من المداكرة وأولاد زيان وأولاد سعيد، وأولاد سيدي بن داود، وأولاد بوزيري، والمزامة.

كما ذهبت محلة « حفيظية » أخرى إلى بلاد حاحة حيث يوجد القائد انفلوس، فبعث الخزن ضدها جنودا نظاميين 300 من طنجة، و400 من الرباط (23 أكتوبر).

وفي نفس الوقت (15 أكتوبر) كانت محلة مولاي عبد العزيز قد غادرت الرباط في اتجاه مراكش بقيادة بوشتي البغدادي مع الشريف مولاي الزين أخ السلطان، ومادمت

أحدثك عن إخوته فإنني أشير إلى أنه قد صاحب معه أخاه مولاي امحمد لمزيد من الإحتياط، وترك بفاس أخاه مولاي الكبير، وكنا نرى أيضا ضمن هذه الحملة مولاي عبد المالك عم مولاي الحسن، وسيدي عبد المالك بن عبد القادر الذي سنجده في مرحلة لاحقة بالريف. ووصل عدد أفراد هذه الحملة 4000 رجل وسرية مدفعية (3 مدافع)، وبعض الرشاشات Maxim، وضابطان جزائريان مدربان (سديرة والمأحي)، وعززت الحملة في الطريق بوحدات القائد قاسم، والقائد ولد بامحمد الشرقي قائد شراكة الحالي (1925)، الذي كان معاديا كبيرا البوشتي البغدادي، وسيؤكد ذلك عند فراره منذ أول مواجهة.

فعبنا قصبة تمارة، وسيدي يحيى، وواد الشراط وسيدي بن سليمان عند الزيادة التي يسميها الفرنسيون حاليا Boulhaut. وفي هذا المكان نشبت معركة مع المذاكرة الذين لم يكونوا وحدهم، بل كانوا مؤازرين « بجنود » من محلة مولاي عبد الحفيظ بقيادة شخص يدعى : القائد رحو الذي كان له مدفع ويتبعه كثير من الشاوية. فقاوم بوشتى بشجاعة وكاد أن يهزم، فطلب من وحداته الرجوع إلى المعسكر حيث طاردنا العدو وأجبرنا على المواجهة حتى حدود الليل. فلم نعد نتحكم في الوضعية، حيث كانت تتوالى القذائف على المعسكر، لدرجة أنه غادرها كثير من الجنود في اتجاه بوزنيقة مطاردين دائما من قبل المذاكرة لكن بخطر أقل من المعسكر، وبمجيء الصبح توقفت المطاردة، وعسكرنا بقصبة الصخيرات (25 نونبر)، ووصلنا في اليوم الموالي إلى تمارة عند الوداية حيث مكنتنا خمسة عشر يوما.

ويجب القول إنه قد ضاعت في هذه المواجهة عدة أمتعة وخيام، وأسلحة وأكياس المؤونة، وتركت عدة بغال وخيول رغم تعليمات وتسيير بلغازي الصارم لبوشتى البغدادي الذي كان يعاقب المخطئين كثيرا. فكان مختلف قواد الرحي للأفواج النظامية يكرهونه ليس لهذا السبب ولكنه لأنهم كانوا حفيظين وأنهم يرغبون في خدمة هذا السلطان الجديد المباع في مراكز المعادي للمسيحيين، بدل تنفيذ أوامر بوشتى الذي يتلقى التعليمات من الجنرال Drude، والمتواطئ مع الفرنسيين وكان هؤلاء القواد يبيعون في الطريق، رصاصهم بالآلاف للشاوية، ويتركون طوابيرهم تتحرك كقطع خشب فوق الماء، فأنهك بوشتى، وخانه ولد بامحمد الشرقي الذي غادره وتراجع مع فرسانه عند أول المواجهة بسيدي بن سليمان، لقد كان بوشتى محاربا جيدا، ولا يمكن أن نلومه على انهزامه أمام أتباع مولاي عبد الحفيظ، المتحفزين حماسا وفرحا بما يفعلون، وكان من نتائج هذه العملية انضمام حلف حمو الزباني وانفلوس إلى مولاي عبد الحفيظ.

وبعدما استراحت محلة بوشتى ورممت صفوفها، رجعت إلى الرباط، حيث يوجد السلطان معسكرا دائما بأكدال، قريبا من دار المخزن، حيث بقي دون حراك إلى حدود ماي 1908.

وكانت فاس في هذه الأثناء هادئة.

فالروكي بوحمارة موجود دائما عند كبدانة بقصبة سلوان، حيث دخل في علاقات مع الإسبان من أجل ترميم صفوفه بالأسلحة والمؤن، مع العلم أنه لم يعد معه أفراد كثيرون ويحاول إعادة الاعتبار إليه، والاستمرار في لعب دور سلطان وهمي أمام أتباعه.

وقد كان مراقبا في هذه الجهة بمحلة وجده العسكرية بالسعيدية، لكن هذه الأخيرة لم تعد تتوصل، ومنذ مدة، بأجورها، ولم يعد يعيش أفرادها إلا من نهب جيرانهم يمينا ويسارا بل حتى القبائل الخاضعة للمخزن، ولم يعد يسودها أي نظام، ولم تصبح سوى جماعة من الرجال لا قيمة لها، ودون انسجام فيما بينها، أي جماعة من اللصوص باعوا أسلحتهم من أجل الطعام بل إن قائدها عبد الرحمان من عبد الصادق قد سرق بدوره حيث أخذ قائد الرجي الجليلي السרגيني خيمته وخيوله وأمتعته شارحا لهم بأنه من الأفضل له حماية نفسه.

ورغم هذه الظروف بقت معسكرة أمام سلوان محاصرة بوحمارة، حيث سنجدهم بها في مرحلة لاحقة.

وماذا عن أخبار مولاي عبد الحفيظ؟

فبعد مبايعته، ولكونه دبلوماسيا قويا. ولكي يتقرب من الأقوياء، تزوج إحدى بنات سي المدني الكلاوي لالة ربيعة، وبنت موحى أحمو الزباني لالة رابحة، وكانت هذه الأخيرة قد أهديت لمولاي الحسن أثناء محلته الأخيرة، فبقيت بحريم مراكش، وتوفي السلطان بدار ولد زيدوح، وقد كان مولاي عبد الحفيظ يبحث على تمتين علاقته بالمحارب القوي في زيان، وعلى المرور من أراضي من أجل الوصول إلى هدفه الكبير : فاس، فتزوج بنته، وانظم إليه موحى أحمو بسهولة بعد مواجهة سيدي بن سليمان التي حكيت لك عنها.

وقد حان وقت الإنطلاق من مراكش أفراد قصره، ومخزنه الذين كنا نلاحظ منهم. الوزير الأول سي المدني الكلاوي، وسي عيسى بن عمر وزير الشؤون الخارجية، والشريف سي محمد البعزاري الذي يحترمه الشاوية كثيرا، ونساؤه وخيامه ووحداته من الرحامنة وكلاوة وقبائل الحوز، وبعض المدافع والرشاشات فغادر مولاي عبد الحفيظ هذه المدينة في الأيام الأولى من دجنبر عبر زاوية بن ساسي وتملالت الجديد.

لكن هنا بدأت المشاكل مع السراغنة أتباع مولاي عبد العزيز الذين حملوا السلاح بتشجيع من ولي يسمى سي محمد بن داود. وبعد مناوشات بسيطة ومفاوضات كثيرة، استسلموا وأمكن للمحلة أن تعسكر بالقلعة عاصمتهم (92 دجنبر 1907).

وبعد إقامة طويلة بالسراغنة عبر مولاي عبد الحفيظ هذه الأراضي مع أصدقائه الرحامنة ليصل إلى مشرع الشعير وهو معبر على واد أم الربيع فوق واد كيسر بعض الشيء (26 يناير 1908). وفي هذا المكان وصله نبأ مبايعة أهل فاس له (4يناير).

ذلك أن أعيان المدينة، الفلقون من الشلل الذي أصاب حركة مولاي عبد العزيز، وتقدم الأفواج الفرنسية في الشاوية، وانهزام محلة ولد مولاي رشيد بقصبة مديونة (1-1-1908)، والشرفاء والعلماء وكل من يعتاد وجودهم في مثل هذه المناسبات، قد اجتمعوا بمسجد مولاي ادريس، حيث تناقشوا في طبيعة الوضع سلبا وإيجابا، وانتقدوا تسيير السلطان للشؤون وكثرة الديون (فقد طلب السلطان منذ مدة قريبة مليونين ونصف من فرنسا) وقرروا في النهاية : مبايعة مولاي عبد الحفيظ لكن شريطة أن يأخذ هذا السلطان الجديد مجموعة من التدابير لإنقاذ الأوضاع الحالية للمغرب، وأول تلك التدابير، مواصلة الحرب المقدسة دون هوادة وثانيها إزالة الحواجز لدخول المدن والأسواق. وثالثها لا يسمح بوجود الأوروبيين إلا في الميناءات، والسكن في « الملاحات » (لكن عندما وصل مولاي عبد الحفيظ إلى فاس، لم يستطع أولم يرد تطبيق شروط وطلبات الأعيان، بل فرض مبالغ جديدة مضاعفة للملاخزنة الدولة)، وعندما عينوا سي عبد السلام الأمراني ممثل السلطان في فاس، بعثوا بوفد لإخبار السلطان بهذا المستجد، (الوفد الذي جاء إلى مشرع الشعير) فسر مولاي عبد الحفيظ برؤية أفراد الوفد، وبعث رسلا إلى مراکش لإعلان بداية الحرب المقدسة بها، وطلب من الأمراني القيام بالشيء نفسه في فاس، وبعث إليه بأفواج كثيرة وقوية من الرجال والتحق بالسلطان فيما بعد عدة الاف من الرجال، لكن سلاحهم عتيق، وينقصهم الرصاص والبارود وكانت خزائن القصبة شبه فارغة. وبصفة عامة، بدأت القبائل تستجيب شيئا فشيئا لهذا النداء، ولم تكن تشهد في هذه الوحدات الموجودة بمشرع الشعير، لاعبدة ولا الشياظمة ولا حاجة ولادكالة، ولا سوس درعة.

ثم التحق بالسلطان في مشرع الشعير. الملازم المخلص سيدي محمد بن مولاي رشيد مريضا تاركا وراءه أفواج الشاوية تحت قيادة عمرو السكتاني، وحكى له ما يقع في الشمال فقد أصبح على رأس الفرنسيين قائد جديد الجينرال داماد D'Amade (الذي وصل يوم 5 يناير) لا يسير على نهج سابقة، حيث كان يترك حراسة قوية في المناطق التي يحتلها، فكانت توجد مجموعات في كل مكان في بوزنيقة وفضالة ومديونة وسطات وبرشيد. فأرسلت وحدات تقوية مع الشريف مولاي المامون.

وظل مولاي عبد الحفيظ دائما بمشرع الشعير، ينتظر ويسمع قلقا من سير الأمور، وفي هذه الفينة هزم الفرنسيون عمر والسكتاني في بلاد المداكرة، ورجع البعزاي الذي

بعث لهجوم جديد إلى معسكر مشرع الشعير منهزما (7 أبريل)، وكنا نسمع بين الفترة والأخرى أصوات المدافع، ما العمل؟ ما الذي قمنا به منذ ثلاثة أشهر؟ فاستدعى مولاي عبد الحفيظ مجلسا للتشاور في سير الأوضاع : فبعضهم يريد الرجوع إلى مراكش، والبعض الآخر يريد البقاء هنا للتقوي أكثر وحماية معبر الواد. والإلتصار على العدو قبل أن يصل إلى فاس. فبرابرة موحى أحمو الزياني سوف يلتحقون بالسلطان الجديد الذي سيدخل إلى فاس دخول المنتصرين حاضيا برضى الجميع. لكن هل سيصل العدو إلى حدود الواد؟ تحدث آخرون، ومن ضمنهم البعزوي، للسلطان عن المخاطر التي تحيط به وعن وضعيته غير المناسبة. فمن الأفضل الذهاب نحو فاس حيث يستطيع مولاي عبد الحفيظ بالنقود ومساعدة أعيان فاس معاقبة هؤلاء المتمردين حين يحين الوقت لذلك.

فأخذ مولاي عبد الحفيظ بهذه الاعتبارات والحشيات، خاصة أن وحدات التقوية التي أرسلها في هذه الفترة قد نقص أعداد أفراد جنودها، فلم يعد بجانبه سوى بعض الألف من الرجال وعشرات الرشاشات وأربعة مدافع، لكن أصدقاء ظلوا دائما ملازمين له وأعني بهم : المدني الكلاوي، وسي عيسى، والبعزوي وأتباعه الأوفياء من زيان أصحاب موحى أحمو الزياني المكونين لحرسه الخاص، وقرر الذهاب إلى فاس شرقا، وهكذا انطلقنا نحو بلاد بني مسكين (21، 23 أبريل) ثم مررنا بملكو، وصخرة الدجاجة، وعين مازا ببلاد بني خيران، ثم بسيدي محمد ولد البصير، وسيدي عتروس ببلاد السماعلة ثم إلى واد كرو ومشع عشرين زوج حيث ارتحنا بعض الشيء. فوصل مولاي عبد الحفيظ إلى ضواحي مكناس عبر مولاي بوعزة وولماس وواد بهت ودخل المدينة دخولا احتفاليا (15 ماي)، وشعبيا كبيرين، وجاءت أفواج الكيش للأئحناء أمامه ومبايعته.

وبينما كان مولاي عبد الحفيظ يتقدم نحو مكناس، كان قد أعطى أوامره لقبائل الشاوية بالتوقف عن الحرب، وإمداده بالأفواج والوحدات التي كانت موجودة بناحيته، ففهمت القبائل المنهكة أنه قد انهزمت فاستسلمت الواحدة تلو أخرى للجنرال داماد D'Amade وقد كانت هذه الجهة كلها ترغب في السلام والتوقف عن الحرب.

وقد حاول السلطان الثاني - مولاي عبد العزيز الموجود دائما بالرباط، أن يواجه تقدم تحرك أخيه نحو فاس.

وفي ماي 1908 اجتمعت حملة عسكرية بقيادة بوشتي البغدادي في سلا بالحدائق المجاورة للمدينة، استعدادا للإنطلاق نحو فاس لمنع دخول مولاي عبد الحفيظ إلى هذه العاصمة. فوصلت هذه الحملة إلى القنيطرة. (9) ثم سيدي عايش ومشع انرملة حيث توقفت، وكان قائد هذه الحملة هو مولاي الزين، والعارف بطرق ومسالك هذه الجهة هو القائد بلعروسي من بني احسن. وكانت وحدات النظاميين تحت قيادة قائد الرحى بن

دحان العبدى، وبعض الشراذمة وبني حسن، وفي مشرع الرملة، شاع في كل البلاد أن مولاي عبد الحفيظ الذي وصل إلى مكناس عبر بلاد زيان وقد استقبله أهل فاس استقبالا حارا ورائعا، فأتضح لبعض هؤلاء الرجال - الذين كان كثير منهم من أتباع مولاي عبد الحفيظ - أن هذه الحملة لم يعد يرجى من ورائها أي طائل، واعتبروا أن مهمتهم قد انتهت وتوصل بوشتى البغدادي برسالة من السلطان يدعوه فيها بأن ينظم مع أتباعه إلى صفوفه وأنه سيوليهم بعناية جيدة، وأضاف بأن أتباعه من الشراذمة وبني حسن معسكرون بوادي بهت سيمنعونهم من المرور. فرفض بوشتى الخيانة وطلب من أفواجه الرجوع إلى الرباط. وهكذا رجعت هذه الحملة إلى أكدال دون إطلاق رصاصة واحدة.

ودخل مولاي عبد الحفيظ إلى فاس وسط 1500 جندي (في 6 يونيو 1908)، فتوالت اعترافات ومبايعة المدن والقبائل من كل الجهات (القصر، تطوان) خاصة بعد مبايعة مدينة فاس ذات الإشعاع الجهوي والوطني المهم.

أما هو، فقد بحث في كل أرجاء دار المخزن عن الخزائن التي يمكن أن يكون مولاي عبد العزيز قد تركها، لكنه لم يجد شيئا. فاستدعى الأعيان بما فيهم من ليسوا معه وقال لهم.

«إني فرح ومسرور بمبايعتكم واستقبالكم الحار لي (بناير)، وإني مستعد لأن أتدارس معكم كل الإصلاحات الفعالة والجادة، من أجل خلق وضعية أحسن من تلك التي تركها مولاي عبد العزيز - سامحه الله - لكن اعلمو أن الشروط التي وضعتها غير مقبولة، فأنتم مبالغون كثيرا، فحقكم المشروع يغطي عنكم الحقيقة، ففيما يتعلق بالأوروبيين فإنه من المستحيل أن نجبرهم على الحياة في الملاحات ثم إن القوة لا تنفع معهم، لكن وفي القبائل، من السهل منعهم من الدخول إلى فاس ومراكش، أما بالنسبة للشرطين الآخرين فإن أحدهما متعلق بالآخر فمن أجل القيام بالحرب لابد من المال، بل وكثيرا من المال، وقد وجدت الخزينة فارغة من جهة، وأموالها مبدرة بشكل غير مسؤول، ثم إنكم تريدون من جهة أخرى، أن ألغي كل الضرائب ولا أقوم بأي اقتراض. ولهذا يصعب على القيام بواجبي المقدس والذي من أجله بايعتموني، وهكذا سأعمل في المقابل على الرفع من دفع كل المستحقات والضرائب، لثمتلأ الخزينة، إذا أرضى ذلك الله، وأقدم لكم الأمانة المكلفين بتنفيذ هذه المهمة».

فنظر الأعيان بعضهم إلى بعض مندهشين لكن لم يقولوا أي شيء.

وبعد ذلك وصل بوشتى البغدادي من الرباط لينظم إلى مولاي عبد الحفيظ، وكان في استقباله أخوه أسعيد، فسر السلطان لانضمام هذا المحارب القوي. وعين أسعيد قائدا على أولاد جامع، لكن القائد القديم ولد بامحمد الشرقي (المخبر بالقرار الجديد) جاء إلى

القصر ليهدي إلى السلطان (50000 دورو) (250000 فرنك) من أجل الإبقاء عليه في منصبه. فاعتقل مولاي عبد الحفيظ الأخوان بوشتي واسعيد البغدادى، وصادر كل ممتلكاتهما⁽²⁰⁾.

وشرع أهل فاس ينتقدون بقوة قرارات سيدهم / سلطانهم الجديد.

ورغم كل هذا فإن مولاي عبد العزيز لم يعترف بالهزيمة. رغم كثرة انسحابات الجنود إلى الجهة الأخرى ظانين أنهم سيتقاضون رواتب أحسن، وإستشار في هذا الشأن كل الناس الذين لا يعرفون إلا مجاراته. وكان بالرباط M. Gaillard et M. Regnault، لكن لم يستطيعوا قول كبير شيء لأن الكل كان محتاراً متردداً. وقال له بعض العلماء أن بقاءه بالرباط مكتوف الأيدي لا يزيد إلا تأزيم وضعيته أكثر فلا بد أن يبحث عن حل سواء بالإتجاه نحو فاس أو مراكش. فاستشار سيدي محمد بن داود من أبي الجعد الذي أجابه بأن عليه الذهاب إلى مراكش مروراً بالشاوية وبني مسكين، وبعد ذلك سيصل إلى بلاد السراغنة الذين ظلوا أوفياء له ومن هنا لن يبقى عليه سوى مد اليد للمتوكل الذي يتحكم جيداً في ضواحي مراكش، والذي هزم قبل مدة قرية القائد الحفيظي العيادي عبد الرحمان. وذهب فعلاً مولاي عبد العزيز إلى مراكش بعد أن ترك نساءه وعياله بدار المخزن بالرباط، وفي حالة انهزامه سيطلب من الفرنسيين الرجوع إلى الشاوية عبر المنطقة التي يحتلونها، أما في حالة الانتصار رفقة قبائل الجنوب فسينطلق نحو فاس، ومن باب الإحتياط، أخذ أخاه مولاي امحمد إلى الدار البيضاء حيث ظل تحت حراسة الفرنسيين مخافة أن يعقبه زعيم إلى الرباط ويبايعونه.

فعادت الحملة لمغادرة الرباط يوم 12 يوليوز 1908، وكانت تتضمن عدداً من الأوروبيين من البعثات العسكرية : المقدم Farriau والقمبطان Rondenet والطبيب - النقيب Fourniel والملازم Maréchal، الذي اغتيل فيما بعد بفاس، والطبيب الإنجليزي Verdon طبيب السلطان، والمدرّب العسكري الإنجليزي Bolding الذي نودي عليه لخدمة المخزن سنة 1903 وماك لان الذي كان في هذه الأثناء ببلاده المنجلى؟

وقد كانت هذه الحملة المكونة من بعض أهل الغرب، وخاصة من أهل الحوز قد عززت بحوالي 3000 فارس من الشاوية بمختلف أفعادها : الزيايدة، والمداكرة، وأولاد بوزيري وأولاد احريز، وأولاد زيان، بقيادة وزير الحرب بن عبد الواحد. وقد توالى على هذه الوزارة : الكياص الذي جاء من طنجة لتنظيم حملة ضد الريسولي، وعين ممثلاً للسلطان بطنجة، فتأب عنه ابنه الذي كان خليفته خلال شهر، ثم عوض سي عثمان الجراي الذي ذهب خلال الأيام الأولى من يونيو 1908 إلى وجدة بصفة مندوب السلطان لدى الحكومة الفرنسية وعوض هو بدوره بعبد الواحد.

وكان الوزير الأول هو سيدي عبد الكريم بن سليمان الذي موجودا بالمحلة أيضا، أما سي فضول غرنيط فقال بأنه هرم لا يقوى على التحرك وكأن التحرك الشيخ قد تنبأ بالهزيمة، وكان قائد المشور هو سي ادريس بن يعيش الذي مرض بالرباط، وسيموت بعد مدة من ذلك. وكان خليفته بوشتى بن الفيلالي لا يحضى بمكانة محترمة في الحزن فعين بالنيابة عنه ولمدة مؤقتة بخاريا يسمى سعيد بن المرباط.

وكان هناك أيضا (في المحلة) مولاي عبد العزيز مع بعض النساء والجواري والعبيد في حدود الإثنى عشر. وترك الآخرين في منازلهم بالرباط ومكناس، ولم يكن هناك أي شعور بالثقة يسود هذه الحملة، فكان كل واحد يحس دون أن يصرح بذلك أن حكومة مولاي عبد العزيز آيلة للهزيمة والفشل، وأن أغلب الجنود كانوا مستعدين لتغيير رأيهم والرجوع دون محاربة.

فأخذت عدة احتياطات قبل الإنطلاق، حيث وجهت حركة أسفي بقيادة مولاي الزين وسي محمد بن عيسى لاحتلال الميناء، وقيادة العمليات من تمة بمساعدة القواد الجهويين نحو المتوكي الموالى لمولاي عبد العزيز والمعارض القوي للكلالوي، وكما وجه إلى الصورة الأفراد الذين يميلون نحو مولاي عبد الحفيظ، بقيادة العزيزي «الحاج عمر التازي» الذي كانت مهمته السرية مراقبة تحركات القائد أنفلوس، وسيرا على نهج أجداده وخوفا من أن يغتال فقد أبعد السلطان عنه كل المشكوك فيهم، من أجل ضمان الأمان والإطمئنان في هذه الحملة ويحاول الإستيلاء على المرسى مادام أن فاس قد ضاعت منه.

وقد أخبر مولاي عبد الحفيظ بالهجوم الذي يعده مولاي عبد العزيز ضده. وأعتقد أنه كان ينقصه المال لأنه أخرج الفراك ولم يستطع الإنطلاق إلا في 30 يوليوز فبعث محلة بقيادة سي المدني وسي عيسى بن عمر مع الوحدات، وخمس مدافع، كان عليها الوصول إلى مراكش مروراً ببلاد زيان.

وقد تحركت في هذه الفترة أيضا قبائل الشرق بقوة، بإيعاز من الروكي بوحمار الذي وجد الوقت مناسباً ليلعب دوراً هاماً، فاتجه نحو تازة حيث حرض غيابة والحيانية (23) (يونيو)، وبدأ في قتل قوادهم.

وانطلقت إذن حملة مولاي عبد العزيز يوم 12 يوليوز، وكانت أول محطاتها تمارة، وتوجهت بعد ذلك نحو زمور وبني خيران ثم صحرة الدجاجة ثم دار ولد الشافعي قرب واد أم الربيع حيث مكثنا خمسة عشر يوماً. ومن هنا انطلق القائد الامطاعي في مهمة مع بعض الجنود نحو الرحامنة لكنه لم يرغب سوى يومين، حيث استقبل بحفاوة من أهالي المنطقة، وهوجم بعنف بعد ساعات من ذلك. ورجع مع كل رجاله مهزوماً بعد فقد

جوادين. وأخيرا عبرنا الواد عبر مشرع بن خلو نحو أولاد الشرقي حيث وصلنا إلى دار سي
علال الشراوي (9 غشت) ثم إلى قلعة السراغنة (10 غشت) التي رأينا فيها وصول ابن
ادريس بن يعيش سي محمد الحسن (الحاجب الحالي) من الرباط يحمل إلى السلطان نبأ
وفاة أبيه (ادريس بن يعيش) فبقينا خمسة أيام بقلعة السراغنة في قلق، وبدأ أفراد الحملة
يفقدون الثقة وتعددت وجهات النظر، فبعضهم يريد الرجوع إلى الرباط، والبعض الآخر
يريد الذهاب مباشرة إلى مراكش، ورأى الفريق الثالث بوجوب الذهاب إلى دمنات وانطلقنا
في الأخير لتتوقف بواد تاساوت، وقمنا من هذا المعسكر بصوكة ضد دار ولد جاكير حيث
توجد أفواج حفيظية في واجهة حراسة أمامية بقيادة عمر والسكتاني، وكانت مهمتها
ناجحة حيث اعتقلت عدة أسرى ونهبت الدار، وهرب السكتاني إلى الجبل، ورجعت
الصوكة إلى واد تاساوت مزهوة بهذا الانتصار، وبعد أيام من الراحة علمنا أن محلة مهمة
بعض الشيء قد تجمعت على قدم الأطلس بقيادة العيادي الرحماني، فاستدعى مولاي
عبد العزيز السراغنة الموالين له، ووزع عليهم الأسلحة والمؤن لمواجهة العيادي، البعيد من
هنا في عين عجيبة على الضفة اليسرى لواد تاساوت.

فانطلقنا على الساعة الثانية صباحا، ومشيئا حتى حدود الساعة السابعة، حيث ظهر
بعض العياء على المشاة، فكان يركب اثنين أو أكثر على فرس أو بغل، وقد كان المسير متعبا
جدا وغير منظم وانطلاقه تصرف خطأ، فقد كان هناك حوالي 3000 فرس، لكنها وصلت
متعبة جدا، حتى إنه كان ينزل من على ظهرها في الساعات، وتفرق أفراد الحملة التي كانت
تمتد على طول خمس أو ست كيلومترات، وكلما اقتربنا من الوصول كلما زاد عدد
المتأخرين الذين يستغلون هذه الوضعية للاختفاء.

وعندما وصل معظم الفوج الأول أمام معسكر العيادي، الذي تراجع وتركهم يتبعونه
متفرقين متعبين، بدأت المواجهة ولم تستغرق سوى عشر دقائق. حيث كان المحاربون
البعيدون من المواجهة وفرسان الشاوية من المذاكرة وأولاد بوزيري يحاربون متراجعين إلى
الوراء ومحدثين مزيدا من الفوضى والإضطراب فرجعوا شبه غير محاربين تاركين أسلحتهم
ومؤناتهم وبغالهم وأمتعتهم لرجال العيادي الرحامنة وكلاوة الذين يطاردونهم، فاتجهوا
نحو معسكرهم القديم وسط نيران الأصحاب والأعداء، ولم يعد يفكر كل واحد إلا كيف
ينجو بنفسه فقط. فبقت المدافع في ساحة المواجهة، وأطلقت البغال التي كانت تجرها
للفرار بأسرع وقت، إنها فعلا هزيمة كبيرة دون حرب تقريباً. وقد عمل السكان المجاورون
لمعسكرنا أيضا على سكب الماء في السواقي لإعاقة تحركات فرساننا وجنودنا، وكان المعسكر
قد نهب بما في ذلك صناديق السلطان الخاصة وكان السلطان يتابع هذه الإندحارات والمشاهد
بحزن وأسف ولم يعد من الممكن سماع أي نداء لجمع وتقوية الحملة من جديد. وسمعت

طلقات رصاص في المعسكر ولا نعرف هل أعداؤنا هم من يقصفوننا من فوق أو أتباعنا. لا يهيم، فالمكان أصبح خطيرا، وعساكر العيادي سيصلون بين الفينة والأخرى. وعلم السلطان (مولاي عبد العزيز) ببالغ الحزن أن وزيره في الحرب قد أصيب ورأى أخاه مولاي يوسف أن السلطان الحالي قد أصيب في رجله، ففهم أنه فقد المواجهة، فحمل نساءه على البغال وتراجع بسرعة نحو الغرب وسط حرسه الخاص فقط.

وقد دامت المواجهة ضد العيادي ما بين السابعة والثامنة صباحا، وفي وقت الزوال كان معسكرا واد تساوت مشطبا تماما وفر أغلب أتباع مولاي عبد العزيز نحو أم الربيع تاركين القلعة على يسارهم.

وقد كان الليل كله مناسبا لتشاجر وصراع اللصوص وتقاتلهم، إما لأنهم يريدون أن يظهرُوا أنهم أعداء أو أنهم يريدون اختلاس وسرقة الأسلحة والمؤن والنقود والخيل، وكانوا يقابلون بطلقات الرصاص من أفراد الدواوير التي يمرون بها من خلف أسوار المنازل، مما يعني بأنه لا يوجد هنا أي مكان للجوء أو الإحتماء، وكانوا ينسلون من بين المضايق ليروا نتائج قصفهم، ويتركون الجثث، إذا ما كانت، عارية وعشا كان القائد يحاول لم هذه المجموعات من اللصوص والنهابين. لقد كانت فعلا هزيمة. نكراء لرجال حمقى عراة أو نصف عراة. وأمكن لسي قدور بن غرنيط الذي بعثه M. Regnault من الشاوية أن يشفي غليله بهذا النظر.

وأخيرا، وبعد عبور واد أم الربيع، حسب استطاعتنا، وصلنا إلى مشرع بوحسينة ومشرع الخليفة ومشرع الشعير. . وتوقف أتباع مولاي عبد الحفيظ على المطاردة. وتفرق كل أفراد حملتنا غير النظاميين إلى بلدانهم، كل حسب وجهته، أما النظاميون فعبروا بلاد بني مسكين، ووصلوا إلى سطات، وكان السلطان معنا، عبر اولاد سي بن داود.

وفي الطريق، كان المبعوثون العسكريون الفرنسيون قد تعرضوا لمحاولات اغتيال كثيرة لأسباب مختلفة، لكن أفهم هؤلاء المهتاجين الإنفعاليين ما هي العواقب الوخيمة التي قد تترتب عن مثل هذا الإغتيال. وأبرق المقدم Fartiau إلى العقيد (الكولونيل Brulard) فوصلت حملة فرنسية أمام فوجنا المهزوم. وقد كان وصول هؤلاء الجنود قد أنقذ حياة العديد منا. وأصبحنا نحس بالأمان انطلاقا من سطات، ومعلوم أن كل الوحدات التي تدخل إلى منطقة نفوذ الفرنسيين تجرد من السلاح بأمر من الجنرال D'Amade ووصلنا إلى الدار البيضاء مرورا ببرشيد ومديونة، وعلى طول الطريق كان حراس المراكز الفرنسية يخرجون لإهداء الأسلحة للسلطان المسكين.

وانعقد بالدار البيضاء مؤتمر جمع وزير فرنسا M. Regnault والجنرالين D'Amade وليوطي للبت في مصير مولاي عبد العزيز وماهي الإجراءات التي يجب اتخاذها في الظروف

الحالية، وقد كان بعض الجياع يقصدون الفرنسيين في مناطق نفوذهم الذين لا ييخلون عليهم بشيء ولم يفقد عبد العزيز الشجاعة حيث استمر في البحث عن أتباع جدد قبل أن يذهب إلى طنجة مقابل راتب شهري (3000 فرنك)، بعد أن تخلى عن جميع حقوق العرش. ووصل إلى طنجة يوم 24 نونبر، حيث انظم أغلب جنوده القدامى إلى مولاي عبد الحفيظ. وبقيت البعثة العسكرية الفرنسية بالدار البيضاء إلى إشعار آخر، لكن كل ما قلته لك منذ وصولنا إلى سطات لاشك أنه موضح أحسن في كتبك.

وبمجرد انتشار خبر هذه الهزيمة الكاملة والنهائية، في أرجاء البلاد، تقوت منزلة مولاي عبد الحفيظ بعد أن كانت مضطربة بعض الشيء، فأطلقت المدافع طلقاتها بفاس، وزينت الأسواق بقطع قماش من الحرير، ودامت الإحتفالات سبعة أيام، وبايعت مدن جديدة مولاي عبد الحفيظ. وحيث انضم إلى السلطان خلال شهري غشت وشتنبر مدن الرباط وسلا والعرائش والجديدة وأزمور ووجدة وآسفي والصويرة التي قتل بها الحفيظيون القائد انفلوس (فاتح شتنبر)

ولازال بعض أتباع مولاي عبد العزيز هنا وهناك، ظلوا أوفياء له مثل أصيلا التي صمدت بشجاعة وقيادة رجل حرب قوي يدعى بوعودة، أمام هجومات الرميكي باشا القصر الموالي لمولاي عبد الحفيظ، والسراغنة والمتوكي الذي واصل تقدمه نحو مراكش التي حاصرها بعد أن هزم أفواج سي التهامي الكلاوي بفروكة، لكن ما لبث أن وصل سي المدني الكلاوي وسي عيسى بن عمر من فاس مع وحدتهما : صاحبين معهما مولاي الكبير أخ السلطان الذي ذهب إلى فاس يعد مبايعة مولاي عبد الحفيظ، عبر أراضي زيان والأطلس والوصول إلى مراكش من دمناات، وكانت مهمة هذه الحملة تقتضي محاربة المتوكي الذي كان «عزيزيا» والحاج عمر التازي بالصويرة المعارضين للسلطان.

لكن لما وصلت هذه القوات إلى مراكش، فهموا أن أعداء المعارضين أقوى منهم، فتداولوا فيما بينهم، وقال سي عيسى بن عمر : «أنا أتساءل : لماذا سنحارب؟ ما علينا إلا طلب السلام، والتفاهم فيما بيننا، حيث سنقسم الجنوب فيما بيننا نحن الثلاثة، فلنتصالح ولنذهب إلى فاس».

وهذا ما تم فعلا حيث كانت هناك مفاوضات بينه وبين المتوكي والكلاوي، فاتفقوا أخيرا وعم السلام، واحترمت وحفظت مصالح كل واحد منهم.

فوصلوا كلهم إلى فاس عبر الرباط لغرض واحد، وكان الوزير الأول الذي عوض ولمدة مؤقتة سي عباس الفاسي قد صحب مع عائلة مولاي عبد الحفيظ قسما من أفراد عائلته وخيوله وكلاب صيده، ومروض نسور صيده. وتيقن كل العريزيين أنه لن يصيبهم بأذى لافي أبدانهم ولا في متاعهم (فبراير 1909)، لكن بالوصول إلى الرباط غادر مولاي

الكبير المحلة دون استئذان متجهها نحو أصدقائه من زمور، باحثا على تأليب القبائل ضد مولاي عبد الحفيظ وسأحكي لك عن هذا في فرصة أخرى.

— ووصل مولاي عبد الحفيظ إلى الرباط (في آخر أكتوبر 1908)، واستقر بطنجة وبايعته الدار البيضاء (25 نونبر)، وطلب أن يكون اخواه مولاي الزين ومولاي امحمد بجانبه.

لكن هذا الأخير لم يقف مكتوف الأيدي بعد هزيمة مولاي عبد العزيز، حيث جاءت عدة رسائل من جهات عديدة من المغرب يقال له فيها « تدبر أمورك إذا أردت أن تكون سلطانا، فإننا على استعداد لمؤازرتك » بل إنه أعد خاتمه السلطاني، ومخافة أن يذهب جنوبا عند الرحامنة المستعدين لمؤازرته، فإن مولاي عبد الحفيظ وضعه في جانبه حتى تراقب تحركاته.

وغادر مولاي امحمد الدار البيضاء ليصل إلى قصبة الصخيرات، حيث استقبله عرب ازعير الذي كان في مقدمتهم صديقه الحاج بن عيسى الذي سيذهب معه إلى الجنوب، فوصل هؤلاء الرجال إلى ثمارة، حيث كانوا بعض المئات من الفرسان مع القائد السويسي والحاج بن عيسى فاتجه بهدوء نحو الرباط حيث قضى الليل، وفي اليوم الموالي انطلق نحو فاس تحت حراسة قوية، فسجن المسكين من جديد، ووضعت القيود في رجله حتى نزالة الفرجي آخر مرحلة قبل فاس. . . وقد كان هذا الرجل مشهورا في القبائل التي يخاف السلطان رد فعلها إن هي رأته في هذه الوضعية، وعندما وصل إلى فاس وضعه مولاي عبد الحفيظ في قبة والأغلال دائما في رجله (21).

وعرفت البعثات العسكرية الفرنسية بعض التغييرات ويمكن أن يكون ذلك من نتائج أحداث بن عجيبة عوض المقدم Farriau بالمقدم Mangin الذي كان قائد الشرطة الدولية بطنجة (كابور البوليس)، حيث كان مساعد القبطان Breunond وأصبح الأطباء هم الأطباء النقباء Bellot et Cristiani.

وفي شتنبر بعث الملازم سديرة الى طنجة عند سي المهدي المنبهي، وزير الحرب السابق، الموالي للإنجليز لمراقبة تحركاته، وتذكر أنه عندما رجع من الحج مكث في منزله الذي بناه وجمع فيه كل متاعه، وأصبح محميا أنجليزيا.

كما كان بطنجة أيضا وجه معروف : ماك لان الذي استأنف علاقته مع السلطان منذ وصوله إلى هذه المدينة وبعد مدة من قبول السلطان مولاي عبد الحفيظ شروط مؤتمر الجزيرة الخضراء، اعترفت به كل القوات الأوروبية، وانطلقت البعثة العسكرية الفرنسية نحو فاس (دجنبر 1908)، وأرسل سي قدور بن غرنيط المقدمة ليهني بقدمه إلى فاس، وبمجرد وصول الضباط قدموا للسلطان لكن كان استقبالهم باردا.

ولاية مولاي عبد الحفيظ

(من 19 غشت 24 1908 إلى 30 مارس 1912)

المواجهات الحربية الأولى ضد آيت يوسي وبني مطير.

لقد كانت بداية ولاية عبد الحفيظ صعبة، خاصة أن شيئا ضروريا كان ينقصه وينقص خزينة الدولة : إنه النقود. فقد اقترضنا من جميع الجهات لكن كل شيء تبخر. فما العمل بدون نقود؟ لاشيء، ثم إن بعض القبائل لم تؤد مستحقاتها من الضرائب منذ خمس أو ثمان سنوات بعد أن أنهكتهم الحروب. ومن المستحيل الذهاب عند قبائل الشاوية الذين انسجموا مع الفرنسيين الذين يسهرون على الأمن في المدن والأسواق.

فأدرك مولاي عبد الحفيظ أنه لا بد من إعلان السلام مع الأجانب والخضوع لشروط ومقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء، وهذا ما خطب به في المساجد (دجنبر 1908)، ولم تعترف القوات الأجنبية بمولاي عبد الحفيظ إلا بعد استجابته لهذه القرارات.

فكل شيء بدأ كالسابق، فهذا هي بداية ولاية مولاي عبد الحفيظ تشبه بدايات مولاي عبد العزيز، بنفس الأشخاص الذين يبدو أنهم انتعشوا واسترجعوا حيويتهم من جديد. فهاهو الريسولي قد طلب وحصل على حكم مناطق جبالة كما قلت لك سابقا وهاهو بوحمارة وأتباعه يريد استئناف مغامراته القديمة، وهاهم آيت يوسي وبني مطير والمتمردون المعتادون قد أعلنوا العصيان ولا بد من محاربتهم من جديد.

ووصل وزير فرنسا M. Regnault إلى فاس ليتحدث مع السلطان حول الإجراءات الواجب اتخاذها، فأشار مولاي عبد الحفيظ بأنه يرغب أن تنسحب فرنسا من برشيد ومديونة، وأن لا تبقى في الدار البيضاء إلا مدة مؤقتة، حتى يعد محلته من جديد ويرجع الأوضاع إلى نصابها في المنطقة، ثم عوض مولاي الأمين بسي محمد الأمراتي في الشاوية. ولما رأى مستوى المدربين الفرنسيين الجيد أعجب بهم وبمساعدهتهم له، عين المقدم Mangin قائدا عاما لكل المدربين العسكريين (22 فبراير)، وسيلتحق به فيما بعد وحدات ما بين 15 و20000 رجل، ثم اتجه وزيره الأول وصهره سي المدني الكلاوي نحو فاس مع وحدات الجنوب ومنها إلى وجدة قصد تركيز الجنود في تلك المنطقة.

وفي الوقت الذي كانت فيه وحدات الجنوب وقوادها : سي المدني الكلاوي، وسي عيسى بن عمر، وسي عبد المالك المتوكي، وقواد الرحامنة وبلاد احمر متجهة نحو فاس

ولم تلتحق بها وحدات دكالة وحاحا أرسل مولاي عبد الحفيظ مبعوثين فرنسيين للبحث في القضايا المتعلقة في الشاوية والشرق. ثم عين سي الحاج محمد المقرري وزيرا في المالية، وسي عبد الله الفاسي وزيرا في الخارجية « أثناء غياب سي عيسى بن عمر، (19 ماي). فتفتست البلاد الصعداء شيئا ما، في انتظار الجديد، وكانت الشاوية هادئة.

وأصبح للفرنسيين قائد جديد (الجنرال Moinier الذي عوض AmadeD يوم 22 فبراير) لكن البرابرة. وكعادتهم لازالوا مستمرين في تمردهم، فأرغم مولاي عبد الحفيظ على إرسال ثلاث محلات الأولى ضد آيت يوسي، والثانية ضد بني مطير، والثالثة لمراقبة تحركات بوحمارة.

وجمعت الحملة المتجهة ضد آيت يوسي في فبراير بقيادة اسعيد البغدادي الذي أطلق السلطان سراحه، وسي محبوب عم مولاي الكبير، وكان طابور المشاة تحت قيادة بوعودة الذي التحق بصفوف مولاي عبد الحفيظ، وكانت المدفعية مكونة من مدفع Hotchkiss ومدفعين جبلين (80 ملم). وعشرات الرشاشات Garner بقيادة الملازم بن اسديرة والمساعد (Adjutant Rouchon) وقائد الأفواج النظامية هو قائد الرحي بلخير التيزنيتي.

ووصلت هذه الحملة عبر فاس إلى صفرو حيث عسكرت تحت الزياتين (3 مارس)، ووقعت مواجهة قوية هناك أياما بعد تشييد المعسكر (6 مارس) لكن المدفعية حسمت الموقف. ولم يثر آيت يوسي إلا لأنهم لا يريدون أداء الضرائب خاصة بعد أن اغتنوا بالخيول والأبقار والأغنام والبغال، ولم تصمد منهم في المواجهة سوى فخذة واحدة وهم آيت علي، وكان لابد من تنظيم عدة صوكات ضدهم من معسكر مستارة الجرف. فقد كان على رأسهم شخص قوي يدعى محمد أغامي، لكن أجبروا في الأخير على الإستسلام وأداء مستحقاتهم عينا، وتزويد المخزن ب 250 جندي بقيادة قائد رحي، يتحملون مصاريف رعايتهم.

وأعطيت الأوامر بعد انتهاء هذه العملية، برفع المعسكر والإنطلاق عند بني مطير. حيث الوضعية ليست على ما يرام.

وفي الوقت الذي كنا فيه عند آيت يوسي، كان مولاي عبد الحفيظ قد جمع حملة في فاس لإرجاع بني مطير إلى الصواب، وسأشرح لك لماذا؟.

فقد كان هناك في فاس شريف محبوب محترم من سلالة مولاي ادريس يسمى سيدي محمد بن الكبير الكتاني كان وراء موافقة علماء فاس على مبايعة مولاي عبد الحفيظ (منذ 4 يناير 1908)، لكن بشروط لابد من الإلتزام بها، وكان يؤكد دائما على عدم وجوب دخول الأوروبيين إلى فاس، ولم يقبل مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء التي قبلها

السلطان. ولاحظ أن الأوروبيين قد رجعوا إلى فاس وأن السلطان يستشيرهم في تسيير الأمور، وكان لابد من إعادة كل شيء من البداية، فتصاعدت وثيرة انتقادية إلى أن قرر معارضة السلطان بشكل مباشر، وذهب عند بني مطير ليحرضهم. ويشير باندلاع الحرب المقدسة (19، 21 مارس) فالتف حوله 500 محارب، وكان يود الذهاب حتى عند بني مكلید.

لكن السلطان جمع محلة من 2000 رجل بفاس، بقيادة بوخيزة قائد « موالين ادحو » بالقصر، وكان ضمنها مدربون عسكريون أجانب، وضباط صف (Pisau) في المدفعية و (Bolding) أنجليزي في الخيالة. لكن أحد قواد بني مطير، بعد أن تملكه الخوف قبض على الشريف حينما كان يستعد للذهاب عند بني مكلید، وسلمه للمخزن الذي اعتقله. ورغم ذلك قرر السلطان أن تستمر المحلة في مهمتها ومعاقبة الذين وقفوا إلى جانب هذا المتمرّد (كان الإنطلاق يوم 28 مارس).

وقد كان بوخيزة يتقدم، وفي انتباه كبير وبيطء نحو بني مطير، لأن هؤلاء الرجال قد ظلوا مدة طويلة أحرارا وأقوياء. وعسكر أخيرا على بعد كيلو مترات من قصبة الحاجب، وبعد يومين وجد نفسه محاصرا بمجموعة من المحاربين من بني مطير، وبني مكلید، وآيت سخمان وكروان بل وحتى زمور الذين اشعلوا نارا قوية في هذه المواجهة، ف وقعت انشقاكات وتصدعات في معسكره وترك رجالنا المدافع والخيام والمؤن وفروا نحو فاس كأرانب تطاردها كلاب صيد، وكانت هذه أول هزيمة لأفواج المخزن الجديد (15 أبريل).

وكانت حملة سي محبوب بعد أن أنجزت مهمتها آيت يوسي قد غادرت معسكر مستارة الجرف قد وصلت إلى شربانة ثم أمقلا حاليا. وفي هذا المكان وصلنا نبأ هزيمة المحلة ببني مطير، وكان وجودنا هنا مغامرة بعض الشيء لأن بني مطير كانوا قد اتفقوا مع آيت يوسي لمحاورة المحلة المعسكرة بأمقلا، ولكن مولاي عبد الحفيظ أعطى أوامره لكل وحداته المحاربة بالرجوع إلى فاس، وأعني محلتنا، ومحلة أخرى كانت توجد بعنق الجمل ضد أتباع الروكي. سأحدثك عنها بعد قليل.

فاجتمع إذن كل الجنود بباب سكمّة، وأخذت بعض التجريعات حراسة أبواب فاس، لأننا كنا نخاف هجوم البرابر. فأعطيت البنادق والأجور المتأخرة للجنود، ونظمت محلة قوية ضد بني مطير بقيادة سي محبوب (22 أبريل).

وفي الوقت الذي كان فيه الشريف الكتاني يعاني من الجلد الذي حكم به عليه السلطان (4 ماي) كنا نحن نتقدم نحو بني مطير، وبعد هجومين قويين (16 و 18 ماي) ردتهم قواتنا، احتلت المحلة قصبة الحاجب، ورأت المواضع والأماكن التي هزمت فيها محلة بوخيزة ووجدنا في ساحة المعركة القديمة المدافع المتروكة عند الفرار. وقد كان للمدفعية

بقيادة بن سديرة وضباط الصفPisaui,Rouchon,Guerrazدورا كبيرا في هذا الإنتصار بالإضافة إلى بعض المدربين المخزنيين النقيب le Glay والآنجليزيBolding.

وعندما انهزم بنو مطير تماما، استسلموا وجاؤوا بثيرانهم (الهدية) وأدوا مبالغ هامة (100000دورو) غرامة. وأجبروا على مؤونة وعناية خاصة بطابورهم ضمن الأفواج المخزنية وقد كان هذا الإنتصار المخزني انجازا خارقا لم تشهد القبيلة مثلها منذ القديم.

فأقامت المحلة في راحة تامة بقصبة الحاجب وسط البلاد مدة شهرين في ضيافة بني مطير فاستدعاهما السلطان من فاس لتدمير موقع تمرد أصبح أكثر خطورة، ذلك أن أتباع بوحمارة قد جاؤوا في عصابات من 40 إلى 50 فارس لنهب القرى على مسافة قريبة من فاس، ويجب وضع حد لبوحمارة هذا الذي صمد أمام قوات مولاي عبد العزيز وكان السلطان المتحمس والمسرور بنجاحه في بني مطير أكد أنه قادر على النجاح في هذه المهمة.

نهاية مأساوية لغامرة بوحماره

لقد تركت بوحمارة في سلوان حتى أحكي لك عن الريسولي، وقدم مولاي عبد الحفيظ من مراكش.

وتعلم أن سلوان هي قصبة قوية، بنيت منذ عهد مولاي اسماعيل على يد حمية من البخاريين، كانت توجد بها دائما حمية مخزنية (500 رجل) سواء في عهد مولاي الحسن أو مولاي عبد العزيز، لكنها سقطت في يد بوحمارة (ربيع 1903).

وقد لجأ إليها الروكي بعد أن هزمه بوعمامة وعبد المالك بوجدة (يوليوز 1906)، ولم يفقد قوته بل ازداد قوة بمتاجرته مع الإسبان واشترى البنادق والرصاص. وكانت قصبته قريبة من بحيرة كبيرة بسبخة بوعرك التي يسميها الإسبان Marchica حيث كانت تصله المراكب التجارية إلى حدود أفراد قصبته، ويقال بأن الروكي قد أصبح يتوفر الآن على 20000 رجل و 10 مدافع وست رشاشات (ربيع 1907).

ولم يقف المخزن مكتوف الأيدي، بل أرسل محلة مراقبة بقيادة الباشا سي الحاج علال وبنى معسكره عند كبدانة بالقرب من هذه البحيرة. وهاجم رجال سلوان المحلة، هجوميين قوين (18 و 25 ماي 1907) بل إن المحلة الشريفة قد حوصرت على الشريط الرملي الذي يفصل La Marchica والبحر، ونهب أتباع بوحمارة وريافة المجاورين المعسكر (27 و 31 ماي 1907)، وقد قتل في هذه المواجهات بعض قواد الرحي مع مولاي بوبكر عم السلطان، لكن، وعوض أن يهزم بوحمارة الأفواج المخزنية تماما ويؤكد انتصاره، فإنه تراجع إلى قصبته مخافة، ودون شك - أن يعقبه أحد إليها وينهب مؤنه وأسلحته، وأعاد المخزن تكوين صفوف... كما هزمت محلة أخرى بقيادة سي محمد بن الجيلالي الذي خرج مع 3000 رجل، وعاد إلى سلوان ب 38 قتيل و 200 أسير (شتنير 1907)، وقد أصبحت هذه المحلة المسكنة عاجزة تماما عن الحركة، فأفرادها دون أجور ودون طعام بل ودون لباس، وكان عليها أن تعيش مما يعطيها الأهالي المنهكين من كل هذه الحروب، وكانت هذه فرصة أخرى انتصر فيها بوحمارة (10 دجنبر 1907). كما قتل أيضا سي محمد بن الجيلالي مع خمس قواد الرحي، أما الذين تبقوا فقد فروا وباعوا البنادق والرصاص. فاضطر السلطان أن يدعوهم للالتحاق بفاس فوصل آلاف الرجال بحرا (مليلية ثم طنجة نهاية يناير 1908).

ويعد هذه الانتصارات استرجع بوحمارة قواه، وضمد جروحه، وأعاد تدعيم صفوفه بالأسلحة والمؤن، وكان يعلم أن مطالبا بالعرش بدأ نفوذه يتقوى في الجنوب وبويع سلطانا في مراكش (16 غشت 1907) فلماذا لا ينزل هو بدوره إلى فاس، وهو الذي لازال يدعي أنه هو مولاي امحمد ولد مولاي الحسن، قبل أن يصعد الآخر إليها؟

ولكن للحصول على النقود، فقد أكد أهالي الجبال أنه باع للإسبان مناجم الرصاص والحديد الموجودة بسلوان في جبال بني اغرو. حيث كان يتحرك المهندسون في هذه المناطق ويعدون طرق استغلال المعدين : فأصبح الريفي يكره الروكي الذي باع الأرض المغربية للنصارى. ففي الوقت الذي كان فيه مولاي عبد العزيز يعد لحملة التي أجهضت في الجنوب، كان الروكي قد غادر قصبة سلوان عبر كلالعة وبني أوليشك، وبني توزان، وبني اسعيد الذين طرده من أراضيهم، نحو واد زم (تاويرت)، وهكذا رجع إلى تازة (23 يونيو 1908) حيث سيعيد اطوار مسرحيته القديمة وكان الحيانة يحيطون به دائما، وبعث رسلا إلى غياثة واتسول والبرانس لضمهم إلى صفوفه من جديد لأنه وصل بأفراد قليلين ككلب مهزوم بعد أن فر مع بعض أتباعه عبر عيون سيدي ملوك ومسون وهاهي تازة قد رأت زعيمها من جديد.

ولما كان بوحمارة قد جهز عصابات كبيرة مهمتها الحراسة متسامحة مع الأصدقاء وناهية الأعداء، فإن مولاي عبد الحفيظ، ومنذ شهوره الأولى من التولية، كان قد بعث محلة بقيادة ابن اسعيد في الاتجاه الذي يمكن أن يكون قد ذهب إليه الروكي ليصل إلى فاس، خاصة أن هناك إشاعات كثيرة بالمدينة تقول إن بوحمارة موجود بقصبة أولاد زيان، والبعض الآخر يقول بأنهم رأوه بعين السيت. وفي الأيام الأخيرة من فبراير انطلق 2500 رجل شرقا لكن توقفوا بمنطقة عنق الجبل، في منحى سبو حيث كان الطقس مضطربا، والبرد قارس جدا وزوايع ورياح وأمطار كان مستحيلا معها القيام بأية صوكة فالحيوانات الموجودة في العراء تموت تباعا، والمرضى وغير المرضى من أفراد المحلة يرجعون إلى فاس القريبة منهم.

فاستدعى السلطان هذه المحلة لترجع إلى باب سكمة 19 أبريل 1909. في الوقت الذي كانت تقود فيها بقايا المحلة المهزومة ببني مطير وكنا في حاجة إلى رجال للرجوع لقصبة الحاجب.

واستأنفت عصابات بوحمارة عملها التخريبي، فقد وصلوا عند الشواشي وملتقى نهري سبو وإناون، وقد كان قائد هذه الطليعة عبد زنجي قديم للسلطان وأصبح خليفة لبوحمارة يدعى العبيد الجليلي ووصل بتمرده ونهبه حتى أولاد الحاج مخلفا وراءه النيران والدماء بل إنه قام استطلاعات حتى حدود قنطرة واد سبو.

وطيلة شهر ماي ويونيو كانت الأوضاع بضاحية فاس والمناطق المجاورة لها مضطربة وأصبحت القبائل الخاضعة قلقاً من ردود فعل السلطان الذي لا يحميهم، وكان المنهوبون يدخلون إلى المدينة خائفين، بل إن الخوف قد تسرب إلى سكان فاس أنفسهم حيث أغلقوا باب فتوح.

فلا بد من التدخل إذن وبسرعة. وهكذا استدعى مولاي عبد الحفيظ حملته المنتصرة ببني مطير إلى فاس، بعد أن تركت حمية بقصبة الحاجب، بل إنه ودون انتظار وصولها بعث طليعة من طابور العبيد في حوالي 700 رجل، وكان الجليلالي في هذه الأثناء معسكراً بعين السبيت عند بني سادن وبوحمارة مع 500 نظامي يوجد بعين تافاسا وشيد المعسكر الشريف بالحجرة الكحلة على سبو. فقمنا بصوكة ضد الجليلالي، وكانت المواجهة في منبسط على ملتقى وادي اللبن ووادي إناون، وفر المتمردون المنهزمون عند الحياينة، ولم نطاردهم بل اكتفينا بنهب معسكرهم والرجوع إلى الحجرة الكحلة.

وبعد إقامة في هذه المنطقة، رفعت محلة سي محبوب⁽²²⁾ المعسكر في اتجاه الشمال الشرقي نحو شراكة وقشتالة، وعلمنا أن بوحمارة الذي التحق به الجليلالي، قد وصل مع أتباعه إلى منزله عبر الضفة اليسرى لورغة فقد كان يريد، ودون شك، أن ينضم إليه جبالة ويهجم معهم على فاس لأنه وحسب هذه المعلومات فإن إعداد جنوده الحاليين قليل جداً مكون أساساً من حياينة الضفة اليمنى لإناون.

والذي يبدو جلياً، أن قبائل ناحية تازة قد تخلت عنه ولم تعد تمدّه بالموء، وسيحاول البحث عن مصدر آخر فمر عبر عين مديونة وقلعة السلاس، مهدداً بالهجوم على فاس البالي بقشتالة (6-8 غشت 1909) وجبل أمركو.

وكانت محللتنا تتقدم فرسان أولاد جامع قاطعة عرضاً ببلاد شراكة، في اتجاه اللحاق بالروكي والقبض عليه في حوض ورغة، التي يقوي فيها صفوفه بالقبائل المجاورة.

وفي اليوم الذي عسكرنا فيه قرب سوق اثنين قشتالة بعين أم كنافر (9 غشت) أخبرنا أهالي المنطقة أن الروكي قد ذهب عند السلاس حيث عسكر، وأنه يتحرك بتجريدات متفرقة على طول واد ورغة وجبال بني ورياغل وعم الخبر كل صفوف المحلة.

فأمر سي محبوب بأن يمتطي الكل خيولهم، وكنا على بعد ساعتين تقريباً من واد ورغة، ولما اقتربنا لاحظنا في الوقت الذي كنا نستعد فيه لعبور الواد، طليعة جنود الروكي بالسهل، وأخبرنا المستطلعون بأن حملته تمتد على طول عدة كيلومترات تتخللها فراغات وتقطعات وسط الصفوف.

فبدأ الهجوم، ومنذ الوهلة الأولى انتصر المخزن وقد كان بنو ورياغل القريبين جداً من مرتفعاتهم الجبلية الذين ينتظرون اتجاه الريح (من سيفوز)، قد لاحظوا ضعف وحدات

الروكي، فانقلبوا ضده، أملا في تحصيل نصيب من غنائم القافلة، فتقطعت وتلاشت محلة العدو، وهوجمت في خمس أو ست أماكن، فكان المحاربون يفرون، والحراس يغادرون قافلهم، فكنا نجمع العبيد والإماء المستعطفين والخيول والبغال الحملة بالأمعة، وشرع في نهب صفوفه، لكن بوحماره وهو المحارب الجيد والقوي، قد أوقف جنوده وشجعهم على المواجهة أكثر، وبعث تجريدات لتقوية النقاط الضعيفة، واستأنفت المواجهة، ولم يكن الهروب (هروب أتباع الروكي) هو المنتظر كما رأينا قبل لحظات بل كانت هناك مواجهة قوية ومنظمة أمام عدد أكبر من الجنود، وعند غروب الشمس توقفت المواجهة، وبقيت محلة الروكي في أماكنها وقضى بوحماره ليله فوق تل.

لقد كان فعلا يوما عصيبا، قصفنا فيه دون توقف منذ الساعة الثانية بعد الزوال، وكان هناك عدة قتلى وجرحى من الجانبين.

وعند الفجر، اختفى الروكي في اتجاه الشمال الشرقي نحو بني خالد وبني مسكيلدة (بلالة عويش) فطارده جباله إلى حدود زاوية مولاي عمران عند بني مستارة، فجمعت المحلة الشريفة الأسلحة والمؤن والأمعة التي تركها هذا المتمرّد عند فراره، وأسرت عدة جرحى ومرضى لم يستطيعوا اللحاق به، ومشطت حوض ورغة، وبعد غياب مرتين رجعت إلى معسكرها، بعثت إلى فاس بحوالي 200 أسير و40 رأس مقطوعة لتعلق على باب محروق، وقد كان من ضمن القتلى الخليفة الجليلي (10 و11 غشت).

ثم عبرت المحلة واد ورغة إلى المشرع في منبسط بلاد بني ورياغل، ثم صعدت نحو واد أوديوار لتصل إلى مولاي بوشتي الصغير، حيث عسكرت، وأرسل قائد الحملة من هذه النقطة بعض القواد مع حراسهم، إلى مختلف الجهات لمعرفة أي الجهات اتجه نحوها الروكي، فجاءت الأخبار مؤكدة وجوده بزاوية مولاي عمران.

وفي أحد الأيام جاءنا أهالي بني مستارة يخبروننا أن قوات بوحماره قد تلاشت، وأن فرسانه يغادرونه شيئا فشيئا، وأنه لم تعد له الأموال الكافية، ولم يبق حوله سوى حريمه وخمسين فردا من العبيد، ومن السهل القبض على هذا المتمرّد الذي تعبوا من مؤونته وتغديته، وكان اليوم يوم جمعة، فقرر الذهاب أولا للصلاة، ثم الإنطلاق حيث كان الفرسان يتبعون مدفع 80، والرشاشات في الأمام، وكان أهالي البلاد يساعدوننا على عبور مسالك هذه البلاد الوعرة والمرتفعة التي يصعب فيها التحرك بسهولة وسرعة. وأخيرا وصلنا في حدود الساعة الرابعة والنصف إلى مشارف الزاوية التي لجأ إليها بوحماره (22 غشت).

فبدأت المواجهة، حيث كان دفاعه قويا، فالعبيد يقصفون من الزاوية نفسها. مما أفقدنا عدة أفراد، لأنهم كانوا يرمون من ثقب الأسوار، وكان السكان المجاورون للزاوية قد

غادروا مشائيتهم بمجرد علمهم باقتربنا، واحتموا بأبنائهم ونسائهم وبهائمهم بعيدا عن مسرح المواجهة التي ينتظرون نهايتها.

واقترح في هذه الأثناء، أحد أفراد المحلة الفكرة التالية : إن الوسيلة الوحيدة للقبض على بوحمارة دون فقدان مزيد من الأرواح هي إشعال النار في سقف الزاوية. فتطوع أحد الرجال بعد أن تجرد من ثيابه تماما، باحثا عن مكان مناسب لبدء عمله، فانبطح أرضا، وأخذ يمشي على بطنه كثعبان في المنعرجات والأماكن الوعرة، مخفيا وراء أدنى مرتفع في الأرض، وازداد دوي البنادق لإلهاء المحاصرين عن تحركات هذا الرجل، ووصل أخيرا واشتعلت النار بالسقف. فلم تعد الوضعية بالزاوية مريحة، فقد كنا نسمع الصراخ، وكان بوحمارة، وتحت حراسة قصف العبيد من الشرفات والثقب، يخرج النساء الواحدة تلو الأخرى من الزاوية، وكان بعض العبيد يتقدمون أماما يطلقون النيران يمينا ويسارا، والسقف المحروق قد سقط نصفه، لكن أين بوحمارة؟

وقد كان الهاربون المتمردون يحاولون الابتعاد من المواجهة في نظام متسللين، لكن فرساننا كانوا يحاصرونهم واجبروهم على الدفاع من جديد، وكان أحد الجنود الذي يعرف الروكي قد ميزه من وسط النساء، فاعتقلوه. وأحاط قواد الرحي فرحين بكونهم هم الأوائل الذين عرفوه، وكان منهم : ابن الجيلالي، والسغال الزمراني، وعقرة والناجم، واعتقل معه الكل : النساء والفتيات والعبيد والإماء، وقد كان سي محبوب قائد المحلة الشريفة قد بقي بمعسكر مولاي بوشتي، وكانت التجريدة التي قبضت على بوحمارة تحت قيادة سي عبد الكريم ولد بامحمد الشرقي.

وبوصول الليل، كانت الأفواج تراقب وتحرس أسراها، حيث قبضت الليل في مكان القبض على بوحمارة، فاستأنف السكان حياتهم اليومية، وبمجرد القبض على الروكي رجع الملازم الجزائري بن سديرة، « الفرنسي الوحيد » في هذا الاعتقال، إلى المعسكر ليخبر سي محبوب بالنبأ الجديد، فأرسل سي محبوب رقاصا إلى المقدم Mangin لإطلاعه بالجديد⁽²³⁾.

وفي اليوم الموالي على الساعة الثامنة صباحا، أدخل الروكي إلى المعسكر وسط استغراب كبير. فلم يكن يرتدي سوى قميص، ورأسه عار تماما، لكن كان يمشي متبخرا فخورا. وقد كان عمره حوالي 50 سنة، ولم تكن عينه ناقصة كمولاي امحمد، لكن عيناه مفتوحتان واثقتان، وكان يبدو كأنه لا ينظر إلينا، وكان وحيدا، رجلاه مغلولتان. فقد اختفى كل رجاله، وسبى جباله نساء وباع أفراد المحلة عبيده وإماءه، وهو سلطان الشرق السابق يمشي كلص بئيس، وعندما وصل عند قائد المحلة اشتكى له من الجوع والبرد، فكساه سي محبوب، وقدم له الطعام، ووضع له الحذاء الأغلال برجليه وأركب بغلة « بالسريجة »،

واتجه به نحو فاس تحت حراسة بقيادة سي عبد الكريم، وبقيت المحلة معسكرة بمولاي بوشتى.

وبمجرد علم السلطان بالنيا أعد قفصا قويا قضبانه من حديد، مثل قفص الحيوان المفترس، وأرسل تجريدة لإستقباله، فأدخل بوحماره إلى هذا القفص مكبلا دائما إلى فاس عبر باب بوجات، فأعلن « البراحون » في كل الأنحاء في فاس الجديد وفاس البالي، نيا القبض على بوحماره، فعم الفرح والإرتياح، وأطلقت المدافع طلقات الفرح، وأغلقت المحلات وخرج الناس جماعات من الأسواق، وأقيمت حفلات التبوريدة وتراحم الناس لرؤية هذا المهزوم، والذي سيراه السلطان بدوره مثل شعبه.

فأدخله الحراس بسهولة إلى المشور الجديد مخافة الهيجان الشعبي، فعزفت الموسيقى، ولعبت التبوريدة، وكان السلطان محاطا بكل المخزن : الوزراء والكتاب جالسا في الخلف أمام حيوان قصره. فطيف بهذا الأسير كل أنحاء القصر حتى يتعرف عليه كل الحاضرين.

فأنزل القفص أمام مولاي عبد الحفيظ الذي أخذ يتأمل « صاحبه » مدة طويلة، وكان ينظر إليه وهو بدوره دون أن يقول أي شيء وأخيرا بدأ الحوار بين الرجلين كما سأقول لك :

___ ما اسمك يا ولد الحرام؟

___ الجيلالي الزرهوني.

___ لماذا انتحلت صفة أخينا مولاي أمحمد منذ سنوات؟ وعارضت أخيرا أيها الكذاب سلطتنا رعاها الله.

___ لا يقع إلا القدر المكتوب.

___ فلماذا كنت تتجه نحو وزان؟

___ لاتسألني أي سؤال لأنني لن أجيب عنه، لكن أعطني طعاما لأنني جائع. وبعد ذلك سأعترف، لأنني أرى أن هناك أشياء كثيرة يجب أن نتحدث فيها.

فاستغرب السلطان من وثوقية هذا الرجل في نفسه، وأمر بإعطائه الطعام، وقدم له الخبز والسمن.

___ هل هذا طعام يقدم إلى السلاطين؟

فرفض أن يأكل.

وأشار السلطان إلى حاجبه الذي أعطى أوامره، وبعد لحظات جاءه عبدان أمام القفص بطجينين من لحم الدجاج والغنم، فكان بوحماره يأكل كثيرا، وببطي، والسلطان ينتظر دائما، وطلب شايا فأعطيه، ولما رشف آخر رشقة قال له مولاي عبد الحفيظ :

___ حسنا فقل لي الآن بعد أن امتلأت بطنك لماذا ذهبت عند جباله؟
___ لقد كنت ذاهبا إلى مولاي عبد السلام، لأن نمة كان من الممكن أن أتفاوض
معك؟!

___ كيف؟ ألا تستحيي من تصرفاتك؟
___ لست أستحيي من تصرفاتي، كما لا تستحيي أنت من تصرفاتك، فكلنا من أسرة
واحدة، فنحن الإثنان روكيان.

___ فإذا كنت أنا روكيا، فإنني لم آت من دوار في الجبال امتطي حمار. وأطالب
بعرش فاس. فأنا من أسرة السلطان المنحذر نسبه من علي بن أبي طالب (ص)، وأنا
بفضل الله ورسوله هنا هو السلطان.

___ نعم، هذا صحيح، لكن يبدو لي أنك تحتقني كثيرا وتعاملني كراعي أغنام، فأنا
متعب وأريد أن أستريح رغم آلام الأغلال في رجلي. فلا داعي للإطالة في الكلام فإما أن
تطلق سراحني وتضمنني إلى جانبك أشغل معك، أو تعدمني، فلو كنت مكانك وكنت
مكانتي، فإنني لن أفكر سوى في هذين الحلين.

ولم يتدخل السلطان، كما لو أن بوحماره هو من يتحكم في الحوار.
___ إطمئن، فأنا لا أقتل وأشوه أجساد أمثالك.

وقد حاول سيدي عبد القادر الفاسي أن يسأله، لكنه أجابه :

___ لن أجيبك، فأنا لا أتحدث أبدا مع غير الملتحين.

وفي الوقت الذي كانت فيه خطب المساجد تنوه بالقبض على بوحماره، ظل هذا
الرجل في قفصه محروسا بباب بوجات، وكان قد بني سورا مربعا من الإسمنت حتى
يمكن لكل واحد أن يشفي غليله من رؤيته، ولما شفي غليل كل أهالي فاس أطفالا وشيوخا
وأيتاما ومشردين، وعجزة فوق بغالهم من رؤية الروكي، نقل إلى دار المخزن حيث سجن
في بنية تحت حراسة مشددة دائما.

وبعد سبعة أيام من هذا الانتصار، دامت الحفلات يوميا بباب محروق بأشكال مختلفة
حفلات ساحكي لك عنها الآن فقد عرضت خسائر الحرب من قبل الأسرى المبعوثين بعد
هزيمة الروكي بواد ورغة ومن قبل من لازالت محلة سي محبوب تطاردهم في نواحي
فاس.

ووفد على فاس عدد جديد من الرؤوس المقطوعة (60 إلى 80) الذين عمل اليهود،
وتجار المحلة كالعادة على تمليحها، وخياطة قطعة جلد في العنق، وعلقت على جدران باب
محروق أمام حشد كبير من الناس، ووسط الأهازيج النغمات الموسيقية والأفراح.

كما وصل أيضا 300 أو 400 أسير لأنذكر العدد جيدا، أفواجا أفواجا، فكانت توضع في أرجلهم الأغلال بمجرد وصولهم، وتقطع يد ورجل كل واحد منهم. وكان يقال إنه لم يكن هناك إلا أتباع بوحماره لكن المؤكد أنه كان من ضمنهم جبالة وبعض المساكين الأبرياء الذين اعتقلوا صدفة لأن حملة سي محبوب لازالت دائما في المواجهة، ولما انتهت مهمته رجع سي عبد الكريم مع رجاله إلى مولاي بوشتى الصغير. ولما كانت قوة السلطان مزهوة بهذا الانتصار الكبير، أي القبض على بوحماره، فإنها مشطت كل هذه المنطقة الجبلية، من كل المتمردين الصامدين والمتحصنين بالجبال، وخلال ثلاثة أو أربعة أشهر استخلصوا الضرائب، حيث كانت تذهب تجريدة يوميا بقوادها إلى هذه المنطقة أو تلك لإخضاع المزيد من القبائل، وجلب الأسلحة والقطعان والأغنام والبغال فكان الشعير والقمح يتراكم ويتكاثر في مولاي بوشتى بالإضافة إلى عدد الأسرى المتزايد الذين يبعثون إلى فاس أفواجا بدرجة ارتفعت بها منزلة أفواج مولاي عبد الحفيظ في عين الجميع.

وقد كانت الإعدامات وتعليق الرؤوس متواصلة يوميا في باب محروق، حيث كان يتجمع الناس من الأسواق كل يوم خميس، وكان بائعو الحلويات يتحركون بنشاط في الأسواق، والسقاؤون يقرعون أجراسهم، والنساء يضحكن خلف حياكهن، والموسيقات تعزف واختلطت فرقة السلطان بفرق الشيوخات المزيينات بالخلي، فكان الحفل بهيجا لدى العامة، وكان الجزائريون بباب محروق يشحذون سكاكينهم لقطع يد يمنى ورجل يسرى لهذا السجين ويد يسرى ورجل يمنى للآخر. فسالت الدماء وسط أفراح أهل فاس، ولكي يوقف نزيف هؤلاء البؤساء، فإنهم كانوا يحملون إلى صهريج ماء ساخن ويحشى ما تبقى من أعضائهم الدامية وسط صراخهم وآلامهم. ومات كثير منهم هنا لتزيفهم من الدم.

وبعد بضعة أيام من احتفال الخيالة هذا، تجمع قناصل القوات الأجنبية الموجودة بفاس، وقرروا استضافة السلطان، وطلبوا منه باسم الإنسانية والتحضر أن يكف عن هذه التصفيات البشعة.

فأجابهم مولاي عبد الحفيظ بأنه هو السلطان هنا وليس غيره، وأن له الحق في عقاب المتمردين كيف يريد، ولم يعقب عليه الأوروبيون لأنه، وهو سلطان المغرب، لم يكن يتدخل لافي شؤون فرنسا أو إنجلترا أو غيرها، ليخفف من مآسي أسراهم ومجرميهم، بل انه ثار ضدهم وخاطبهم بقوله تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » المائدة 32.

واستمرت الحفلات الدموية بباب محروق.

واستقبل يوما قافلة من الأسرى وسألهم بعض الأسئلة :

— ماذا كنتم تفعلون في فخذاتكم؟ فليجيني كل واحد على حدة، لأنني سأجازيكم بالإلتحاق بصفوف المخزن.

— فتبين أنه يوجد من بين هؤلاء الأسرى كثير من الموسيقيين، موسيقي بوحمارة، لأنه كان له موسيقوه وخيمته وخاتمه.

فاستقدم السلطان العرب الذين يزيلون الأضراس، وأمرهم بقلع أسنان كل هؤلاء الموسيقيين لأنهم لن يستطيعوا الغناء بدون أسنان، فاستعصى على هؤلاء المساكين الدامية أفواههم أن يعزفوا على «غيطاتهم» / مزاميرهم التي لم تعد تصدر أي صوت.

وقال مولاي عبد الحفيظ :

— أترون إنهم ليسوا سوى دجالين مكرة.

وسجن بعضهم، ووضع الآخرين في أقفاص الأسود.

وخلال هذا الوقت كله فإن بوحمارة كان يوضع بضع الساعات داخل قفصه في ساحة المشور وأخرج مولاي عبد الحفيظ في يوم جمعة مولاي امحمد لصلاة الجمعة بمسجد فاس الجديد، فتبين وللمرة الأخيرة أن بوحمارة لا يشبه مولاي امحمد في شيء.

وألح السلطان على الروكي لأخذ معلومات من مناجمه في بني افروز، وعن كنوزه التي يمكن أن تكون له في تازة أو في مكان آخر، ولم يستطع بوحمارة قول أي شيء لأنه لا يتوفر على أي شيء. ومرت الأيام والمتمرد دائما حي، بل بدأ يسترجع شجاعته.

لقد مر أسبوع على إلقاء القبض على المتمرد، وقال مستشارو السلطان :

— سيدنا ! إن بوحمارة خطير رغم كونه أسيرا ألا ترون أنه من المناسب قتله : خاصة أن الأوروبيين - شئت الله شملهم - قادرون على الحياء عندك، وأداء فديته لإطلاق سراحه، وقد سبق أن احتجوا باسم العدالة في باب محروق، فأظهر لهم أنك سلطاننا الذي نصره الشعب، والذي يشبهه علماؤنا بجديده الميمونين مولاي الحسن ومولاي اسماعيل.

فدعا السلطان لاجتماع يحدد فيه مصير الروكي، وقد كان الاجتماع سريا حضره الحاج أحمد الكريسي، وبعض قواد الأفواج النظامية الأوفياء، وسي ادريس ولد منو والقائدين بوهو ومبارك السوسي، فتوجهوا عند الأسير الذي أخرجه من قفصه ومن البنيقة في اتجاه حديقة الوحوش، حيث توجد الأسود والنمور والفهود التي جاء بها سي المهدي المنهبي من إنجلترا إلى مولاي عبد العزيز (1901) فأدخل إلى قفص أسد ظنا أن الأسد سيفترسه، لكن لم يضره هذا الأخير إلا على كتفه برجله. فانزوى في الركن وأخذ ينظر في هدوء إلى المتفرجين. فقال مولاي عبد الحفيظ للحاضرين.

___ انظروا ! ما يكون هذا الرجل الذي رفض الأسد افتراسه ؟ إنه ساحر جبار.

فالتفت متعبا إلى القائد مبارك السوسي وقال له :

___ عندك مسدسك . اقتله بمجرد أن أخرجه .

فأخرج بوحماره، فشق القائد مبارك رأسه بطلقة من مسدسه Mauser، وجر عبدان جثته في ركن من القصر، وصب عليه الغاز وأحرق (15، 16 شتنبر 1909).

هكذا إذن كانت النهاية المأساوية لهذا المتمرّد المشهور الذي هزم أفواج مولاي عبد العزيز والذي عين وعزل قواد الشرق، وتخلّوا عنه الواحد تلو الآخر وأتم ثروته بواد ورغة.

ولم تعد محلة سي محجوب إلى فاس إلا في نونبر، حيث دخلت دخول المتصرّين، مارة بباب محروق المزين دائما برؤوس المتمرّدين. وعمت سلطة مولاي عبد الحفيظ البلاد كلها، واعترفت به تازة وجاء غياثة وأتسول والبرانس الأقوياء لمبايعته. وازدادت مكانة المخزن قوة بعد القبض على بوحماره.

مصاعب جديدة للمخزن الحفيظي

ولا يعني هذا أن مولاي عبد الحفيظ لم تعد له أي مشاكل في الحكم خاصة بعد القضاء على بوحمارة وامتداد بيعته في المغرب كله. بل إن أحد اخوته مولاي الكبير قد التحق بالجبال، في محاولة منه كما يقال، للحصول على العرش، ثم إن الإسبان كانوا يريدون الشروع في استغلال مناجم الحديد بكبدانة التي أعطاهم إياها الروكي، والذين قتل منهم العديد من العمال والمهندسين على يد رفاة وأرسلوا في المقابل فيلقا من 50000 جندي ليحتلوا رأس الماء، وسوق العرب بكبدانة والناصور والمناجم المعروفة (ستمبر 1909)، وأرسل مولاي عبد الحفيظ رسالات احتجاج إلى القوى الكبرى. وأخيرا، فإن الخزينة تشكو من فراغ كبير، وأصبحت تأخذ الضرائب مضاعفة مرة أو ثلاث مرات ويقال إن عدة قواد أغنياء صودرت أملاكهم. وأرسلت محلة إلى تازة لاستخلاص كل الضرائب المتأخرة، لكن الوضعية ظلت كما هي، وأخذ السلطان يفكر في مغادرة فاس نحو مراكش، حيث يمكن القبائل الجنوب القوية والغنية أن تؤدي ضرائبها التي لم تكن تعطيها إلا بصعوبة للمخليفة مولاي بوبكر، لكن القبائل المحيطة بفاس قد احتجت بشدة وقلقت من تصرفات السلطان، مما أخاف الباشا من اندلاع ثورة شاملة بعدما يغادر السلطان وأفواجه فاس.

وكان مولاي عبد الحفيظ قلقا بعض الشيء من تحركات مولاي الكبير - وتعلم أنه ابن آخر لمولاي الحسن طويل القامة، وسمين / غليظ، منقط الوجه - الذي رجع إلى مراكش (أبريل - ماي 1909) مع محلة قواد الجنوب عند مولاي عبد الحفيظ، لكن بوصوله إلى الرباط. ولأدري هل كان يخاف أن يسجنه أخاه ويصادر كل أملاكه؟ وهل كان يفكر في ضم عديد من الأتباع ليطالب بالعرش؟ لأعلم ولكنني أرى أنه خاف خاصة بعدما علم أن ضيعاته وذخائره من الحبوب والشاي قد صادرها السلطان - اختفى ليلة مع أتباعه الأوفياء عند زمور وازعير، فاستقبله زمور استقبالا حارا وقدموا له المؤن، وبعد مرور شهر (ماي) كان مولاي الكبير يبحث عن الرجوع وطلب العفو، فقد خاف كثيرا، وهو محق في ذلك، عندما صودرت أملاكه، لكنه كان يعلم أنه ليس هو المستهدف في شخصه، فصعد عبر تافودايت نحو واد بهت (يونيو)، وكتب إلى مولاي عبد الحفيظ يطلب منه بحسن معاملة أهله (نسائه وأطفاله)، وأن يرجع إليه أملاكه، أما بالنسبة له فهو يريد الذهاب إلى

الحج إذا سمح له السلطان، لكن هذا الأخير أجابه بأن أملاكه لن ترد إليه إلا في فاس التي يجب أن يأتي إليها.

لكن مولاي الكبير كان يشك في هذا الاقتراح، وبينما كان كل اهتمام المغرب منصبا على القبض على بوحمار، فإنه (مولاي الكبير) ذهب مختفيا عند كروان وبني مطير وآيت سخمان وبني مكليد وآيت يوسي وغياة يحدث القبائل في محاولة منه لمبايعته (نونبر، دجنبر).

وقد دخلت محلة سي محبوب إلى فاس مزهوة بانتصارها على بوحمار. فأرسلها مولاي عبد الحفيظ نحو القبائل التي يبدو أنها تساند مولاي عبد الكبير، وفي هذه الظروف طلب قائد البعثة الفرنسية Mangin من المدربين العسكريين الالتحاق في خدمة المحلة. ويمكن أن يكون قد توصل بمراسلة بهذا الخصوص من حكومته؟ ولما كان السلطان فخورا بانتصاره الأخير، فقد ترك الأوروبيين جانبا وأصبح يتدارس يوميا، الكتب العلمية مع ثلاثة علماء، وبهذا رجع إلى الطريق الصحيح. ولم ينظر المدربون العسكريون الفرنسيون والإنجليز إلى المسألة إلا من الجانب الديني / المسيحي، أو ليس حريا أن يوجد جيش كبير من المسلمين أفضل من جيش مصغر من الأوروبيين؟ وهكذا طلب من اسطمبول مده بمدربين عسكريين أتراك. ثم إن تراجع نفوذ المدربين العسكريين قد سر الأتراك الذين سيصل منهم نقيب واحد وعشر ضباط صف إلى طنجة (9 نونبر) لمصاحبة محلة سي محبوب التي سوف تنطلق نحو الحباينة.

فانهزمت هذه المحلة تماما لأن المدربين الأتراك لم يقوموا بأي مجهود لتنظيم صفوف المحلة المتفرقة لتنظيم صفوف المحلة المتفرقة، لأنهم دخلوا، ومنذ البداية في صراع مع قواد الرحي الذين يريدون أن يتحكموا فيهم، فرجعت الأفواج إلى فاس، ثم توجهت بعد ذلك نحو الشرق.

ومولاي الكبير موجود بتازة (20 دجنبر) وعلم أن قائد المحلة سي محبوب قريبه من جهة الأم، فعوض بسي عمر بن العبدى خليفة وزير الحرب وقريب الكلاوي، مخافة أن ينظم سي محبوب إلى مولاي الكبير.

ودخل الأتراك في صراع مع الفرنسيين الذين بقوا في فاس، لا يقومون إلا بتمرير الطوابير، وأرادوا أن يحلو محلهم، وبدا أن وجودهم هنا أصبح غير مرغوب فيه، وظهرت بعض عناوين المقالات في صفحات جرائد المسلمين، بايعاز من الأتراك من مثل « لماذا تحتفضون بالفرنسيين؟ فلن تجنوا منهم سوى الأخطاء فتذكروا أحداث 1870. » فعلمت البعثة الفرنسية مهماتها وخدماتها تماما (1910/1/10). ولما تعبت فرنسا من رؤية تصرفات،

وردود فعل مولاي عبد الحفيظ الجديدة، والذي لم يعد يحترم الإتفاقيات السابقة. وجدت أنه حان الوقت لتذكير السلطان بمجموعة من القضايا التي لم تحل بعد (خاصة : معاقبة قاتل Dr. Mauchamp) بالإضافة إلى بعض الديون المتأخرة وأنه إذا لم يسحب المديرين الأتراك، فإنها ستنادي على بعثاتها وقناصلها وتطلب بتسوية عاجلة لكل القضايا.

فاستجاب السلطان لهذا الشرط، خاصة أن الأتراك لم يحسنوا التصرف عند الحيانية، وأن الجنود المغاربة قلقين من وجودهم، رخص مولاي عبد الحفيظ للمدرين العسكريين الفرنسيين بالإلتحاق ومرافقة محلاته (1910/2/28).

ولازالت المحلة الشريفة معسكرة أمام تازة منذ عدة أشهر، لكن المنطقة هادئة وليست هناك أي معارضة أو عصيان، ولم يعد مولاي الكبير مقلقا كثيرا.

ووصلت إلى صنهاجة الداخلون في مواجهة مع المخزن (12 أبريل)، لكن عند المرور بواد الدين، تذكر الحيانية انتصارهم السابق فهاجموا المحلة وكبدوها هزيمة قوية 20 قتيلًا، منهم ثلاث قواد المائة وعددا كبيرا من الجرحى (15 أبريل)، فترجع المخزن إلى سوق أربعاء تيسا والحيانية يطاردونهم دائما، لكنهم اختفوا بمجرد علمهم أن السلطان قد بعث ضدهم بثلاثة طواير مع المدفعية والحاجب الحاج أحمد الكريسي، فاستأنفت المواجهات مع صنهاجة.

لكن هاهو مولاي الكبير يثير الشكوك من جديد، فقد بايعه الحيانية واتسول والبرانس ومكناسة بتازة. فرجعت المحلة إلى معسكرها القديم (نهاية ماي)، واعتقد أنه كان يلزم هذا المطالب بالعرش الجديد الأسلحة والنقود، فهو لا يعرف أين يتجه، فقد كان يتحرك من قبيلة إلى أخرى ويمكن أن يكون مستاء أو قلقا من هذه المبايعه، وأخيرا، بعث محلة إلى ورغة لمواجهة المحلة الشريفة وشيئا فشيئا ودون حرب، بدأ يطلب «الأمان» من مولاي عبد الحفيظ الذي يجيبه دائما :

« ارجع إلى فاس، وسندد إليك أملاكك »

وعوض أن يذهب مولاي الكبير، الخائف من غضب السلطان، إلى فاس اتجه نحو وجدة ليصل إلى المنطقة الفرنسية، لكن وجوده تمه كان قد أخرج حكومتك التي لها عدة مشاكل مع مولاي عبد الحفيظ، فنقتله من وهران عبر طنجة بحرا نحو فاس وكان قد جاء سي بومدين كاتب M. Gaillard إلى السلطان الذي سامحه والتزم بأن لا يؤدي، وضمنت الحكومة الفرنسية حمايته، واعطيه بدون شك منصب خليفة مراکش الذي كان به مولاي بوبكر، لكن رغم كل هذه الضمانات فإن مولاي عبد الكبير ظل خائفا، فاتجه نحو العنجرة، وبعد ثلاث أو أربعة أيام انطلق قائد الرحي الحاج المهدي لطابور طنجة صحبة بعض الحراس بأمر من الباشا، في مطارده، فاعتقله واقتاده نحو فاس رغم الحماية الفرنسية.

وأقنع مولاي عبد الحفيظ بصعوبة بعدم إعدامه، فقد كان يريد قطع رأسه. فأعطيه مسكن بدار المخزن حيث عاش منذ ذلك الوقت أسيرا، وهذه كانت نهاية تحركه (شتنبر/ أكتوبر 1910).

وفي هذه الفترة كان مولاي عبد الحفيظ، ويتنسيق مع وزيره الأول سي المدني الكلاوي، يريد إعادة تنظيم صفوف جيشه النظامي، فأصبح هناك عدد قار للجنود، تحت ضغط فراغ الخزينة، لكن كانوا يتقاضون رواتبهم بانتظام، وينضبطون للتعليمات، أما الذين لا يريدون الانضباط للنظام الجديد يمكنهم الذهاب، فذهبوا إلى فاس حيث قاموا بعدة سرقات، بل بعدة اغتيالات فقد سرح، وفي دفعة واحدة : أكثر من 3000 رجل وكان Mangin قد اقترح نقلهم إلى قبائلهم الأصلية، حتى يكونون أقل خطورة من فاس. وكان ممن بقى من الجنود طابور الزنوج، وطابور العسكر العبيد (حوالي 650 رجل)، وسرية التدريب (150 رجل) بقيادة البعثة وأربع طوابير من المشاة ب 500 رجل وثلاثة طوابير الخيالة ب 150 فارس، وطابوري مدفعية بأربع قطع / مدفع لكل واحد وطابور من المهندسين ب 200 رجل، بمجموع جيش صغير من 3250 رجل ولما كان المال قليلا، فإن مولاي عبد الحفيظ كان مضطرا إلى تكوين جيش صغير على غرار الأوروبيين وهذا ما لم يكن يردده منذ شهور ورغم هذا فإنه كان يكلفه ذلك أكثر من 7000 دورو و(350000 فرنك) أسبوعيا.

وإن لم تبعث القبائل وحدات النائية، وكانت تبعثها، فإن قوات المخزن تبدو ضعيفة جدا لمواجهة تحالف قبائل الشرق، أو قبائل جنوب فاس، وقد كان الوزير الأول سي المدني الكلاوي لا يتواصل مع السلطان كثيرا، وكان يقال أنه يبذل قصارى جهده للإساءة إلى السلطان، وهكذا قرر أن تؤدي كل القبائل المخزن الضرائب، ومعلوم أنه، ومنذ قرون، كانت هذه القبائل لا تقدم للسلطان سوا الخدمات العسكرية مما يعفيهم من الضرائب، وبهذا التصرف سيجبر الشرادة وغيرهم على التمرد، فلم يعودوا يرسلوا أي فرد منهم إلى فاس، ثم إن القبائل التي كانت متمردة دائما : بني مطير، وأيت يوسي، وكروان وبني حسن مستعدون للبارود، ومسرحون خيولهم لتهديد فاس، مما أرغم مولاي عبد الحفيظ أن يطلب الفرنسيين حمايته.

وعلى العموم، لم يكن السلطان هو المشار إليه بسوء التصرف، بل مخزنه، وكان قد عين وزراء جدد لكن الوقت كان قد فات. ولكن أنت تريد أن تعرف كيف كان يتكون مخزن مولاي عبد الحفيظ، وماذا أصبح وزراء مولاي عبد العزيز القدماء بعد ذهابه.

ففي وقت بيعة مولاي عبد الحفيظ بفاس، وهزيمة مولاي عبد العزيز، لم يعد الوزير الأول سي فضول غرنيط يقوم بأي شيء، وبقي في الرباط مجردا عن أي سلطة.

ثم إن عبد الكريم بن سليمان الذي ذهب إلى فاس ليشغل منصب الوزير الأول، رفض فوقع مريضا ثم مات بعد ذلك، وفي اليوم الموالي دنس قبره وقطع رأسه (ولعل ذلك بأمر من السلطان) وعلق رأسه بالمصلى مكتوب فوقه « هذا جزاء من يبيع وطنه إلى المسيحيين ».

واعتقل مولاي عبد الحفيظ، اثر هذا الحدث أحد أحفاد عبد الكريم بتهمة تدنيس القبر وماكتب في المصلى.

وقد كان المدني الكلاوي هو وزير الحرب، لكنه لم يبق في البنيقة سوى بعض الوقت وعين بدله فيها ابنه سي محمد العربي، أما بالنسبة له هو فقد حل محل بن كبور الخليفة السابق للمنبهي في منصب الوزير الأول، وأصبح بن كبور وزيرا للشكايات. وبقي الشيخ التازي في الرباط، ثم ذهب إلى الدار البيضاء، ومنها إلى طنجة حيث سيموت.

أما سي محمد الركينة صاحب مولاي عبد العزيز، فقد ذهب مع سيده إلى منفاه الإختياري وعوض بالحاج احمد بن مبارك الكريسي حاجب مولاي عبد الحفيظ.

وبالنسبة لقائد المشور، فإن قصر مراكش اعطى مولاي عبد الحفيظ أمر إدارته إلى الباشا ادريس كنيشيش البخاري، ولكن بالوصول إلى مكناس عوض الحاج بن عيسى باشا مكناس، الذي كانت له علاقة جوار مع البرابرة وسمعة حربية معروفة، وكان قد مهد الطريق للسلطان الجديد في هذه المناطق، وليجازيه مولاي عبد الحفيظ فقد أعطاه منصب قائد مشوره، وعين ادريس باشا فاس الجديد محل القائد البشير مومو الذي بقي مواليا لمولاي عبد العزيز، والذي سيعتقل بمجرد وصوله. لكن عندما وصل الجنود لتنفيذ تعليمات السلطان، احتفى البشير بباب القصر، وكان نساء الحزن المحجبات بحسب إدارته إبان غياب مولاي عبد العزيز، قد تدخلن له حتى إذا دخل مولاي عبد الحفيظ إلى القصر وجده في طريقه، مغبر الجبين راکعا على رجليه طالبا عفوه فسامحه وأدرجه ضمن طابور عبيده.

وتذكر أن قائد شراكة وأولاد جامع ولد با محمد الشرقي، كان قد أعطى لمولاي عبد الحفيظ 50000 دورو ليعين باشا على فاس، والبقاء في قيادته أو منصبه التي كانت ستعطى لسعيد البغدادي، وعندما رجع الحاج بن عيسى مع سجنه مولاي امحمد الذي ذهب يبحث عنه في تمارة مدعيا أنه سيتحالف معه، عين قائدا للمشور وباشا فاس البالي، واحتفظ لولد بامحمد الشرقي بقيادة شراكة.

وكان خليفة قائد المشور سي مصطفى بن يعيش. ودخلت القصر فتاة من عائلة ادريس بن يعيش تزوجها مولاي عبد الحفيظ وأهداها كيسين من النقود ولؤلؤتين نفيستين :

وعين مصطفى قائدا للمشور. وطلب السلطان النقود من الحاج بن عيسى الذي لا يستطيع أو لا يريد إعطائها له، ومادام أن الوقت قد صадف تمرد زمور المواليين لمولاي الكبير، فقد اتهم هذا الرجل (الحاج بن عيسى) الذي كان مقربا من مولاي عبد الحفيظ كان يساند هؤلاء، فاعتقل (19 ماي 1910)، وصودرت أملاكه، وأخذت إحدى نسائه : لالة البتول وعنف لتعترف بمكان وجود مال العائلة لكنها لم تكن تعلم شيئا، ولاتستطيع الإخبار بمكان وجود نقود زوجها.

وبهذا أصبح سي مصطفى بن يعيش قائد المشور.

أما ابن عيسى فقد أطلق سراحه بتدخل من الوزير الفرنسي M. Regnault وذهب إلى مراكش.

وبان أحداث الفتنة والإضطرابات. كان باشا فاس هو الحاج المقرري. وعوض سي محمد البغدادى الذي عينته فرنسا، لكن كان كل هذا في بداية عهد مولاي عبد الحفيظ، أما باشا فاس فكان هو سي عبد الرحمان بن عبد الصديق الذي عزل وعوض سي الحسين بن موحى أحمو الزياتي، أخ لالة رابحة زوج مولاي عبد الحفيظ التي سبق أن أهديت إلى مولاي الحسن الذي كان يريد لها زوجة مولاي عبد العزيز، لكن هذا الأخير كان يفضل كما تعلم، الشراكسيات، وتركها في مراكش، وتزوجها مولاي عبد الحفيظ ليضم إليه قوة زيان، فاستطاع الوصول إلى فاس مروراً بأرض زيان، وكان على رأس الحملة بنت موحى أحمو أقوى قائد في بلاد خنيفرة، وطيلة الطريق لم تعرف الحملة أي عرقلة أو مشكل وأخذ ولد موحى أحمو في مزاوله مهامه لم يكن رجلا يعرف القراءة والكتابة، ولكن كان بربريا قويا ذا أنفة يحب كثيرا الخيول ورائحة البارود من أجل البقاء في منصب باشا فاس البالي، فذهب يوما إلى أهاليه بالجبل بعدما نودي عليه، وعوضه عبد الكريم ولد با محمد الشركي الذي ألقى القبض على بوحماره.

وكان وزير الشؤون الخارجية (وزير البحر) هو سي عيسى بن عمر قائد عبدة، عوض (في غشت 1910) بالحاج محمد المقرري الذي أصبح فيما بعد الوزير الأول عندما رجع سي المدني إلى قصبة تلوات (دجنبر 1911)، ومنذ وصوله إلى سنة 1910 كان سي الحاج المقرري هو أمين الأمناء، مكان الشيخ التازي ومكان أمين الشكارة سي الطيب المقرري.

وأرسل الحاج عمر التازي إلى موكادور (الصويرة) بعد هزيمة مولاي عبد العزيز، وفي الوقت الذي اتجه عديد من اتباع السلطان المخلوع إلى الدار البيضاء، لطلب اللجوء من الفرنسيين، أخذ بعضهم شيئا فشيئا الطريق نحو فاس، وعندما هدأت الأوضاع أصبحوا يبحثون عن مزاوله مهمة ما في المخزن الجديد، لكن أفهم الحاج عمر التازي أنه لا مكان له

قرب السلطان، خاصة أن الوزير الأول سي المدني الكلاوي قد شغل منزله بفاس وأصبح ملكه، وهذا سبب آخر لكي لا يذهب إلى فاس.

وهذا كل ما يتعلق بالنسبة لخزن مولاي عبد الحفيظ (24).

آخر أحداث مغرب ما قبل الحماية

لقد انتهت روايتي ولم يعد لي ما أقوله لك، فالمغرب « القديم » سوف يختفي، وما يقع الآن مثبت عندك في كتبك، وكنت طول هذه المدة خليفة « لطابور عسكر العبيد، وكان علي البقاء جوار السلطان بفاس، فقد أعيد تنظيم الطوابير، كما قلت لك، وأصبح لكل طابور ضابط فرنسي، وكان هناك أيضا أنجليزيان للخيالة، تعرف منهما Bolding، ضمن الحرس الأسود للسلطان.

فهل كانت هناك حملات في هذه الأثناء؟ أبدا، لم تكن هناك أي مواجهات، ولم يعد السلطان يعول في تدخلاته سوى على أفواجه النظامية. وكانت قبائل الخزن قد تمردت لأنها لم ترد أداء الضرائب ولاحظ آخرون بأن مولاي عبد الحفيظ لم يلتزم بالشروط التي أقرها العلماء، وأنه يتصرف مثل مولاي عبد العزيز، حيث يعتمد على المسيحيين، فتزايد عدد المتمردين يوما بعد الآخر، وانتشروا في الأسواق وأصبحت الطرق خطيرة كالسابق، فهم يرغبون في سلطان جديد. ولم نعد نعرف ماذا نريد فكثرت النهب والقتل، وكان أدنى رد فعل من مولاي عبد الحفيظ سيشتعل فتيل السبية.

وكان أول من تمرد : بني احسن وجباله لأن مولاي عبد الحفيظ كان يريد أن يسلم قشتالة وبني زروال، وبني مسكيلة وبني ورياغل إلى قائدي أولاد جامع وشراكة، وقد استنجدت هذه القبائل ببوحمارة، وكان يحاول أن يقبض عليهم بهذه الطريقة. فأتجهنا نحو أماكن المحلة بقيادة القائد باقة بوبرين، والشريف مولاي يوسف، وكان في فاس سوء تواصل بين السلطان ووزرائه من جهة، وبين الوزراء فيما بينهم من جهة أخرى : الوزير الأول سي المدني ضد المتوكي ووزير الشكايات الذي عوض بن كبور، ولم يعد للمخزن سلطة كبيرة، فكل القبائل قد تنكرت له باستثناء بعض بني وارين والحياينة، وتعلم أن هؤلاء الناس كورق الشجر في مهب الريح وكان الشراردة وبني مطير وكروان وزمور وإزعير ومجاط صامدون أمامه، فإذا أراد السلطان أن يذهب إلى الحوز كما قال فإنه لا بد أن يوجههم في الطريق، ويخضعهم على التوالي، فكونت محلة بفاس لإخضاع الشراردة، وأريد أن أقول أن المحلة كانت في كامل استعدادها، لأنه لم تكن هناك وحدات القبائل فكان النظاميون يكونون حوالي 3000 رجل.

فانطلقت هذه الحملة من فاس (يوم 28 فبراير 1911)، بقيادة وزير الحرب سي محمد العربي بن المدني كما كان هناك أيضا القواد : سي محمد البغدادي، والمقدم Breumond

والنقيب LeGlay، كما كانت تضم طوابير المشاة (الخمسة) في حوالي 1700 إلى 1800 محارب. وطوابير الخيالة (الثلاثة) في 350 فرس وطابور المدفعية، ومجموعة من 80 محارب من الجبل / « جبلي » بقيادة AdjutantPisau، وسرية مدفعية بقيادة المارشال Des logis Guerraz معلومات من اسديرة، وقد كونت هذه الأفواج منظمة على الطريقة الجديدة التي كان يعارضها العلاف، ومادام لم يبق في فاس سوى بعض غير النظاميين مع المدفعية، فقد استدعيت وحدات الحوز التي جمعت بصعوبة لتتجه نحو فاس عبر الرباط (وصلوا حوالي 12 ابريل).

ووصلت محلة سي محمد العربي إلى بلاد الشراردة، وهزمت المتمردين دون صعوبة كبيرة بسوق سبت الشراردة (3 مارس)، وتابعت مسيرها أماما في اتجاه معسكر العدو سي محمد بن يعقوب، حين شنت المدفعية المتمردين، وطوردوا إلى جبل سلفات (7 مارس)، وعسكرت الأفواج الشريفة، بعد حسن صنعها بدار القائد حفيظ حيث جاءت القبائل المنهزمة لإعلان طاعتها، وبقت هنا مدة شهر إلى أن استدعيت بصفة استعجالية إلى فاس حيث الوضعية أصبحت صعبة بعض الشيء.

وفي الوقت الذي كانت فيه هذه القوات المهمة في بلاد الشراردة، علم السلطان بأن كروان وبني مطير يتجهون نحو مكناس، فبعث ضدهم بعض الجنود الذين تبقوا عنده (اسديرة)، لكن هذه الحملة لم تقم بأي شيء فكان أفرادها يبيعون الرصاص مقلدين قوادهم، وبمجرد رؤيتهم العدو تراجعوا دون أن يحاربوا، وطردت إلى حدود نزالة فرجي آخر محطة قبل فاس. وفقدت حوالي 30 قتيل وكثيرا من الجرحى (27 مارس).

وقد شجعت هذه الهزيمة البرابر، الذين يستعدون لمحاصرة فاس، فقد علموا أنه لم يعد مع السلطان أحد، وأنه محتار في أمره، فكتب إلى الرحامنة وقبائل الحوز طالبا منهم النجدة، وأنهم إذا بعثوا له بالرجال سيعفيهم مدة خمس سنوات. لكن لم يستجب لطلبه.

وهاهي بعض أفواج البرابر أخذت تقلق ضواحي فاس القريبة، فكانوا يرون بالسرج الجنوبي ویدار الدباغ، وهي في ملكية السلطان جنوب المدينة، ولم يتفرقوا إلا بعد قصف المدافع، وقد كانت كل الطرق المؤدية إلى فاس مقطوعة ومحروسة، وأصبح التزود بالمؤن صعبا، فأخذ الفاسيون يحتجون في بيوتهم، وطلب من محلة الشراردة الإلتحاق بفاس، ومن الجنرال Moinier أن يبعث محلة الحوز الموجودة حاليا بالرباط، وأخذ حركة من 1500 رجل من قبائل الشاوية بقيادة سي محمد الأمrani.

ونهب بنو مطير مكناس وبايعوا بها أخ السلطان مولاي الزين، الذي ما فتى أن كون مخزنه (19 ابريل)

وأصبح من الصعب على محلة الشراردة الالتحاق بفاس، لأنه كان عليها أن تحارب يوميا القبائل التي تعرقل سيرها وتنادي بالانتصار خاصة أن الشرفاء تراجعوا إلى فاس، والشراردة وبني احسن خلفها، والوداية وشراكة وأولاد جامع يقفون أمامها.

فالتنمرد على أشده، والبلاد في فوضى حقيقية، وكانت القبائل المتمردة معسكرة براس الماء (الشراردة وبني مطير وزرهانة) وسيدي احمد البرنوصي شراكة والوداية وأولاد جامع) ويضواحي سيدي حرازم (بني وارين وغيانة) وغير بعيد من دار الدبيغ (آيت يوسي)، وكان لهم نفس قائد العمليات الذي يعطيهم الأوامر بالدخول إلى المدينة، كل واحدة حسب موقعها.

ولم يبق مع السلطان إلا بعض الحياينة، وبعض فرق بني وارين، وناداهم السلطان من جديد للإنضباط والتعقل بواسطة سي محمد بوشنافة الوزاني ، لكن هؤلاء الرجال لم يكونوا يرجعون إلا لأخذ الأسلحة والنقود، حيث كان يعطي 20 فرنك يوميا لكل فارس، وأصبحت مصاريف الحرب أكثر إرهاقا للمخزنية. والوضعية بفاس أصبحت أكثر خطورة : فتدخلت المواد الغذائية، وارتفعت الأسعار كثيرا، وأصبحت العصابات تتردد على الطرقات، كما أن وضعية الأوروبيين الذين يريد البرابرة طردهم، أقل أمانا.

ولكي يبعد مولاي عبد الحفيظ عنه المخاطر، خاصة أن دوي الرصاص وصل إلى دار المخزن، فإنه طلب مساندة الحكومة الفرنسية (4 ماي) بينما أرسل الإسبان 10000 جندي إلى ضواحي سبتة، والألمان يريدون التمرکز بسوس. فأنت تعرف البقية ولست أدري لماذا تريد أن أحكي لك بعد ذلك؟

وكان يتحرك مع المحلة التي جمعها الأمراني 2000 من المشاة بقيادة العقيد Brulard، والتحقت بها في لالة ايطو قوات دعم بالمهدية مع العقيد Gourand 13 (ماي)، كما وصل أيضا الجينرال Moinier مع أفواجه من الدار البيضاء، وانطلق الكل نحو فاس، عبر طريق زكوطة، ووقعت عدة مواجهات لأستطيع وضعها لك. ودخل الفرنسيون فاس يوم 21 ماي 1912.

فتنفس الكل الصعداء، وواضح بالنسبة لكل الفاسيين أن مولاي عبد الحفيظ لم يتجه سوى تدخل الفرنسيين الذين تسمع أبواقهم من معسكرهم بدار الدباغ.

وعزل السلطان الوزير الأول سي المدني الكلاوي، وعين باشا على مراکش سي إدريس ولد منو الذي عوض بسي التهامي الكلاوي (26 ماي 1912).

وكان على الفرنسيين للإستلاء وتهدة ضواحي فاس أن يقوموا بعدة مواجهات ضد القبائل الثائرة، وقد خضع آيت يوسي (18 ماي) وبنومطير، وشراكة (2 يونيو)، وأدوا

غرامة / خسائر الحرب لكن ثاروا من جديد مادام معسكر الفرنسيين قد هوجم من قبل أيت يوسي وأيت سفروشن، وبني وارين وبني سادن (6 يونيو)، وبعدها أجلى الفرنسيون الخطر عن معسكرهم أرسلوا حملة إلى صفرو، وأخرى إلى مكناس (بومطير وكروان) حيث استقبل الجنرال Moinier مولاي الزين مستسلما خائفا هو والقبائل التي بايعته.

وظل المدني (الكلاوي)، يراقبه السلطان بعد أن أذن له بالذهاب إلى قصبته بتلوات، وعرض الحاج محمد المقرئ.

وأصبح وجود الفرنسيين واضحا، على مستوى تنظيم الجيش وتسيير إدارة القبائل، وتحولت سلطنتها بصفة طبيعية إلى حماية، أما الدول الأخرى فقد كانت تعطي لفرنسا حرية التصرف في كل شيء. شريطة أن تترك أو تسمح لها بالتجارة في المغرب.

ولما تخلى الكل على مولاي عبد الحفيظ، أصبح مضطرا لقبول دعم ومساندة الفرنسيين. وعندما رجع M:Regnault إلى فاس، ومعه نص الاتفاقية (25 مارس 1912) وقعها بعد أيام من التردد.

وعندما انتشر هذا الخبر تمردت القبائل من جديد. وتوثرت الأعصاب بالعاصمة، وتسرب التدمير والفلق إلى أفواج الجنود، فالسلطان الذي بويح ليقف ضد النصارى قد وقع معهم الاتفاقية، وكان يقال في الأسواق بأن عبد الحفيظ قد باع المغرب نهائيا للفرنسيين الموجودين بفاس، وإلى الإسبان الموجودين بالعرائش والقصر، ونزل يوما المتمردون من قصبة الشراردة. وكان جنود الطواوير المتدمرون من كل الإصلاحات المراد تطبيقها عليهم والتي لا يفهمونها، مدعومين في ذلك من أفراد المخزن القلقون على مصيرهم، وعن قوادهم، قد قتلوا ضباطهم الفرنسيين، وتسلموا إلى فاس في محاولة لقتل كل الأوروبيين الذين يجدونهم في طريقهم (17 أبريل 1912).

ولم يعد الأمان والهدوء إلى المدينة إلا بعودة حملات مكناس وصفرو وتيفلت وأدرك مولاي عبد الحفيظ أنه لم يستطيع أن يبقى على العرش، وعندما وصل الجنرال ليوطي الذي استقبله بفاس (24 ماي) لأخذ الإدارة العامة للشؤون المغربية تنسيق مع السلطان، طلب مولاي عبد الحفيظ الذهاب إلى الرباط تاركا خليفته مولاي يوسف (6 يونيو) بفاس. وصحبه إلى الرباط عسكر العبيد الذي يراد أن يحول إلى حرس شرفي / ملكي : فاتجهنا إلى مكناس مع الوزير Regnault الذي اتجه إلى طنجة وبالرباط ألح السلطان على ترك السلطة / الملك فأعطي تعويضا جيدا، واتجه مع نسائه وعبيده وبعض أقاربه إلى طنجة ليلتحق بعدوه القديم المخلوع مولاي عبد العزيز (12 غشت 1912).

ورجع طابور عسكر العبيد إلى فاس، التي بويح بها السلطان مولاي يوسف بموافقة ليوطي (20 غشت 1912) فماذا وقع عبد ذلك؟

بعد أحداث فاس برز روكي جديد : الشريف سي الحجامي عند جباله حيث جمع محلة ووصل إلى حدود الحجرة الكحلة وأخذ يقصف فاس، بل إنه دخل زاوية مولاي ادريس، التي أخذ منها غطاء الضريح ليظهر للقبائل أنه دخل فاس. فخرج القائد الفرنسي Gourand، بعد أن انضمت إليه قوات القبائل من باب الكيسة في اتجاه زلاغ وهزم محلة الحجامي بالحجرة الكحلة.

وفي الجنوب دخل ابن ماء العينين الهية مع محاربين من سوس ودرعة (18 غشت 1912) في مواجهات الفرنسيين في مراكش، وسجن كل الموجودين بها منهم، لكنه لم يستطع الصمود أمام أفواج Mangin بسيدي بوعثمان.

وكانت هذه هي آخر أنفاس مغرب قديم مات، بكل كل ما قلته لك تاريخ أمس، ويجب أن تعلم أكثر مني أن ذاكرتي ليست جيدة فيما يتعلق بالأحداث الراهنة، عكس ماحدث في عهد مولاي الحسن ومولاي عبد العزيز لأنني لم أصبح فيها شيئا بعد.

فالطرق الآن أصبحت معبدة، بدل الطرق الترابية العادية، وحلت القناطر محل المعابر والمرافق، فقد مضى زمن أفواج الجنود المغنين في السهول، زمن « السروت » (أفواج الخيل » زمن القصاره» الكلام غير المنتهي، زمن المحلات، وفي كلمة واحدة أقول : هذه ليست سوى ذكريات خادم قديم مثلي يحكيها بأسى وأسف.

وبهذه الكلمة الحزينة أنهى الحاج سالم العبدى روايته.

الهوامش

- 1- الزكاة : 5، 2 من رأس المال والنقود، و « العشور » هو العشر من المحاصيل القلاحية.
- 2- يتعلق الأمر بالقرض المغربي (12 يونيو 1904) بما قدره 62،5 مليون فرنك فرنسي، بضمانة مداخيل ديوانة الدولة (10) وبفائدة 5، مقدم من رابطة البنوك الفرنسية، برئاسة بنك باريس وهولندا.
- 3- حسب هذه الحكاية فقد توفي الريسولي بأجدير يوم 4 ماي 1925.
- 4- مكث الريسولي أربع أو خمس سنوات بالسجن، وقام بمحاولة فرار فاشلة، ثم أطلق سراحه بتدخل من الحاج محمد الطريس نائب السلطان بطنجة.
- 5- اختطف Perdicaire الأمريكي وربييه البريطاني M. Varlry يوم 18 ماي 1904، وأطلق سراحهما يوم 25 يونيو الموالي. بعد أن استجيب بشروط الريسولي.
- 6- وصلت السفينتين الحريتين Kleber et Galilée إلى طنجة يوم 30 غشت 1904.
- 7- تسلم الريسولي مهامه يوم 1 أبريل 1905. حيث أعاد النظام إلى السوق الكبير، مسرح إنجازات عصابته، ووجدت طنجة نفسها محاصرة تحت قبضته.
- 8- عبر القيصر الألماني طنجة يوم 31 مارس 1905، وسط حراسة قوية، وقد جاء على متن الباخرة Hamburg، ومكث بعض الساعات بالمفوضية الألمانية. لكن هذه الزيارة عفت بزيارة أخرى قام بها الوزير الأول Courte de Tattenbach الذي وصل إلى فاس يوم 11 ماي، وزار السلطان ليوقف مطاعم الفرنسيين، مما جعل وزراء الخزن يقترحون على السلطان قبول عقد مؤتمر دولي (30 ماي).
- 9- افتتح مؤتمر الجزيرة الخضراء أشغاله يوم 15 يناير 1906، وكان المندوبون المغربية في المؤتمر : الحاج محمد الطريس، وسي الحاج المقرري، وتوصل إلى « اتفاقية عامة » وقعت عليها القوات الكبرى يوم 7 أبريل قدمها الوزير الإبطالي M:Malmusi عميد السلك الدبلوماسي إلى مثل السلطان في فاس سنة بعد انعقاده، وقبلها لسلطان بظهير، بتاريخ 18 يونيو 1906.
- 10- كان اغتيال M. Charbonier يوم 17 ماي 1906
- 11- منذ يوليو 1906 وتمرد تافيلالت، كان العبور إلى الأسواق دوي منية تحت نفوذ فرنسا ممنوعا، وأراد فيلاللة الانضمام إلى قبائل تودرة، التابعة للقائد الكلاوي، وإلى آيت إغلان وأهالي درعة لتكوين شبه كوفندرية بالجنوب.
- 12- لقد جاء هذا الشريف يطلب العون والمساندة من سلطان المغرب ضد الفرنسيين في موريطانيا وتوات، وكانت سكناه بعين السمارة قرب الساقية الحمراء، فوق واد درعة واسمه الحقيقي مولاي أحمد بن محمد الفاضل. (Martin.quatre) 1923Aclan p.378. siècle d'histoire Marocain). ومن أبنائه مولاي الهيبه الذي سيلعب دورا هاما فيما بعد (1912)، وغادر ماء العينين فاس في غشت 1906.
- 13- في أكتوبر 1906، احتلت المدينة بمساعدة أحد أعيان المدينة بن ربحان الذي كان قد عزله باشا أصيلا.
- 14- يتعلق الأمر بمجموعة السفن الحربية للأميرال :
- (Suffreu,Saint-louis Charlemagne)، الراسية أمام طنجة يوم 9 دجنبر 1906.

- 15- يتعلق الأمر بالضبط بسيدي محمد بوشني البغدادي، جندي كبير، شغل منصب باشا فاس مدة 20 سنة وتوفي عن سن 82 سنة يوم 22 نوفمبر 1932.
- 16- وقد تنازل الريسولي على أخذ 20000 جنيه استرليني فدية لماك لان، لكن مقابل حكم العنجرة ولم يبق على المخزن سوى اذن سوى أداء 5000 جنيهه للانجليز، وهذه هدية للمخزن لا لماك لان كما يعتقد سالم العبدى، الذي يقول بأن المبالغ المطلوبة لم تعط للريسولي.
- 17- بالفعل لقد كان رسول الإسبان بالعرائش بموافقة الريسولي، الذي اعترفوا به «سلطانا للمجبل (1913)» وقد ساعده كل المفوضين المتتاليين الجنرالات (Alfau.Marina.jordana) إلى حدود 1919، التاريخ الذي عوض فيه Berenguer الجنرال Jordana المتوفي، والذي ألح على خضوع خليفة السلطان مولاي المهدي ورفض الريسولي المتمرد، وبعدما صمد بشجاعة (يعين يريدا) في يوليو، غشت 1919، أجبر على التراجع نحو تازروت أمام القوات الإسبانية الكبيرة، إنها فترة الأقواء. وبعد هزيمة أنوال غشت 1921 أجبر Berenger على التراجع إلى جبل العلم إلى أن استدعي إلى مدريد سنة 1912، وتركه Burgueta الذي عوض في أمان، منشغلا في الخارج بعيد الكريم. ودخل الريسولي إلى تازروت، لكنه مرض بHydropic فأجرى له الأطباء الإسبان عملية يوم 12 فبراير 1924، وكان عبد الكريم الذي مد سلطته في مناطق نفوذ الإسبان قد اعتقل الريسولي بمقر سكنه يوم 27 يناير 1925، لأنه كان يرى فيه صديقا للإسبان، وأرسله إلى قبيلة بأجدير حيث سيتوفي بها ثلاث أشهر بعد ذلك (10 أبريل 1925).
- 18- مولاي رشيد عم السلطان وحاكم تافيلالت، وقد حاول إنه الدخول في الحرب المقدسة مع اسمعيد البخاري سنة 1906، فكل شرفاء تافيلالت كانوا ضد مولاي عبد العزيز ولما فشلت هذه المحاولة جاء سيدي محمد يعرض خدمته على مولاي عبد الحفيظ.
- 19- مينا نيوطي حاليا.
- 20- وبعد ثلاثة أشهر من السجن أطلق سراح بوشني البغدادي وعين باشا على القصر الكبير مؤقتا.
- 21- توفي مولاي احمد، الذي كانت عينه ناقصة والذي عرفناه بقصر الرباط يعيش طليقا مع مولاي يوسف، منهمكا في قراءته واشغاله يوم 15 شتنبر 1946. وفي نفس المرحلة كان مولاي الكبير يعيش مع أسرته حتى سنة وفاته 1939.
- 22- توفي محبوب في يوليو 1946.
- 23- راوينا في هذا الجزء من الحكاية (مطاردة بوحماره هو بن سديرة).
- 24- كان الحاج عمر النازي وزير الأملاك الخزنية في عهد مولاي يوسف ووزير الحرب والمالية والشؤون الخارجية. واستحدثت في عهد الحماية ببنقنان / وزاراتان التسيير شؤون أملاك الأهالي (عمر النازي) ووزارة الأخباس والأوقاف الإسلامية (سي احمد الجاي) وتوفي سي عمر النازي بالرباط في 28 يناير 1936.
- 26- ملاحظة :
- نعلم أن مولاي عبد الحفيظ وصل على متن الباخرة Du chaly، دون استقبال شعبي كالمعتاد. (12 غشت 1912)، ومسلم استقبلته للجنرال ليوطي، الذي كان يرافقه في الباخرة مع M:Saint-Aulaire والمقدم Simon.
- وكان نساؤه وأولاده وخدمه قد اتجهوا نحو فاس. وذهب السلطان المخلوع. في رحلة نصف رسمية إلى فرنسا قبل أن يلتحق بعدده القديم أخيه مولاي عبد العزيز.
- وأثناء الحرب الفرنكو/ألمانية 1914-1918، قضى بعض الأيام بمدريد على نفقة الألمان الذين كانوا يساندونه دائما، ولما انتهت الحرب وفشل تدخل الألمان، قبل الإقامة بفرنسا في Engchien، وأرسلت امتعته بطنجة إلى دار المخزن بفاس، وتوفي يوم 4 أبريل 1937 عن سن 61 سنة، ودفن في حفل رهيب بفاس، بمسجد سيدي عبد الله إلى جوار أخيه وخليفته مولاي يوسف الذي توفي قبله سنة 1927، وسيدفن إلى جواره أخوه مولاي عبد العزيز الذي توفي بطنجة إلى إثر سكتة قلبية يوم 10 يونيو 1943.
- أما بالنسبة لبكر أبناء مولاي الحسن. مولاي أمحمد فإنه توفي سنة 1946 أما الصغيران سيدي محمد المهدي وسيدي محمد المكتاسي فنوفيا سنة 1947 و1948.

تم الطبع بمطابع أفريقيسا الشارقة 2002
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور الدار البيضاء
الهاتف 022.25.98.13 / 022.25.95.04
الفاكس 022.44.00.80 / 022.25.29.20

حصريات

kitabweb-2013.forumsmaroc.com

زمن "لَمَحَلَات" السلطانية

تهدف هذه الترجمة لفت الانتباه إلى مصدر آخر من مصادر الكتابة التاريخية الواصفة لأحداث المغرب خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، إنها الرواية الشفوية التي يمكن اعتمادها أو الاستئناس بها لفهم بعض ما حدث خلال هذه الفترة. ولا يمكننا الادعاء أن ما جاء في هذا الكتاب كله صائب في بابه، لاعتبارات كثيرة أهمها كون لويس أرنو قد تغيب عنه أشياء، أو يزيد أخرى حين سماعه رواية الحاج سالم العبدى البخاري، فضلا عما يمكن أن يصيب ذاكرة الراوي من سهو أو نسيان أو...

ومع هذا كله يبقى كتاب "زمن لمحات" مهما جدا للقارئ لتفرد به بآراء وتتبعه لدقائق قد لا توجد في مصادر تاريخ هذه الفترة بحكم ملازمته أهم التحركات الحزنية / السلطانية منذ عهد مولاي الحسن الأول إلى بداية عهد الحماية.

ونحن إن نترجم هذا الكتاب نبغي تمكين الباحثين في هذه المرحلة من أخذ فكرة نوعية عن الرواية الشفوية التي قد تساعد في تدقيق كل جديد ومميز، كما يمكنها الإفادة في الفهم والتفسير والتحليل والمقارنة والاقناع".

الترجم :

محمد ناجي بن عمر

- من مواليد 1966/2/1 بابين جرير

- أستاذ باحث بكلية الآداب - أكادير

- عضو مجموعة البحث الأكاديمي في الأدب الشخصي بكلية الآداب - أكادير
- له :

- مقالات في الأدب واللسانيات (مؤلف مشترك).

- سوس والصحراء المغربية تواصل ثقافي وفكري (مؤلف مشترك)

- عدة مقالات في مجلات وجرائد عربية ومغربية

- مؤلفات قيد الطبع (تحقيق تراث)



لوحة الغلاف للفنان
Jean de la Nézière

ISBN 9981-25-229-8



9 789981 252295